

القسم الأول

# بين الاستمرار والتغيرات المحتملة في مطلع العصر

خصائص هذا العصر ومميزاته برزت واتضحت شيئاً فشيئاً . فأغاط العيش وطرق التفكير التي سيطرت وراجت بعد حقبة الثورة والمهد النابوليوني لم تكن ، ولم يكن لها ان تكون جديدة بالنسبة للغرب . فتحرير الفلاح المشدود الى الارض لم يكن امراً مشكوكاً فيه وحسب لدى قسم كبير من دول اوروبا ودويلاتها ، بل ان طرائق العمل ووسائل استثمار الارض سجلت تقدماً بطيئاً . لم يطلع علينا بعد ١٨١٥ كما لم يحدث قبل ١٧٨٩ « ثورة صناعية » إذ نحن أمام تطور يتسم بالبطء في كل ما يتصل بتقنية الانتاج ووسائل النقل والانتقال ، ولا تزال اكتشافات القرن الثامن عشر هي التي تفيض بنمائها على القرن اللاحق . فالأفكار التي صدمتها بمنف التصدعات السياسية وما صاحبها ولازمها من هزات اجتماعية وارتجاجات سياسية ، بقيت عرضة لهواجس الحيرة والتردد والتشكك ، وما زالت المشاعر المهتاجة في تفاعل وانفعال . فالصراع لا يزال على أشده بين النظام التقليدي والروح التحررية التي جاشت بها البورجوازية ؛ والقلق الذي يبعثه في النفوس مرأى الفقر المدقع المسيطر على الأحياء المكتظة بالسكان في المدينة ينحسر عن أعمال نافلة او عن نظريات خداعة ، برّاقة ، والطريقة الثورية التي شرعها احتلال الباسليل ودسها تستمر وتستأسد؛ والتحالف المقدس الملكي والارستوقراطي يستهدف درماً الأخذ بهذه الأساليب التي سيطرت على دبلوماسية بلاطات الملوك . فاذا ما هيأت سنوات حكم لويس الرابع عشر الاخيرة وثورات انكلترا وانتفاضاتها ، طلوع القرن الثامن عشر ، فحضوره يتمثل في معظم المجالات والنشاطات . ألم يُرس أسس الاستقلال الاميركي الذي رحبت مقاييسه واتسمت جنباوته ما بين ١٨١٥ و ١٨٣٠ ؟ ألم يوح بالحملة المستمرة المضادة للرق ؟ ومع ذلك فنغوذ اوروبا ولا سيما انكلترا ، لا يزال يتعاضم ويتجسم أكثر فأكثر ، كما ان شخصية اميركا برزت بصورة أجلى . وبالرغم من تحكم وضع اقتصادي لم يكن مؤاتياً ، فالبورجوازية المدنية اخذت تستبد بالسلطة في هذه البلدان بالذات التي تستبد بها وتسيطر عليها عوامل المال والتجارة والصناعة . والمعارك العنيفة التي خاضتها البروليتاريا الكادحة عكست من جهتها شكيمة رأس المال وسيطرته الغاشمة . فانتصب في وجه الطبقة الظافرة المتحركة طبقة اخرى اخذت تحاول إثبات وجودها بشق طريقها واحتلالها محلاً مرموقاً تحت الشمس . وفي الوقت ذاته طلع على العالم اكتشاف تقني جديد يتمثل بدخول البخار في خدمة الغرب ، وبفضل هذا الكشف العلمي العظيم عرف الغرب ان يفيد ، الى حد بعيد من خدمات ووسائل يسه استعمالها ، لم يقم في الامس الغابر ، من ظن بها خيراً ، ولا من رأى بها نفماً . وهكذا تستطيع اوروبا استئناف السير حيثما وهي على مثل ما نرى من نشاط زاخر وعافية ، للسيطرة على العالم وبسط نفوذها ، في الوقت الذي انصرف فيه الاميركيون ، من جهتهم ، لبسط سيطرتهم على اميركا .

## الفصل الأول

### سكان أوروبا

النمو الطرد تضخم عدد سكان العالم ، خلال القرن الثامن عشر ، إذ ارتفع هذا العدد من ٦٠٠ مليون حوالي عام ١٧٠٠ الى ٩٠٠ مليون في مطلع القرن اي في سنة ١٨٠٠ . وقد عرفت اوراسيا ان تحافظ من جهتها على تفوقها العددي . صحيح ان اميركا الشمالية عدت ، إذ ذلك ، ٦ ملايين نسمة بعد ان ضمت مليوناً واحداً من السكان فسجلت بذلك اكبر معدل في الزيادة ، بينما بلغ عدد سكان ما تبقى من العالم الجديد ١٩ مليوناً بعد ان كان في حدود ١٢ مليوناً . أما افريقيا فقد بقيت على وضعها المعروف تقريباً أي في حدود المائة مليون . وبالمقابل بلغت آسيا ٥٧٥ مليون نسمة بعد ان كانت ٣٣٠ ، واوروبا ١٨٧ مليوناً بعد ان كانت ١١٨ مليوناً . وهكذا فقد أربى معدل الزيادة في اوروبا على معدل النمو في آسيا (١) .

وهذا النمو المتصاعد لم يتوقف ولم يخف كما انه لم تتغير كثيراً نسبة التوزيع الديموغرافي في النصف الاول من القرن التاسع عشر. هنالك في العالم زهاء ١٢٠٠ مليون حوالي عام ١٨٥٠ . فاذا ما عرفت اميركا ان تحتفظ بأكبر معدل في هذا النمو السكاني ، إذ ارتفع عدد السكان فيها من ٦ ملايين الى ٢٥ مليوناً، فقد سجلت آسيا ٧٦٠ مليوناً وأوروبا ٢٦٦ مليوناً . وهكذا نرى كيف ان معدل النمو ازداد في اوروبا . وقد يتأتى معدل الزيادة أعلى من ذلك بكثير اذا ما اخذنا بعين الاعتبار حركة الارتمحال الاوروبي الى الولايات المتحدة الاميركية ( اي ما يقارب ١٠ في المائة من سكان عام ١٨٥٠ ) .

وقد طرأ ما غيّر من معدل توزيع السكان داخل المجموعة الاوروبية . فالخمس والثلاثون مليون فرنسي، عام ١٨٥٠، لم يكن ليزم عدداً إلا الـ ٥٧ مليون روسي . والدويلات الالمانية ( باستثناء النمسا ) تعادل لوحدها هذا الرقم ، بينما ارتفع عدد سكان ايطاليا من ١٨ مليوناً الى ٢٥ مليوناً ، كما نلاحظ زيادة مرموقة في معدل نمو السكان في الجزر البريطانية إذ ارتفع رقمهم

(١) راجع في هذا الصدد الجدول البياني لتمداد السكان في اول الفصل الرابع من القسم الثاني من هذا الكتاب.

من ٩ ملايين ، في عام ١٧٠٠ ، الى ١٦ مليوناً ، عام ١٨٠٠ ، والى اكثر من ٢٧ مليوناً ، بينهم ٨ ملايين ونصف في ايرلندا . والسبق الفرنسي في هذا المضمار أصابه التمثل ، فالتأخر لعة تناقص المواليد ، بينما يرتفع معدل نمو السكان في البلدان الاخرى . فبينما يبلغ معدل النمو في فرنسا ، عام ١٨٠٠ ، ٣٢ في الالف ، تحافظ انكلترا على مثل هذا المعدل ، عام ١٨٥٠ ، ويبلغ في المانيا ٤٠ في الالف و ٤٣،٣ بالالف في الولايات المتحدة الاميركية .

قابل معدل المواليد العالي معدل عالٍ في الوفيات . ان الامل بحياة طويلة الامد ضعيف أينما كان ، فالسواد الاعظم من السكان هم من الاحداث . ان ٤٤ ٪ من سكان فرنسا ، عام ١٨١٥ ، لهم من السن اقل من عشرين سنة والذين تجاوز سنهم ال ٦٠ لا يتلون سوى ٧ ٪ لا غير . فاذا ما تخفض معدل الوفيات قليلا في غربي اوربا والبلدان السكندنافية ، فالظروف الاقتصادية السيئة تحول دون أي تحسن في هذا المجال وتقف حجرة عثرة في اي امل بتحسن الوضع . لا بد من ان نتذكر هنا ان السواد الاعظم من الاوروبيين لا قدرة عندم على مقاومة المرض ولا مناعة عندم بالنظر لمسام عليه من نقص في التغذية ولأن موقفهم من المرض ليس خيراً من الآسيويين والافريقيين . ففي مدينة ليل ، عام ١٨٣٠ ، لا يتجاوز معدل سن نصف الاحداث بينهم ، خمس سنوات ، بينما لم يزد معدل مدى الحياة في مدينة ملهوز على ٢٢ سنة . ويكفي ان تجذب الارض سنة واحدة او ان تجذب غلامها حولاً واحداً حتى يتهاوى الساكنين والبائسون بعشرات الالوف .

المعدل العالي في الوفيات  
الأوبئة الفتاكة والطاعون

فالقاح الذي اكتشفه جنتر ساعد كثيراً على التحكم بسير الجدري ، والبرص اعتم في أشباه الجزر الجنوبية والسكندنافية ، بينما بقيت حمى البرداء على فتكها الذريع في بلدان حوض البحر الابيض المتوسط ، والتدرن الرئوي المتلبس أشكال مرض السل ومظاهره المألوفة بقي يحصد الناس دوغماً رحمة او شفقة .

فالتيفوس والوباء والطاعون هي اكثر الأوبئة الوافدة التي خشى الناس شرها الوخيم . فالتيفوس ، كالطاعون ، مرتمة القذارة وانعدام الوسائل الصحية ، فهو يعيش في الزرائب وفي الاوساط التي تعاني من سوء التغذية ، او تذهب فريسة لويلات الحرب وقتكها الذريع . فقد تميزت او اخر الحروب النابوليونية بجائحة تيفوس فتكت دوغماً رحمة بالمانيا ، وبقي هذا المرض الوبيل الخبيث ينتقل من محل الى آخر في جميع ارجاء اوربا ، مملناً عن قدومه واستشاطته بهجمات فتاكة تقضي على ٢٠،٠٠٠ في بلجكا ، خلال الازمة التي استحكمت بها بين ١٨٤٦-١٨٤٧ ، وينزل بالمحاربين في الشرق ، عام ١٨٢٩ ، ولا سباً في حرب القرم ( ١٨٥٤ - ١٨٥٦ ) من ويلاته ضحايا لا تحصى ولا تعد . وقد عرفت اوربا ، بين ١٨١٠ - ١٨٣٢ ، ان تقفادى واقفة الوباء الذي نشأ بين سكان السلطنة العثمانية . وقد اتضح للجميع بالاختبار ان اقتراس الجرذان الاغبر للجرذان الاسود والتهامة له فيه ما يخفف من انتشار هذه الجائحة .

ان الطاعون ضيف طارئاً ثقيلاً ، يزرع الرعب أينما حلّ وقام ويسمر الخوف في القلوب والنفوس . فوافدته الكبرى اجتاحت أوروبا في اثر حملة الروس على ارمينيا وعلى ايران وأثناء الدور الاول من الصراع الدامي الذي نشب بين مصر وتركيا . فالعدوى سهّل انتقالها خلال الحملات والاشتبكات الحربية ، التي قامت بين الروس والبولنديين ، عام ١٨٣٣ ، عقب وصول بعض السفن الموبوءة الى سواحل البرتغال ، محملة جنوداً وعتاداً لحساب دون بدرو ، ووافدة الوباء لم تتجاوز استراخان عام ١٨٣٣ ، إلا انها التحمت بعسك ١٨٣٠ ، شطر أوروبا فاشتدت عليها وطأتها مدة سبع سنوات ومنها امتدت الى الجزائر<sup>(١)</sup> . فقد بلغ عدد الضحايا الذين خلفتهم وراءها في فرنسا مائة الف ، بينهم ١٦٥٠٠ في باريس نفسها ، و ١٤٠٠ في برلين ، و ٢٠٠٠ في فيينا و ١٠٠٠ في النرويج ، و ٦٧٠٠ في لندن . والمدن التي تباقت عليها وطأة الجائحة ، فرقاً أهلها بأنفسهم الى الريف . فبالرغم من خوف مريب . فبمّ يستطب الناس ويتعالجون ؟ هل يفيد في مسبب الموت الزؤام ، البزموث والكلور والكينيا وحمامات البخار . وعندما اصدر حاكم مقاطعة السين اوامره بنقل الارساخ والنفايات بالعربات ، راح الزبالون بسد ان حرمهم هذا القرار من لقمة العيش ، يشعلون النار في عدد من هذه العربات ، كما راح خصوم لويس فيليب ، يستغلون لحسابهم الخاص ، الاضطرابات التي نشبت في العاصمة ، كما راحوا يسممون الخواطر ، بالشوائع المفرضة والاقابيل زاعمين مرددين ان كزيمير برييه بسمم الشعب بالتواطؤ مع الاطباء والكهنة . ولم يلبث الناس ان راحوا يتخاطفون النعوش والتوابيت وصناديق الموتى . ومع كزيمير برييه غابت وجوه : شمبوليون الابن وكوفييه وسادي كرونو .

والرياح الموبوءة الفاسدة اخذت ، بسين ١٨٤٧ و ١٨٥١ ، تهب من سباسب آسيا وفلواتها الموحشة في الحين الذي اخذت تستحكم في الرقاب ازمة اقتصادية حادة . ولما كان الشعب البلجيكي ضعيفاً وهنا لكثرة ما يعاني من ضنك العيش وسوء التغذية فقد رأته فيه الجائحة مرتعاً خصباً وفتكت فيه فتكاً ذريعاً ، فحصدت من بين صفوفه ٣٣٤٠٠٠ نسمة . وبلغ عدد الضحايا ، في لندن ضعف عددهم عام ١٨٣٧ ، كما ان امبراطورية القيصرية الروس سجلت لوحدها اكثر من ٦٠٠٠٠٠٠ ضحية ، وحصدت هذه الوافدة في باريس ، بين ١٦٤٠٠٠ و ١٧٤٠٠٠ فريسة وتجرات على الجنرال بوجو ، « ملاذ المجتمع ومعقله الحصين » ، كما يقول فيه لويس فوير . واشتد الوباء بالأكثر في الاحياء المدقمة الفقر ، كما يؤكد ارمان دي ميلون . وكان الجيش النمساوي أداة نقل هذه الوافدة الى ايطاليا ، ومن مرسلها انتقلت الى الجزائر . وقد سلكت الطريق ذاته عمام ١٨٥٥ ، فأباحت هذه المرة بكلكلها الثقيل على بلدان الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط ، كما

(١) انظر الى الخريطة ص ٧٤ - ٧٥ ، وزيادة في المعلومات يحسن مراجعة للبحث الاستقصائي الذي قام به السيد لويس شفالبيه بعنوان : « الكوليرا اولى وافدات القرن التاسع عشر » المنشور في مجلة مكتبة جمعية الثورة ، عام ١٨٤٨ ( الذي صدر عام ١٩٥٨ )

سارت في ركاب الفرق الفرنسية في حروبها في شبه جزيرة القرم ، وانتقلت عن طريق النازحين الى اميركا . وقد عرفت اوروبا في آخر الامر كيف تتقي هذا الشر الوخيم .

فلماذا ينجب الناس مثل هذا العدد من الولد اذا كانت قسمتهم الفقر المدقع مع ملطوس وضده الموت الخاطف وحياة ملؤها الفصص ؟ هذا السؤال كثيراً ما طرحه على نفسه القس ملطوس في كتابه الموسوم : « بحث حول مبدأ السكان ، الذي صدر عام ١٧٩٨ ، والذي احدث صدوره دويماً عظيماً<sup>(١)</sup> . فعندما راح يهاجم نظرية النشوء والارتقاء ، هذه النظرية التي قال بها فلاسفة القرن الثامن عشر وعلّموا ، حسب عليه هجومه هذا شجباً للقانون الانكليزي المتعلق بالقراء ، هذا القانون الذي حيد تكاثر النسل لدى طبقة المعوزين ، مشيراً بذلك الى تاموس المتوالية الهندسية ، بيتا « وسائل التغذية ، لا يمكن ان تتطور وتزداد بأسرع من « المتوالية الرياضية » . وقد تنطج للرد عليه غودون ، فراح يؤكد ان البؤس والفقر انما ينشأ عن تفاوت في توزيع مصادر الثروة الطبيعية او عن سوء في هذا التوزيع ، وعن تمركز الملكية المقارية وحصنها في ايدي عدد قليل من الملاكين . وقد وقف هذا الموقف المناهض للملطوس هذا القبيل من الناس الذين راحوا يتمنون ردة عكسية للحد من حرية التصرف المؤاتية ، في نظر بسموندي ، « للدول الثرية ، حيث ظاهرة البؤس والفقر العمام تسير جنباً الى جنب والثراء المادي » . وقد حرص ماركس ولا سيبا انفاذ على تجريح نظرية ملطوس ودحضها ، الذي ينزل العامل منزلة حيوان الجر ، تأميناً للانتاج ، ويذهب بالحكم عليه بالموت جوعاً ، والعيش اعزب طوال حياته . وعلى عكس هذا تماماً راح المتحررون من علماء الاقتصاد ، يرحبون بمبدأ يتنافى والاصلاح الاجتماعي . من الواجب ، وأم الحق ، تشجيع الناس على الاقتصاد وحملهم على التوفير ، بدلاً من التكاثر والانسال بكثرة ، كما يؤكد جان باتيست ساي المعروف بشدة قفاؤله والذي لم ينف قط « ان جانباً من الناس يموتون من العوز والتضور جوعاً حتى بين الشعوب التي تنعم بالازدهار المادي » . وراح دونيه ، عام ١٨٣٣ يوصي بقطع المساعدات الانسانية عن كل الأسر التي لا يزيد عدد الاولاد عندها ، على ولد واحد . وجان ستيوارت ميل لا يتورع قط عن « النظر الى الأسر العديدة الاولاد والبنين نظرة الازدراء والاحتقار التي يحتفظ بها للمدمنين على تماطلي المسكرات او لغير ذلك من الموبقات الجسدية » . وتألّفت في انكلترة عصبة خاصة تعرف بمصبة ملطوس اخذت على نفسها مناهضة الانسان والأسر الولود بين البائسين .

وهكذا انفتح باب الجدل والنقاش على مصراعيه . فهل يقضي المصير للملطوس او عليه ؟

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، المجلد الخامس ، ص ٥٩٩ و ٦١٧ ( الطبعة العربية ) .

## الفصل الثاني

### العناية بالأرض في أوروبا أنماط الحياة القديمة والتطور

« كل مخلوق بشري أوتي القدرة على إنتاج كمية تزيد على حاجته من الغذاء » - غودوين: ( نظرات حول السكان - ١٨٢٠ )

لم يكن في مقدور « الثورة الصناعية » ان تزيل عن أوروبا ، وهي الطابع السائد في أوروبا لا يزال طابع التربة والأرض بعد عند عتبة القرن التاسع عشر ، الطابع الريفي الذي لازمها منذ عهد سحيق . ومها كان من الدفع الرأسمالي في انكلترا ، فالتوازن لم ينقطع ، لدى سكان الجزيرة ، بين الثروة العقارية ( *Landed Interest* ) وبين الثروة النقدية ( *Moneyed Interest* ) لجهة الأخيرة منها . أما في فرنسا ، التي دخلت في ظل إعادة الشرعية الى الحكم ، فالترية تمثل ثلاثة أخماس الثروة الوطنية ، وهي نسبة تجاوزت هذا الحد في معظم دول القارة . فإن كان الانسان لا يزال يعمل في معاشه على عمله في الأرض والسعي لتأمين ما فيه كفافه ، فقد بقي الخوف من المجاعة حاجسه اليومي الذي لم يبارحه إلا في السنوات التي تجود بالمواسم الطيبة والغلال المشجعة ، حتى المدن التي كان شأنها متواضعاً على الأجمال فقد وجدت نفسها غارقة في محيط ريفي تميز معه في مقايضة موصولة وتبادل لا ينقطع .

حرص الأوروبيون الذين همهم ، في الدرجة الأولى ، تأمين أواد الاقتصاد الريفي العيش ، على ان يجنوا من غلال الأرض ومحاصيلها المتنوعة ما يؤمن لا يزال على طابعه التقليدي معاشهم العادية . مغبوظة هي الأرض التي تكفي نفسها وتفي بفرائضها المرسومة ومباركة المواسم التي تليح لأصحابها توفير بعض الغلال ، بعد ان يسدد المزارع ما عليه من رسوم وأتاوات وضرائب وعوائد .

فالمساحات المخصصة لإنتاج الحبوب لم تكن ابداً ، فائضة عن الحاجة ، إذ المهم في هذه الحياة تأمين حاجة المرء من الحنطة . فالمحاصيل الزراعية في البلد الام تكفي عام ١٨٤٠ ،

بمجاجات ٩٠٪ من البريطانيين . فإن قصر موسم الشوفان شال موسم القمح . ومع ذلك بقي خبز القمح ورغيف القمح من الامور الكالية او الترفيبية . والشوفان والشعير والذرة دخلت أكثر فأكثر في تكوين الرغيف والطحلية والعصيدة . أفليست كعكة الحلوى او قرص الحلوى في سكوتلندا من القرطم ؟

وتربية الماشية تأتي بالريف المؤمل والمنصر المساعد ، وهي تربية تعول ، الى حد كبير ، على انتاج الحقل أكثر منها عملية استثمار قائمة بذاتها . فهي تولي صاحبها القوة وتوفر له حاجته من اللبن واللحم ، اذا ما كانت تقوم على تربية الخنزير وتعتمد على السباد الطبيعي . وهذه السائمة التي تعيش قطعانها بصعوبة كلية ، على المراعي والقصيل الجفاف والتي تفتقر احياناً للملح ، هي عرضة ، من حين الى آخر ، لجوائح وأوبئة تصيب الماشية ، فتفتك بها حتى الفناء ، باستثناء الوباء البقري منها . ومع ذلك فالخروف ، يسرح في الجنوب ويمرح في مراعي واسعة يفشاهها دورياً مع مواسم الظمن . والماعز الذي يعرفونه عادة ببقرة الفلاح يقضي على الحضرة في الارض بعد ان يقضها قضمًا من الاساس .

والأهمية التي اتخذتها زراعة البطاطا بحيث اصبحت الركن الركين في نظام التغذية تعبر من نفسها عن حراجه الوضع ، كما انها دليل على قلة الطمأنينة للمواسم الزراعية وتقلباتها المحتملة . فما من شك قط ان السهول الساحلية الرطبة لم تكن تكفي لتأمين ما فيه أود العيش للسكان الآخذ عددهم بالازدياد لولا التعويل على المحاصيل الاخرى في البلاد ، وهذا ما يفسر لنا كيف ان ايرلندا لم تقفر من السكان منذ عهد بعيد .

وفي اماكن ونواح كثيرة ، لم يكن الجهد البشري ، حقق بعد ، السيطرة على سطح الارض القابل للزراعة . فقد يقنع الفلاح باستثمارها الموقت مستعيناً على ذلك بوسائل بدائية تؤول الى حرق الاعشاب بعد كشطها ، وعزق التربة وحياتها والتسميد ، كما اخذ العمل بذلك كله مناطق عديدة من الاردن . ومهما تكن دورة الارض الزراعية فهناك دوماً ارض بور . وأمام فقدان السباد الحيواني ، كثيراً ما عمد الفلاح الى الزبال او السباد الاخضر . وكثيراً ما يقنع بمزق الارض على الطريقة الصينية ، اذا لم يتوفر له ما يلزم ، من حيوانات الجر والفلاحة وكثيراً ما جرت البزار الرديء او المتأخر عن اوانه ، والمزق الناقص ، الى مواسم سيئة . فالأعمال الزراعية يقتضي لها جهود شاقة ووقت طويل وسواعد مقتولة . فالبزار يتم باليد ، وهي حركة مبرورة تبقى عماد الموسم الزراعي الى اواخر القرن . فالحصان يجري بالمنجل ، والدراسة بالخباط او الثورج تجره الأبقار . فالصور الفرعونية لعملية الحصاد لا تجرح انظار الصغار .

هذا النظام الاقتصادي القائم على موسم الحبوب ولا سيما الحنطة يبقى دوماً الازمات الزراعية

عرضة لتقلبات بحيرة اساسها اصلاً ضعف معدل انتاجية الارض ، وهذه التقلبات التي تطرأ على الحد الاعلى في الحصول ، وقصور وسائل النقل وبطئها . وهكذا اصبحت سوق الحبوب سريعة الحساسية الى حد بعيد . وهذه التقلبات السريعة كثيراً ما تقع خلال فترة من

ركود الاسعار او هبوطها ، هذا الهبوط الذي يطبع بميسم خاص ، عام ١٨١٧ وما بعده ، وهو ركود عقب حقبة طويلة من ارتفاع الاسعار استطالت الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر (١) .

ومع الاستقرار ، انعكس الوضع وانقلب ، إذ يكفي ظهور موسم عاقل واحد لتظل الازمة برأسها من جديد . فعندما برزت ازمة عام ١٨١٦ ، ارتفع ثمن الهكتوليتير من القمح في فرنسا ، من ٢٢ الى ٣٤ حتى بلغ ٤٦ فرنكاً في بعض الاماكن . وراح الناس ينزلون باللائمة على المحتكرين ، كما راحوا بالتالي يطالبون بالصادرة . وقد تجلب الهيجان ، إذ ذلك ، بأعمال سرقة الطحين ومحاولات تعدد بالقوة . وكما حدث في عهد لويس السادس عشر ، راحت الحكومة تعفي القمح من رسم الدخولية ، وتمطي مساعدات لمستوردي الحبوب ، وفتحت ابواب المشاغل الخيرية . ومنذ ١٨٢٥ ، اخذت البلاد تشكو من فقدان البطاطا مما سبب زيادة جديدة في اسعار المواد الغذائية ، ولا سيما في اسعار الحبوب ، فعادت الاضطرابات وسيطر الهيجان في مطلع عهد ملكية تومز ، وجررت اعمال عنف ضد النبلاء وضد جباة الضرائب غير المباشرة ؛ فإذا ما هبطت الاسعار عقب ذلك هدوء الاحوال . وعندما عادت الاسعار الى الارتفاع من جديد ، عام ١٨٣٢ ، عاد الهيجان يطل ثانية ليمكر صفو الامن . فندرة المواد الغذائية اوجدت مناخاً لا ينسجم واستتباب الامن في البلاد ، عام ١٨٣٨ و ١٨٤٠ .

وقلة المواد الغذائية وفقدانها كانت اصلاً وراء الانتفاضة الثورية التي وقعت عام ١٨٤٨ ، إذ قلت البطاطا في الاسواق بعد ان فتكت بها حشرة مهلكة . ففي الحين الذي لاقى فيه مئات من الألوف في ايرلندا حتفهم جوعاً وتضوراً ( الأمر الذي سبب مهاجرة أكثر من مليون نسمة من سكانها ) طرأ موسم جفاف اجديت معه مواسم الحبوب في هذه المقاطعات الواقعة بين السين والرين فتمرض لمجاعة شديدة سكان منطقة واسعة تقع على سواحل البحر الابيض المتوسط . وهكتولتر القمح الذي كان سعره يتراوح بين ١٨ - ٢٣ فرنكاً قفز فجأة الى ٤٣ فرنكاً . كما أن سعر الخبز تضاعف من جهة ثانية ، هو الآخر . فالانعكاسات والردات هي واخدة مما شجع جول فاليس على أن يضع كتاباً حول فتنة انتفاضية في فرنسا في مقاطعة الأندر ، صدر بعنوان « البلوزات » . وكان من جراء حركة ارتفاع الاسعار والاستيراد ، أن ضعفت السيولة بين أيدي الناس وأوصلت الازمة الى القطاع الصناعي . وعند أقل بادرة تساهل من قبل القوى الساهرة على حفظ النظام ، كانت الجماهير المهتاجة في كل مكان تعمل على اسقاطها والتخلص منها ولو الى أمد قصير .

(١) راجع الكشف البياني ، الشكل ٤ ، في الفصل ٦

هنالك كما يبدو تطورات ملحوظة بدأت طلائعها منذ القرن  
نتائج « الثورة الزراعيه » الثامن عشر .

ذو النج البريطانى  
راح أرفو يونسنج يؤكد عالياً ان طريقة تعاقب المزروعات  
الملفية ، الخاصة بالماشية مع زراعة الحبوب الغذائية ، هي القاعدة الاولى والركن المعول عليه  
في النظام الزراعي المتبع في انكلترا . ويؤكد نورفولك بالفعل : ان الدورة الزراعية  
الرباعية من شأنها ان تقضي على الارض البور وان تزيد الارض خصباً بمزجها التربة بالنباتات  
والحشائش والمواد الملفية الفنية بمنصر الأزوت وهي النظام الذي ارتكزت عليه واعتمده « الثورة  
الزراعية » . وعلى هذا فان اضافة بعض انواع الفصيلة الصليبية كاللفت والكرنب والسلجم  
وبعض الحشائش الربفية التي تتكاثر بالبذار كالفصة والبرسيم والحلفا يجب ان تعتبر من افضل  
الطرائق العلمية التي استنبطها العصر الحديث . وقد اخذ بطريقة التحويل الزراعي وتطبيقها  
كبار المزارعين الانكليز . بينما عارض المزارعون ، في فرنسا ، اقتباس هذه الطريقة  
لما تمثله من صدمة تلحق التقاليد المتبعة لدى صغار الملاكين والمزارعين ، في فرنسا ، مثلاً .  
ومع ذلك فقد راحت اراض عديدة معروفة بطيب تربتها ، بين المانش ومقاطعة بوهيميا  
او في سهل نهر البو ، تحاول ررع الشمندر السكري بينما اخذت أماكن اخرى تعاقب بين  
زراعة السلجم ، وبين زراعة الحبوب والبطاطا ، ومثل هذه البقول تجدها سوقاً رائجة في  
المدن المكتظة بالسكان . وراحت زراعة الكرمة في الغرب تتقهقر أمام الاقبال المتزايد على  
زراعة التفاح . بعد ان ثبت بالتجربة ان التربة والمناخ في المقاطعات الجنوبية هي أكثر ملاءمة  
لها . كذلك حشيشة الدينار اخذت مناطق زراعتها تنحدر من الشمال الغربي ، نحو وادي اليرين  
ومقاطعتي بورغوني والبافير .

وقد عولوا في علف الماشية ، على بعض الحبوب . فراح الماملون في تربية الماشية في  
انكلترا يعنون ، على الاخص ، بتأصل عروقها واستيلاد انواع جديدة بالمصالبة . فقد مهمم  
أن يحصلوا على عرق من الابقار يعطي المزيد من اللحم او الحليب . كما راحوا يستولدون  
عروقاً جديدة من الفنم الجيد الصوف . وهكذا استطاعوا ان يسجلوا لهم تقاليد محترمة يعمل  
بها في مجال تربية الماشية . من ذلك مثلاً ، النوع المعروف عندهم بـ *Durham Shorthorned*  
القصير القرن . كذلك صرف المزيد من الاهتمام والعناية بنظام السقاية والري استوحيت اصوله  
من الاساليب المستعملة في الاراضي الاسبانية *huertas* المروية المشهورة بخصب زراعتها .  
وكانت من بعض نتائج هذه الطريقة ظهور مروج ومراع هامة في انكلترا وفي بعض  
بلدان القارة .

وأخذت اوربا تجري تجارب تأصيل واستنبات عروق جديدة بين الفنم والبقر . فبعد ان  
كان الحروف من عرق المارينوس يعد في فرنسا مليون ونصف المليون ، عام ١٨١٥ ارتفع  
عدده في عام ١٨٤٠ الى ٨ ملايين رأس . وقبل أن تدخل بلدان جديدة مضمار تربية الماشية ،

أقبلت أوروبا القارية على هذا النوع من الاستثمارات ، بصورة غريبة بحيث أن المانيا عدت ٢٠ مليون رأس ، منها ٨ ملايين في بروسيا .

وبذلوا كذلك المزيد من الاهتمام والعناية لرفع الإنتاج في الاراضي الخاصة بزراعة الحبوب بعد ان ظهر للجميع فائدة تسميدها بالكلس وتخصيبها . ومع انه اصبح في الامكان التحويل ، أكثر فأكثر ، على السماد الحيواني ، فقد راحت شركات استثمارية بريطانية ، تعنى باستعمال العظام المسحوقة لهذه الغاية حتى ان احداها اخذت تستعمل قربة بعض الحقول التي كانت ميداناً لاحدى المعارك النابوليونية الكبرى . وأخذ الغوانو *Guano* يلبس ، بعد عام ١٨٤٠ ، دوراً بارزاً في عملية تسميد الاراضي الزراعية ، ومثل هذه المادة تتوفر بكثرة في بلدان اميركا الجنوبية المطلة على شواطئ المحيط الهادي . كذلك جاء بفائدة كبيرة الاختراع الذي تم على يد ليبينغ *Liebig* ومكنه من صنع مخصبات صناعية تستمد من الكيمياء الصناعية .

وما استدعى اهتماماً أكبر وجهداً مريراً هي الاراضي التي عرف الانسان ان يستخلصها من البحر . فقد طرأ تحسين كبير على طريقة تصريف المياه تدريجياً بواسطة قساطل متخذة من الطوب والقرميد ، وهي الطريقة التي اقترح العمل بها السكتلاندي سمث عام ١٨٢٣ . وقد عرف بيل *Peel* ان يحدث حولها دعابة للترويج لها ، وذلك باعتماده لها في مزرعته الواسعة في ستافوردشير بانتظار الانايبب التي اوصى عليها في معامل هوايتهد في برستن . ونظام تصريف المياه مع نظام سقاية دقيقة مكن من زراعة واستثمار السهل البادائي . وهكذا امكن ادخال محسنيات ملحوظة على الاراضي الواطية في يوركشير ولنكولنشير ، وسهل فوريز ، وبطائح سولوي والمستنقعات القائمة في المانيا الشمالية .

ولعل ما يلفت النظر في هذا النشاط الزراعي ، عمليات تجفيف الاراضي الواطية وانشاء المزارع مكانها . وبهذا تم للانكليز الاستيلاء على *Fens* ، كما اخذ الفرنسيون يجففون مستنقعات *Moers* . وتمكن الهولنديون على الاخص ، بين ١٨١٥ - ١٨٧٥ ، من استخلاص اراض من البحر مساحتها ٥٨٤٠٠٠ هكتار ، مقابل ٢٥٤٠٠٠ هكتاراً تم استخلاصها منذ عام ١٦٧٥ ، وبذلك تم ضم مقاطعات كيفراس ، وانسابولونا ، وأزالوا بحر هارلم ، وراحوا فيما بعد يعملون على تجفيف ونزع مياه مستنقعات مياه توماس وبوليننا ، بعد ان استبدلوا المضخات التي تعمل على الهواء بأخرى تعمل على البخار . وفي الوقت ذاته ، استمر العمل في بناء سدود ماركنتر ، واحياء اراضي مستنقعات البواتو ، وتثبيت كثبان الرمل في مقاطعة كسفوني . وهكذا اتسعت شطآن أوروبا المطلة على الاطلسي وأمكن تثبيتها .

وهذا الجهد لا يعني قط إغفال ما للأدوات الزراعية من قيمة والانتقاص من شأنها بعد التحسين الملحوظ الذي طرأ عليها قبل اكتشاف البخار . ولم تلبث انواع المحارث الانكليزية المحسنة ،

على اختلافها ، من طراز *Biblle* و *Howard* و *Mathieu* ان غزت القارة واكتسعت اسواقها وذاع اسمها في مختلف البلدان الاوروبية .

ومع ذلك فهذه النجاحات التي حققتها الهندسة الزراعية لم تكن بحاسمة قط . فالتجارب والمشاريع الفردية التي قام بها في هذا المجال أمثال ماثيو دي دومبال وإيفار ، الذي كانت في فرنسا ، ما كانه أثر بونغ في انكلترا ، لم تلق التشجيع المرجى من قبل السلطات في باريس . فالأساليب والطرق الفنية الانكليزية وجدت لها استجابة اكبر بين كبار الملاكين في بروسيا ، وأصبحت المدارس الزراعية تتمددها كل من *Thaer* و *Thumer* . وطبقت بسمارك في مزارعه الواسعة ، في كنيفوف ، الارشادات والاقتراحات التي أوصى بها الاخير منها ، كذلك اخذ بأسباب التجدد وتطبيق وسائل الزراعة الحديثة وأساليبها كبار الملاكين في الامبراطورية النمساوية ، وفي ايطاليا ايضاً أمثال كافور ، وفي روسيا .

كل من تطلع ، عام ١٨٥٠ ، الى الارياف ، في كل من فرنسا وانكلترا رأى الفرق والتباين بين ما كانت عليه مناظر الريف والحدائق بين البلدين ، وكلها تشهد بالسبق الذي سجلته الزراعة الانكليزية في هذا المضمار . كذلك جاء الفرق كبيراً بين اسطبلات الخيل في مقاطعة نورمنديا ومقاطعة الليموزين . ويتضح من البيانات والحسابات الدقيقة التي وضعها ليونس دي لا فيرني انه يلزم فرنسا ثلاثة ارباع القرن من الجهد والتطور الزراعي لتصبح في المستوى الذي بلغته جارتها في هذا المضمار .

عندما انتهى كبار الملاكين في انكلترا ، عام ١٨٤٥ من إقامة بريطانيا العظمى ركبان الملاكين السياجات وعملية التصوين حول ممتلكاتهم العريضة ، كانت قد صدر ، قبل ذلك ، منذ عام ١٧٠٠ ، نحو من ٤٠٠٠ قانون او قرار ، تطالب بشكل او بآخر اصحاب الاملاك إحاطة أملاكهم الواسعة بالأسوار والسياجات اللازمة . وهكذا أتيح لهؤلاء الملاكين الاستيلاء على جانب كبير من الاراضي في انكلترا .

هنالك زهاء ٢٠٠٠ من كبار الملاكين كانوا يملكون اكثر من ثلث مساحة الاراضي الزراعية في انكلترا ، ولا يزال تحت تصرف البعض منهم لليوم ، من هذه الأملاك الشاسعة ما يربو على ١٠٠٠٠٠٠ والبعض على ٤٠٠٠٠٠٠ هكتار ، وهي ممتلكات تضم لعمرى جانباً كبيراً من الاراضي الموات والمراعي . وورغبة من الارستوقراطية المقاربية البريطانية في رفع وارداتها ، راحت تحاول لتجعل من اراضيها وممتلكاتها استثمارات زراعية ناجحة . ان آل بدفورد مثلاً ، استطاعوا ، بعد ان عنوا بتصريف مياه المستنقعات من بعض ممتلكاتهم ، وإحياء الكثير من الاراضي الموات ، ان يؤمنوا لهم دخلاً شتوياً من مواسمهم الزراعية تجاوز مليونين ونصف<sup>(١)</sup> . فأملك الكونت

(١) الاشارة هنا للفرنك الفرنسي وفقاً لقبته الفعلية في شهر حرمينال من العام الثوري الحادي عشر .

ليستر الذي عرف بمعارضته لنظام الدورة الزراعية ، والتي بلغت مساحتها ١٢٤٠٠٠ هكتار ، وقيمتها خمسة ملايين ، في عام ١٧٧٦ ، ارتفعت اسعارها الى ٢٥ مليوناً ، عام ١٨٤٠ . فالأملاك الواسعة تولى اصحابها ومالكها سودداً ونفوذاً عظيمين . فالبورجوازي الكبير بيل لا يخرج عن كونه ابن درابن مانور او صرح درايتسن .

ففي انكلترا نحو من ٢٠٠،٤٠٠ من هذا الصروح التي تبدو ببساطتها من الداخل وتشرف بارتفاعها على المروج السندسية والغابات . ووجود هذه الحدائق والمروج التي تكثر فيها اسباب الغنص والصيد تضفي على مالكيها شخصية تفردة ، كما انها تسر له ولضيوفه ونزلاته ما يبعث في نفوسهم البهجة إذ تمكنهم من الانصراف لرياضة الخيل والالعاب الرياضية . فعلى مقربة من مدينة شيفلد التي تفشاهما الجلبة والضوضاء كما تفشى جوها سحابة دائمة من الدخان الكثيف ، يقوم قصر دوق ديفونشير النيف الذي يحاكي بحاله وروعته ومناظره ، قصر فرساي من قريب بمياه الهادرة ومساقط مياهه وأحواضه وفستقباته المزدانة بالتايل ، وبدفئته الفنية التي عولوا عليها لتجهيز معرض لندن ، عام ١٨٥١ ، بما يلزم . ويحتشد الأسياد من كبار الملاكين بالملات في حفلات الصيد المرحية فينصرفون لصيد الثعلب وما اليه من طرائد الطير والوحش التي تحوم في الغابات والمرقعات الفيحاء .

فالجهاز الاداري في المنطقة يقع تحت تصرف الطبقة المالكة بما لديها من قوى الشرطة وأجهزة العدل حتى ورجال الاكليروس تنويها بما توليه الملكية العقارية لصاحبها من شرف وسؤدد . وهذا الرهط الكبير من كبار اصحاب العقارات الكبرى يعرف ان يؤمن له ريعاً كبيراً مما على سطح الارض او في بطنها ، يساهم الى حد كبير في تأمين ما يؤول الى تطوير المدينة ومراقب الصناعة في البلاد . ويملك كل من اللورد وستمستر وبدفورد ، جانباً هاماً من لندن يتكون من أطيان وعقارات طائفة ، ويقومان فيها بمعاملات وأعمال تجارية واسعة ، وإيجارات مع رهن وبنيات العديد من المباني والعمارات التجارية لاستثمارها . ويعمل لورد دورهام ولورد لندندري في تجارة الفحم الحجري وتسويقه ويملك كثيرون من كبار الملاكين المصانع والمعامل . ما من شركة تجارية ولا من مصرف مالي إلا وله عائدات محترمة من ريع العقارات التي يملكها ، وهذا الريع هو في انكلترا أعلى منه في القارة بفضل قوانين الحبوب ( *Corn Laws* ) التي تحظر دخول الحنطة الأجنبية الى البلاد . في مقدورنا ان نلاحظ شيئاً من التناظر بين القوانين المتعلقة باقامة السياجات ( *Enclosure Acts* ) وبين تقييم سعر الحبوب . ففي الحين الذي كان فيه علماء الاقتصاد وآدم سميث ينظرون الى الدخل او الريع العقاري نظرم الى هبة او عطية من الله رأى ملطوس في هذا الريع نتيجة حتمية للضغط الديموغرافي في البلاد . وها هو ريكاردو يشجب ريبية القلة والعوز ، هذه الثمرة للحيازة الحائمة . ويتساءل كويدن المتفائل مستوضحاً ما اذا كان باستطاعة صغار الملاكين في البلاد ان يعرضوا ، باستمرار ، سكان المدن للجماعة . ولذا حتمت الجماعة التي وقعت عام ١٨٤٠ *Hungry Forties* على اصحاب الاملاك الكبيرة ، القيام بتنازلات ملحوظة بهذا الشأن .

ومن جهة اخرى ، كان المزارع في انكلترا افضل وضعاً من زميله في القارة ، إذ لفه يملك منزلاً بوجوازيماً يضم غرفة الاستقبال وينعم في سويعات فراغه بالمطالعة والرسم ويبعث زوجته لتبتاع من المدينة ما ترغب في شرائه من ألبسة وزينة . هنالك ، بالمقابل برونيتاريا هي دوماً عرضة لتقلبات سوق العمل ، كما يوجد في البلاد ، طبقة من اصحاب الفقر المدقع ، كما يدل على ذلك هذا العدد المرتفع من هؤلاء العمال المسجلة اسماؤهم في بيت العمل *Workhouse* ، إذ تتراوح نسبتهم بين ١٠ و ١٥ ٪ من سكان الناحية ، وهي حالة فقرية يزيد من يؤس اصحابها وقماستهم التطورات السريعة التي اخذ بأسبابها رأس المال الصناعي ورأس المال الزراعي ، إذ جرت الاول الحراب على الحرف اليدوية في الريف كما استأثر الثاني بالسيطرة على الارض . فالاصلاح الزراعي الذي أجري عام ١٨٣٤ لم يحدث اي تغيير يذكر ولم يحوّر شيئاً من المبادئ التي كرسست ديمومة هذا الشكل من الفوضى الاجتماعية في البلاد . وبالرغم من المساعدة التي قدمها هذا الاصلاح للراعيون التي لم يعد بإمكانها مزيد المساعدة للمعوزين والبائيسين ، فهو لم يمنع المساعدة عن هذه الأسر إلا ليجعل العمل الالزامي أشد اسراً وأنكد عيشاً .

بحق الفتح وباسم القوة سيطر كبار الملاكين على ايرلندا هذه الجزيرة الفلاح الايرلندي  
وما يمانيه من بؤس ومدلة الواقعة الى الغرب من انكلترا . فسواء أقام فيها صاحب الارض او في مدينة بلفاست او في دبلين او مكث في انكلترا ، فهو لا يستثمر منها سوى قسم ضئيل من رأس ماله وهو على يقين بأنه سيجد دوماً فيها السواعد المتقولة . فالسكان الذين يتناسلون فيها بسرعة يتوزعون بين ٧٠٠،٠٠٠ مزرعة ( مقابل ٢٠٠،٠٠٠ في بريطانيا العظمى ) معظمهم لا تزيد مساحة مزرعته على هكتارين وتبقى شبه ضائعة لا تقع عليها عين بين ممتلكات تتراوح مساحة الواحدة منها بين ٦٠٠٠ و ٦٠،٠٠٠ هكتار . فالمرابع او المزارع الضعيف الجانب يشده الى الارض عقد مشروط لا يستطيع معه مبارحة المزرعة التي يعمل فيها لأخرى إلا بعد إنذار صاحب الارض برغبته تلك بستة اشهر ، عملاً بالعرف المتبع ( *rundale* او *runrig* ) الذي يجعل القرية بأجمعها متضامنة متكافلة معاً في أداء المفروض عليها من الغلة او *Conacre* المرتبط دوماً بأمل الحصول على موسم طيب ، تسديداً ووفاء لعوائد باهظة . فهو لا يتمتع حتى بهذه الطمأنينة التي تتوفر لرقيق الارض . فهو يستدين ليؤمن بذاره والعشر المترقب عليه نحو الكنيسة ، سواء أكان من أتباع الكنيسة الانكليكانية او لا ، والضرائب العقارية التي زادت فداحة منذ الحروب الاخيرة . ولما كان دخله لا يمثل إلا ثلث المحصول القائم ، كان على ملتزم الارض ان يتدبر امره بالاستدانة بفوائد عالية وبييع قسم من حصته . وكان من جراء هذا التصرف ان فقدت البلاد مواردها لاسيما اذا ما عرفنا ان مساحة الارض المخصصة لزراعة المواد الغذائية أخذت تتناقص امام إقامة المراعي والبروج . والبطاطا وحدها هي المعول عليه في تأمين أود الاسرة والحنزير الذي يحتل قسماً من المطبخ في الزريبة فيأخذ الفلاح الايرلندي يجوب الارض بحثاً عن عمل ( هنالك اكثر من ٦٠٠،٠٠٠ يقفون عاطلين عن العمل اكثر من

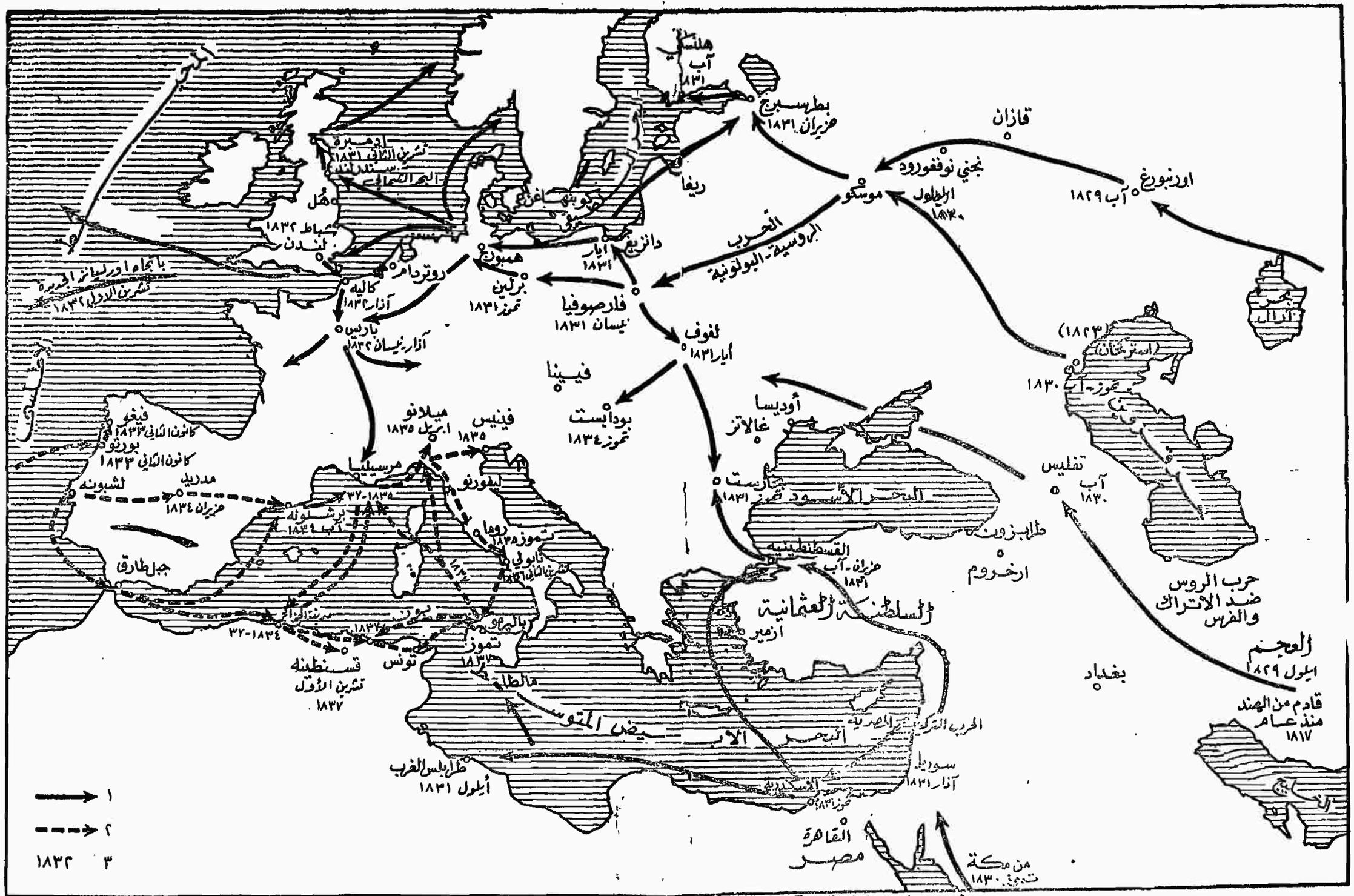
نصف السنة) وإلا اضطر ان يتبلغ عيشه الضنك في منزله الموصل بصطلي، على الرديء من الفهم  
بتنازعه عاملا الاستسلام والياس .

زد على ذلك الاضطرابات الزراعية التي كثيراً ما رافقتها حرب دينية وصراع مستميت ضد  
اجنبي طارئ، استباح باحة البلاد مما لم يترك للانكليز سوى فترات قليلة من الهدوء النسبي  
وراحة البال . فبعد الهيجان الذي احتدم أواره عام ١٧٦٣ - ١٧٦٤ ، والفتنة الدامية التي  
قامت بين ١٧٩٦ - ١٧٩٧ ، وهذه الفوضى التي استبدت بالبلاد بين ١٨١٠ - ١٨١٤ ، والمجاعة  
التي أنشبت أظافرها ، عام ١٨٢٢ ، كل ذلك جر البلاد الى اضطرابات دامية تحللت الازمة التي  
نشبت عام ١٨٣١ أصبحت معه الجزيرة مسرحاً لأعمال العنف والحرايق والجرائم السياسية . ولم  
يعد الأمن الى نصابه إلا بعد حوادث ١٨٤٦ - ١٨٤٨ المفجعة التي أدت ليس الى إفقار الريف  
فحسب بل الى ثورة دامية .

بعد عودة البلاد الى الشرعية وجد ملوك آل بوربون عندهم طبقة من  
في فرنسا مجتمع  
من صغار الملاكين المتواضعين  
يتألف في كثير من المناطق من مزارعين ومرابحين وعمال مياومين .  
فبعد ان صدمت آمالهم في ما عللوا النفس به وتوقعوا من تقسيم ، استمسك اكثرهم حرماناً  
بالأعراف المعمول بها مجتمعياً ، هذه الأعراف التي شجبتها ونددت بها عالياً التشريعات الفردية  
والاقتصادية . وعندما راحت حكومة تموز تفكر بإلغاء حق رعي الماشية في المراعي الخاصة  
ووقف العمل بما تمتعوا به من حق المرور ، والمباشرة بإحياء الاراضي المشاعية وتعميرها ، أثارت  
المجالس البلدية امامها احتمال قيام هيجانات شعبية في البلاد. وقد استقر في روعها انه من الافضل  
الاحذ بنظام تأجير الارض بدلاً من توزيعها. وقد صدر بذلك، عام ١٨٥٠ ، قانون بين وسائل  
تطبيقه ووضع موضع التنفيذ .

هنالك أملاك ساروا في استثمارها وفقاً لأصول الزراعة الحديثة كما حدث احياناً منذ القرن  
الثامن عشر ، وظهر للعمال الفرق بينها وبين الاملاك التي ساءت العناية بها فبارت بالتالي مواسمها  
وفانت غلالها. ويلحظ ستانفال في مذكرات سائح ، تحول بعض اصحاب الاملاك الذين قالوا  
بالشرعية ، الى العناية بالارض . وراح بعض البورجوازيين وبعض اصحاب الاراضي من النبلاء ،  
خذاً منهم بالنظام الانتخابي المعمول به ، يتحكمون بمجتمع ريفي تسوده الفردية والتشتت .  
الأملاك العقارية هي متواضعة الحجم ، اجمالاً ، باستثناء بعض المقاطعات حيث المزارع الكبرى  
بقيت تدار وفقاً للتقاليد المرعية، وحيث المستأجر يفتقر للثقة ولاسيولة لتأمين ما يطمع فيه من  
ارباح واستقرار. فهل كان فورييه يفلو عندما يؤكد لنا، عام ١٨٢٩ ان هنالك في ارجاء مقاطعة  
بيكارديا ، فلاحين ومزارعين لا فراش عندهم في هذه الأكوخ القرابية التي يعيشون فيها ، فهم  
يتخذون لهم فراشاً من الاوراق اليابسة التي تمبت فيها الهوام والحشرات . ويتساءل نويل





شكل ١ - وافدة الكوليرا الكبرى في أوروبا ١٨٢٩ - ١٨٣٧

بارفيه ، عام ١٨٤١ ، ما اذا كان وضع الفلاحين العاملين في سهول *Beauce* يختلف كثيراً عن وضع آباؤهم وجدودهم ، إذ كان طعامهم دون ما يحتاجون اليه بكثير ، إذ لم يكن غذاؤهم اليومي سوى الخبز الاسود الناشف بعد ان كانوا يؤمنون لنا خبزاً ابيض شهياً - وبعض البقول ، وشيئاً من الجبنة مع الماء بالقدر الكافي ، هذا الماء الذي ينقص احياناً ، في فصل الصيف بعد ان تجف البرك والغدران وتنزح الينابيع والآبار ، بينما لا يذوقون من انواع اللحم غير دهن الخنزير ضمن ورقة الملفوف ، مع العلم ان الحصة السنوية للفرد الواحد من القمح واللحم قد ارتفعت ، من عهد لافوازييه الى سنة ١٨٤٠ ، من هكتولتر وربع و ١٨ كيلو من اللحم الى هكتولتر و ٣/٤ من القمح و ٢٢ كيلو من اللحم ، بالإضافة الى كمية اكبر من البطاطا والخضراوات والحليب وأحياناً التبيذ . والنظام الاقتصادي الذي حرص ابن الريف دوماً على التمسك به هو ان يكفي نفسه بنفسه وان يبيع كل ما يعطيه مردوداً أطيب ، وهي عقلية رجل مقتصد مه الوحيد ان يتمكن من زيادة املاكه مها كفه الامر من حرمان ، ولحمل من غصص ومضض ، مع العلم انه لن يتمكن دوماً من تقادي الوقوع في الدين . وهذا هو بالذات ما حمل برودون ان يرى في عمليات الرهن التي كثيراً ما تعرض له ابن الريف ، المشكلة الكبرى ، هذه المشكلة التي رأى فيها ماركس انه حلت محل الرسوم السيادية .

وهكذا مها بدا من امر هذه المفارقات الاقليمية القائمة ، فالريف الفرنسي بقي مستمسكاً بالأعراف والتقاليد التي أقصرت سكانه على العيش الحقيير . فهم يصرفون اوقاتهم في المباحكات والانتفاص من خدمة المعلمين ورسالتهم ويسلمون بالخدمات التي يؤديها الطب ، ويعولون كثيراً على الاطباء الدجالين ، ويحشون جانب النبلاء ويستسلمون بكليتهم كالأطفال ، لمباهج الأعياد الوطنية وأفراحها ، ويتنكرون هنا ، للخوري الذي يقوم على خدمتهم الروحية ، ويحلقونه هنالك ، محتفظين من المسيحية بمعظم ما لها من مظاهر وثنية ، عارضين صورة العذراء مريم الى جانب صورة نابوليون . وبالرغم من ثورة ١٧٨٩ التي حررتهم من العشر والحقوق الاقطاعية ومنحته تلقائياً الحق القانوني دون الحق الفعلي بالاستملاك واقتناء الاراضي ، فالعالم الذي يمش فيه هذا الريفي الفرنسي هو ، من الوجة المادية والعسكرية ، يحاكي من قريب ، العالم الذي عرفه وغره في العهد البائد . فهو لن يتخلص ، من الوجة الديموغرافية بسهولة ، من عقابيل الازمة التي اخذت بتلابيبه بين ١٨٤٦ - ١٨٤٨ .

على اثر الفتوحات الفرنسية ، استمرت حركة تحرير الفلاحين في احتدامها الصاعد وان لم تأت هذه الحركة واحدة قدرأ ، وفعماً ، في كل مكان في البلاد الواطية ومقاطعات الريف وسويسرا وايطاليا الشمالية . فقد ألغيت في كل من هذه الاقطار تقريباً الحقوق السيادية كما اخذ يحتفي فيها تدريجياً ، رق الارض ، وسهلت بالتالي امام الاهلين حقوق التملك

انكفاء النظام السيادي في المناطق الواقعة بين البحر الشمالي وجبال الابنين

ومعاملات توزيع الأرض ، مع ما نرى الى جانب هذا كله ، من بوادر حركة رجعية وردة عكسية بعد عام ١٨١٥ .

ففي البلاد الواطية حيث بقيت الكنيسة وطبقة النبلاء محافظتين على امتيازاتها ، استحوذت البورجوازية على حصص كبيرة من الاراضي بينما بقي مستثمرو الارض من مستأجرين ومكثرين على عسرم المالي المعروف . ففي السهول الفلنكية حيث لا يزيد معدل مساحة الارض التي يتصرف بها الفلاح او المربع على ثلاثة هكتارات ، يوجد نحو من ٣٠٠,٠٠٠ من الشقيلة المياومين ، بحيث ان نصف عدد سكان الريف لا يستطيعون العيش إلا باحتراف الحياكة وصناعة النسيج . فقد كانت السنوات ١٨٤٠ - ١٨٤٨ ، وبالأعلى هذا القطر الذي اصطلحت عليه ، في آن واحد ، أزمة خائفة من هذه الأزمات التي حلت ببضاعة النسيج ، ومرضى زراعي فتك بزراعة البطاطا ، بينما كان سكان مقاطعتي البرابنت والهينو في وضع يحسدون عليه .

أما في سويسرا ، فالمجتمعات الريفية تعيش متحررة ، متمسكة بأعرافها وتقاليدها ، بينما يزرع المزارعون العاملون في المرتفعات ، تحت سيطرة كبسار الملاكين في المدن الذين لا يزالون متمسكين بأعراف السخرة وضريبة العشر ، فلن يكتب الفوز التام لحركة التحرر هذه إلا بعد جهود الديوقراطية الريفية وتضحياتها السخية في أعقاب سنة ١٨٤٨ .

أما في المانيا حيث لا تزال نرى بعض واحات تزرع تحت وطأة رق الأرض ، فالحرية مثقال جانبها ، والأملاك السيادة لم تعد تمثل شيئاً يذكر اذا ما قيست بنظام اكتراء الاراضي الزراعية . فليس فيها من يفكر بالتخلي عن الاجراءات التي تم وضعها تحت تأثير الثورة الفرنسية . فقد صدر في مقاطعة روتنبرغ مرسوم يقضي بإلغاء رق الأرض ، واستبدلت السخرات الاعتبارية بأعمال سخرة محددة ، مشروطة ، كما ان التشريعات التي صدرت في مقاطعة بادن يسرت شراء او اقتلاك الرسوم المتوجبة كما اصبح إلغاء السخرة ، بعد عام ١٨٣٥ ، امراً واقعياً في هذه الفرانكوية . ومع ذلك فالفلاح يقاسي كثيراً من حرمانه من الارض ومن الربا الفاحش مع الرهن ، بحيث ان ثورات الفلاحين ، في المانيا الجنوبية ، عام ١٨٤٨ ، اتجهت ضد اليهود وضد كبار الملاكين من النبلاء ورجال الكنيسة .

فالسواد الأعظم من سكان الريف ، الى الجنوب من الالب ليسوا بأسعد حالاً ، بالرغم من زوال الرسوم الاقطاعية . فنظام استئجار الارض وتأجيرها على أساس المرابمة ، هو النظام الذي لا يزال متبعاً في هذه المرتفعات ، والارض غير المروية الواقعة في سهول البو بينما نرى المرابمين والعمال المياومين العاملين في سهول لومبرديا ومقاطعة البندقية وفي دوقيات مودين وبارم هم عرضة لأبشع الاستغلال من قبل اصحاب الاملاك الجشعين وأرباب الأسر الكبيرة ، الذين يعيشون عيشة الترف والعصف على مقربة من هذه الاكواخ المتخذة من اغصان الشجر ومن اللبن الجفف . وبالرغم من تبيجه بالتضلع من أفانين الزراعة وأصولها . فان هيولوبولد دي توسكانا

الذي يزور مزارعه معتمراً قبعة من القش ولا بساً قماطه أبعد من ان يفكر في تلطيف وضع هؤلاء المراهبين والعمال المياومين ، بعض الشيء . وهذه المستحذات التي اخذها وتبناها قرناه رجال الاقتصاد ، من بينهم مثلاً ، كميل بنسو دي كافور ، كانت اعجز من ان تدخل محسنيات سرية على وضع الطبقات الكادحة .

ساد الى الشرق من نهر الايلب ، والى الجنوب من جبال الابنين في توسكانا والبيرانيس نظام الاطيان والممتلكات الضخمة .  
الاطيان الضخمة على حدود اوروبا الشرقية وفي شبه الجزر المطلة على البحر الابيض المتوسط  
فرق الارض هو النظام المسيطر هنا وهناك في هذه المقاطعات المتصلة بروسيا والبلقان .

ففي شبه الجزيرة الايبيرية ومملكة نابولي اصبح الخطر يهدد وضع النبلاء والاكليروس تحت تأثير مفارقة غريبة تتمثل في هذا التنافس الانكليزي الفرنسي . فراح الفلاحون الذين عرفوا بكرههم للاجنبي وبتعصبهم الشديد يتصرفون تصرف سكان مقاطعة الفانديه . واذا لم يعد آل بوربون ، في ايطاليا ، بعد عودة الشرعية في فرنسا ، فالبوربون في اسبانيا ، قوضوا من الاساس ، بحركة جذرية ، العمل الاصلاحى الذي يوشر به في عهد الملك جوزف او جرى الاخذ به عن طريق الكورونيس بتوجيه منه .

وكانت هذه الممتلكات الواسعة *Latifondi* تمتد من جبال الابنين الوعرة المسالك حتى السهول الساحلية التي ساء تصريف مياهها . فقد أخذت في مقاطعة بولوني ، ٧٢٪ من مجموع مساحة الولاية ، نصفها للنبلاء والنصف الآخر لأصحاب الطبقة البورجوازية . ويصور لنا لامارتين ، سنة ١٨٣٢ ما كان عليه « وضع الشواطىء البحرية في مقاطعات روماني وكالابريا والاراضي الواقعة في جوار مستنقعات بونتين وبتانحما ، من فقر واستيحاء » . هنا ارستوقراطية زاهية متفطرة تتخفف من مشاغل الارض والعناية بها تاركة امرها لمتهمدين عامين ، لتستسلم للعبث والاهو والاستمتاع بمشاهدة التمثيل وسباق الخيل ، وهناك بروليتاريا بائسة ، كادحة قوامها مزارعون ومرابعون وعمال مياومون ، تؤلف معيناً لا ينضب من شذاذ الآفاق ومرتباً للمعوزين .

والاحصاء الذي أجري عام ١٧٨٧ ، سجل ملاكاً واحداً بين ٣٥ شخصاً . فمقاطعات البشك تملأ من كبار الملاكين ، هذه المقاطعة التي كانت تقاخر بما فيها من معمرين يعملون في استثمار الارض ، ومثلها مقاطعة النافار ومقاطعة كتلوني حيث راج نوع من الايجار المرهون يكاد يؤلف شبه ملك للفلاحين . فسهول فالنسيا تتقاسمها آلاف الحصص الصغيرة التي لا تتجاوز مساحة الواحدة منها بضع دونمات ، بينما يخيم ، على ولايتي غاليسيا واستوريا حيث يسيطر توزيع الاراضي المرهقة بحقوق الارتفاق ورق الارض ، البؤس والشقاء وما يجملان في ثناياها من بيلات . فالزارع المرتبط بالارض بملاعة واهية يزرع تحت وطأة الاعشار ، كما ان الفلاح القشتلاني يتضور ، من جهته ، جوعاً فوق قطعة ارض تزرع تمحاً يبقى نصفها بوراً . والمياوم الاندلسي يفادر المدينة

وما اعتاد عليه فيها من بطالة لينصرف للعمل مرتين في السنة ، وذلك في اوان الحصاد او لتقليم الكرم وقطف العنب . ونقابة العاملين في تربية الاغنام ( *La Mesta* ) ، تحول دون زراعة الارض وتعميرها واحيائها لتؤمن لقطعان الغنم ، المراعي اللازمة وفقاً لمقتضيات الظمن . والكنيسة من جهتها ، تعمل على منع الفلاح من التملك ، هذا الفلاح الذي يتسكع في مهاوي الجهل والخرافات ، ليكون ابدأ على استعداد لتأمين الاعمال الوحشية ، هذا الفلاح الذي يصوره لنا غويا في « ويلات الحرب » يقنع بشرحة لحم وكسرة خبز اسود او ببصلة او كراثة او بجبة بندورة او بحز بطيخ مع قليل من النبيذ اذا ما اسعفت الحال . فاذا ما تمت عام ١٨٣٥ مصادرة املاك الكنيسة ، فلا يستفيد من العملية غير الملاكين العقاريين والبورجوازية .

أما في بروسيا ، فالمعارضة التقليدية المتمثلة في كلايست وآدم مولر ، والمتمركزة حول الملاك الاقطاعي الكبير لودفيغ فون دي ماروتز ، أوجست خيفة من ان تفقد الخدمات التي كان رب الارض يفرضها على المستأجر ، ليحسن استثمار الارض التي هي باستلامه ، هذه الارض التي يحاول مالكا ان يوسعها ويزيد من نطاقها بضم قطع اليها ، الامر الذي يعيد الى الازمان عملية التسييج التي اخذوا بها في انكلترا . فالأطيان الواسعة آخذة فيها بالازدياد والاتساع وعرفت ان تؤمن لها يداً عاملة احتياطية ، تكلف اقل من الاولى ، كما انها تسمى في تأمين المزيد من الاصلاحات الزراعية . إلا ان اتجاه اوروبا الوسطى نحو رأسمالية عقارية من النمط السائد في انكلترا لم يكن ليتحقق إلا على انقراض النظام القديم . فرق الارض لن يزول في هذه المناطق التي يروها نهر الدانوب قبل عام ١٨٤٨ . وهذا ما سبب تأخر البلدان الدائرة في فلك آل هيسبورغ . هنالك بعض كبار الملاكين امثال تششني يدعون عالياً للأخذ بالأساليب والمناهج الانكليزية ، فتنتصب في وجههم طبقة النبلاء الصغرى ، مما هو في مصلحة فيينا العليا التي عرفت ان تقيد من هذه الانقسامات إبقاء منها لوضع كان لا بد ان يفضي في نهاية المطاف الى خرابها فهلاكها .

لا نعرف بلداً احسن استغلال الطغيان المستبد مثل روسيا القيصرية التي القرى الروسية الكبرى الخاصة لرق الارض فرضت عبوديتها على الفلاح . ففي الوقت الذي اتسع فيه العمل بنظام رق الارض ، اشتد في تلك البلاد ساعد المجتمع الفردي ( *Le Mir* ) بحيث اصبح باستطاعة القيصر ان يعهد اليه بمجباية الرسوم والعوائد والضرائب المترتبة .

مما لاشك فيه قط ان علم الاقتصاد الريفي عرف ان يجتذب اليه بمض ذوي الاملاك الواسعة ، امثال آل غالتزين وآل سامرين وآل مورافيف الذين لم يفهم قط الاطلاع على النظريات الانكليزية والفرنسية والالمانية الحديثة فيما يتعلق بخير الاساليب الخاصة باستثمار الارض . فالاصلاح الزراعي الذي قامت به بروسيا بين ١٨٠٧ - ١٨١١ ، كان له اثره البالغ على طبقة النبلاء البلطيقين من دم الماني ، هذه الطبقة التي كانت تباع محاصيلها الزراعية لتجار مدينة ريغا ، بفضل اعمال ونشاط هذا المربع الذي كان يحسن تسميد الارض بكشط سطحها مع ما عليه من احشاش يحرقها تخصيصاً للارض وإلامات عليها جوعاً .

فالعامل المأجور يعود على صاحبه بربح أكبر إذا ما تم في المجال الصناعي الذي تأذى كثيراً من رق الأرض وعبودية الفلاح . وانتشرت بين الناس فكرة تقول ان العمل المأجور يربح أقل مما يربحه العمل الحر . فاذا كان الفلاح او المزارع يطمع في المزيد من الحرية فلرغبته بالخلاص مما يمانيه من أعمال السخرة وما يزرع تحته من عوائد الأرض وأثرتها ، والعمل على تحرير المجتمع الفردي ، لا ان يضطر لقضاء يومه كادحاً يعمل في حقل سيد الأرض . ومع ذلك ، فمندهما راح القيصر يلغي بعد التجربة التي قام بها في ليفونيا ، رق الأرض ، في الولايات البلطيقية ، فقد رمى من حركته الإصلاحية هذه الى تسهيل تحويل سواعد القرويين الذين جرى تحريرهم ، للعمل في ممتلكات البارونات . ففي بولونيا ، لم يتدخل القيصر نيحولا لوضع حد لساوىء النظام ، إلا لفاية واحدة ، هي تقليم اظافر النبلاء الذين وضعوا انفسهم في موضع سيء خلال الثورة التي نشبت ، عام ١٨٣١ . فبعد ان سلم واقتنع بأن رق الأرض ، كما يجري العمل به آنذاك هو شر واضح ، فالتعرض له الآن وتعديل هذا النظام يفضي الى شر اكبر . ومع ان الاضطرابات المستمرة التي زاد عدد الفتن التي قامت خلالها على ٥٥٥ فتنة ، بين ١٨٢٦ - ١٨٥٥ ، باعتراف الادارة ذاتها حملته على التسليم ببعض التنازلات ، فهذه التنازلات لم يفد منها سوى الفلاحين العاملين في املاك التاج ، مع العلم ان القائمين بالحركة الإصلاحية يترددون جداً في حركتهم هذه . « فجمعية الجنوب » برئاسة بستانل تواجه احتمال القيام بتغييرات جذرية ، بينها « جمعية الشمال » ترفض تحت تأثير نيكيئا مورافييف ، التسليم والاخذ بمبدأ التقسيم .

وايحازاً للوضع يمكننا ان نقول بأن اسباب التذمر آخذة بالازدياد والارتفاع . ففي السموات التي يجود فيها المحصول وتطيب الغلال ، تمجز السوق الداخلية فيها من تصريف الانتاج واستهلاكه فتسقط الاسمار . أما في السنوات المعجاف فالجماعة تطل بقرنها على الابواب . فالجماهير الريفية تتسكع في البؤس ، وپروح الملاكون المعروف سوادهم بالكسل والقعود وهمم الاكترات ، يستدينون إشباعاً لمطالبهم التي يعجز ربيع الأرض عن اشباعها . وهكذا نرى الامبراطورية تتجه نحو ازمة حادة إلا اذا حلت في الوقت المناسب ، المعضلة الزراعية الآخذة بالخنق ، وذلك بالفناء رق الأرض والقضاء على النظام السیادي فيها ، مشجعة بالأحرى الدعوة للرأسمالية العقارية . فالظروف المعارضة يمكن ان تقنع النبلاء بأن في اتخاذ مثل هذا التدبير ، وهذا التدبير وحده ، الخلاص ، شريطة ان تنجح هذه المحاولة الإصلاحية الهامة دون ان يلحق أذى بالنظام السياسي والاجتماعي المعمول به في البلاد .

## الفصل الثالث

### التقنيات الجديدة في الصناعة والنقل

جاش عصر الانوار برغبة جامعة نحو المعرفة ففانص صمبقا في الابعات  
سير العلم بين جبل رانحو  
الرياضية وتوغل الى نظرية علمية لتفسير نشأة الكون وسير ابعاده  
النجوم في مئاهاتها وابعادها السحيقة ، واستثمر البحار الترامية الاطراف ، وأنشأ علم النبات  
ودشن عهد الكيمياء وسخر الكهرباء للترفيه عنه واستنبط المحرك البخاري وتوقف ملياً منمعا  
النظر في ماهية الاجيال الطالمة كما اعرض جانباً عن الآداب الكلاسيكية . صحيح ان الحروب  
الدولية لم تساعد كثيراً على تطوير الاتصالات التي هيأت اسبابها الشعبية الدولية ، غير ان  
الحوافز الضرورية جعلت العلماء في يقظة واستنفار حتى اذا ما عاد السلام الى نصابه والامن الى  
محرابه ، تجددت الاتصالات . فاذا ماراح شاتوبريان ومدام دي متال يقومان بتشهير الطعمة  
الرياضية ، ، واذا ما رأى لامارتين في العلوم الرياضية غلا وقيداً للفكر البشري ، فقد عرف  
غوتيه ، من ناحيته ، ان يحافظ على هدوئه ورباطة جأشه ، وغاص «كونت» الى ما فوق أذنه في  
الفلسفة الوضعية بعد ان اولى العلم المقام الاول ووضع في رأس النظام الفلسفي .

أما العمل وظروفه وأوضاعه فلم يطلع عليه شيء جديد . فقد بقيت باريس جذوة هذه  
المعاهد الكبرى التي أسسها المؤتمر الوطني ( الكنتفسيون ) والتي راحت تنافس بنجاح ما قام  
فيها من ركائز ومؤسسات سابقة وطيدة تعمل في خدمة العلم ، امثال : كوليج دي فرانس  
وأكاديمية العلوم والسوربون شيخة الجامعات . أما في انكلترا ، فقد تقدمت الركب وسارت  
في الطليعة هذه المؤسسات المتمتعة باستقلالها فتقدمت على جامعتي اكسفورد وكمبريدج . وابطاليا  
لا تزال تتمتع بكنوز فنونها التي تفيض نعومة وعذوبة ودقة . وهذه «الجمهوريات العلمية» التي  
طلعت في سماء اوروا الوسطى ، تمثلت على خير وجه في هذه الجامعات التي نعمت بنصرة  
الامراء المستبشرين ومؤازرتهم ، حتى ان روسيا نفسها ساهمت بهذا النشاط الفكري العارم .  
وقد اوشكت تازف ساعة هذا الجامعي الذي يدرس كل شيء في أثناء طلبه للعلم ، بعد ان قل  
عدد نصراء العلم في صفوف الارستوقراطية . فالروح تهب حيث تشاء ، والتفاعل الفكري  
وتبادل المعلومات ساعد ادفر على اكتشاف السيارات نبتون بواسطة مرصد جامعة كمبريدج ، في

الوقت الذي راح فيه لوفريه يعين بالأرقام مكان هذا الكوكب وموضعه بحيث اخذ عدد من علماء الفلك امثال غوس الالماني ولويتشفسكي الروسي وبولييه الجري بدعوة كل لنفسه فضل سبق الى وضع هندسة غير إقليدية هي الهندسة الإهليلجية .

عرفت العلوم الاخرى ، من جهتها ان تفيد من الاجازات البعيدة الاثر التي حققتها العلوم الرياضية في تطورها الصاعد . فقد تعاون لابلاس ولافوازيه فيما بينهما وتعرضا في الابحاث التي وضماها للعديد من المشكلات والقضايا العملية . وامير الذي تميز بفضوله العلمي وبروح طلعة لاتي ولا ينطفيء لها غليل انطلق من الاختبار العملي الذي قام به دورستد حول زيفان الابرة المغنطيسية ، فوضع لهذه الظاهرة قاعدتها المعروفة . وغوس ارتبط اسمه بالتحليل العملي وبالهندسة المتناهية الصغر والرياضيات العليا وحساب الاحتمالات والميكانيكا الفلكية والجويدسيا . هنالك لعمري زوايج بين العلماء انصرفوا للرياضيات النظرية ، امثال ايبيل الذي كشف عن قواعد واسس حساب التكامل ، وايفارست غالوا الذي وضع نظرية الفئات والاجناس ، فمات الاول بائساً ، كما قتل الثاني في حادث مبارزة . وفي اثر المعطيات العملية لحساب المتناهي الصغر التي تم الكشف عنها في الحقبة الكلاسيكية على يد نيوتن وليبنتز بعد أولير وفرريره ولوجاندر ، وضع غوشيه مبادئ الدالة التحليلية والمعادلة التفاضلية ربثا يتمكن ريمان من وضع الأساس الحقيقي للدالة الجبرية بعد ان اقترح فرضية هندسية جديدة غير اقليدية .

كل الاجازات العملية التي حققتها العلوم التجريبية تتصف بطابع علمي صرف . ومناخه منه لنظرية نيوتن حول الابتعاث البصري ، راح فرسنل يؤيد النظرية الرحوية التي كان لاح لهويجنز بعض ملاحظها الاولية . واذ ذلك اخذ بيو وأراغو ودافيد برويساير وضمون للأل ظاهرة استقطاب الضوء . وبفضل حاشدة (بطارية) فولطا ، اخذ اورستيل يفسر عملية زيفان الابرة المغنطيسية ، تم عكن امبير من ان يضع اسس الكهربية المغنطيسية ، اساس الملف اللولبي والمغنط الكهربي والتلغراف البرقي . وعلى عكس ذلك ، كتب لفرادي ان يكشف عن امرار ظاهرة اخرى هي الحث ، اساس الدينامو . وبالاتفاق مع جاكوبي فقد توصل الى اكتشاف الكيمياء الكهربية المتعددة التطبيق في مجال صناعة التمدين : كالغلفنة والتذهيب والتفضيض ، وصب امهات احرف الطباعة والكليشيات في الطباعة والحفر المباشر : ففي الحين الذي كان يعمل فيه كل من انطوان بكرييل ودانيال على تحمين حاشدة فولطا ، نرى سييك يتصرف لدرس مؤثرات الكهرباء ، الحرارة التي سبق ( اوم ) ان وضع قوانينها .

كشفت لافوازيه ولاپلاس وفي ارم فوريه عن نظرية الحرارة التحليلية ، هذه الحرارة التي تجلت مظاهرها بشكل قوة حية جزئية . فالعلماء غاي لوساك ويوا وبرتوليه وبروست بما فيهم دالتن وقانون الانساب المتعددة وافوغادرو الذي كشف عن ثقل الجزئي ، بقوا عند هذا الحد .

لا شك في ان رامفورد ودايفي هما اول من ظننا بالعلاقة الموجودة بين الحرارة والعمل . ويعود لسادي كارنو احد اولاد لازار كارنو ، الفضل في اثبات التكافؤ بينهما ، في بحث وضعه من قبل لم يكثر له احد . فكان اساس الديناميكا الحرارية التي لفتت اليها أنظار ووبرت مسير وجول في الابحاث التي وضعها في هذا المجال . فالحفاظة على الطاقة واندثارها او انحلالها ، والميكانيكا التطبيقية اتخذت اساساً لها هذه الابحاث .

ومنذ لافوازييه اخذت الكيمياء المعدنية تكشف تباهاً عن اسرارها الدفينة ونواميسها . كذلك اخذت الكيمياء العضوية تعسر هي الاخرى عن اسرارها ، عندما تمكن شفرويل من ان يستخرج الشحوم على اختلافها من الحوامض الدهنية ومن الفليسرين ، كما استخرج بللوتيه وكافنتو القلويات من المواد النباتية . فالمارك القلبية احتدمت حول نواميس المعلم الجديد فراح والتن لأول مرة يقول بالنظرية الذرية ويبسطها وراح القائلون بالتكافؤ الذري عاجون بعضهم بعضاً : جان بايست دوماس والذريون وعلى رأسهم برزيليوس الذي قال بنظرية « ثنائية » في التفاعلات الكيميائية والكهربائية التي تصحبها ، ولم تلبث ان شالت نظرية التعادل او التكافؤ ، هذه النظرية التي نهض بها جرها ردت ، ورتز وكيكولييه بينا راح بوتليروف يوضح النظرية الايسومترية او نظرية التقايس والنظرية التجزئية .

وقامت معارك اخرى في مجالات العلوم الطبيعية . فقد سبق لديدرو وبوفون ان استشعرا نظرية الارتقاء والتطور كما ان روسو راح يشدد ، من جهته على ناموس الانتقاء الطبيعي او بقاء الاصلح ، وهي نظريات ادخلت الشك والارتياب على عقيدة خلق الكون ، وبالتالي الديومية او الاستقرار كعقيدة دينية . وراح احد تلاميذ بوفون هولامارك يثير جدلاً حامياً عندما وضع عام ١٨٠٩ كتابه الممنون : « فلسفة علم الحيوان » حيث اخذ يعرض نظرياته وآراءه حول تطور الانواع وقيامها زارعاً الارتياب في نظرية الثبوت او نظرية الاستمرار التي يبدو ان لبنيه قال بها ، وعلام . وفي بحث له مشهور حول « تصنيف الثدييات » اخذ كوفيه الذي يعد من مؤسسي علم التصنيف المقارن وعلم الاحاث او البانتولوجيا ، ينشر عام ١٨١٢ ، كتابه الموسوم : « خطاب حول جوائح الكرة الارضية » ، وذلك ليفسر لنا عن طريق الكوارث الطبيعية ، كيفية ضياع الانواع البائدة وزوالها . فعودة هذه الانواع الى الحياة من جديد لا يمكن ان يكون الا هبة من الله . فقد سلموا بوقوع هذه الكوارث او الجوائح الجيولوجية - وهو قول يؤيده كوفيه - الا انهم رفضوا الاخذ بالنظرية « البركانية » التي تقول بالظهور التدريجي للقشرة الارضية البرانية التي تبني القول بها ليليل فيما بعد . واذ ذاك اصطدم كوفيه بصديقه جوفروا سانت هيلار الذي تبني في كتابه « الفلسفة التشريحية » النظرية التي تقول بسل الكائنات . فأثارت هذه القضية ضجة حملت اكاديمية العلوم على التدخل في النقاش العلمي . وقسام غوتيه يكتب عام ١٨٣٠ لايكerman بعد ان تبادر الى اذنه انه يتم بقضية *Les Trois Glorieuses* ، يلفت نظره الى ان

« المناقشة تدور على ما هو اهم من ذلك بكثير » . الا ان كوفيه عاد فانتصر بعد الموقف الرسمي الوطيد الذي وقفه وانتصر معه ، الى حين ، خصوم نظرية النشوء والارتقاء التي تبنى مقالها الفلاسفة الطبيعيون وغوتيه نفسه .

ففي الوقت الذي توطدت فيه ابحاث بيشا حول علم التشريح اطلت علينا نظرية الكائنات المتناهية الصغر بفضل المجهر الذي ساهم في اختراعه اسرة دولوند . فاذا بالعالم امام كشف جديدة واسرار جديدة . فما هي لعمرى هذه المادة التي يدعوها هوغو فون موهل : البروتوبلازما ؟ فالحلية لا تتولد الا من الحلية كما يؤكد فيرشوف *Virchow* بعد هارفي وشليدن وشوان . وعلى هامش الجدل الذي قام حول نظرية النشوء تبدو العلوم الحياتية على اتم استعداد للانتقال الى مرحلة جديدة مهمة جداً .

ومها يكن من الامر فالتاريخ الطبيعي علم يأخذ بمجامع القلب . وعندما راح جوفروا يقدم للملك شارل العاشر في سان كلو ، ظرافة اهداها اليه محمد علي ، اظهرت الجماهير حساسة عارمة افاد منها المتحف الوطني . ويستوحى كونت تالم بلانفيل خصم كوفيه اللودو ليشيد نظريات علم الاجتماع . وسانت بوف يتنطح من جهته لوضع التاريخ الطبيعي للعقل البشري ، ويأخذ اسكندر همبولدت بوضع كتابه : « الكون » الذي جاء شبه موسوعة في العلوم الطبيعية .

كشوف الهندسة الصناعية  
عقباً نحاول ان نعرف بالضبط الوقت الذي استطاعت فيه الآلة ان تحدث فيه تغييراً واقعياً في ظروف الحياة واحوالها في الغرب ، فالعقل المتعدد - الفنون ، الثقيف يداعب احلاماً معسولة ، وفي هذا يكتب كونت قائلاً : « لا شك فيه قط ان طبقة المهندسين ستبقى العامل المباشر الذي لا يد منه لتأمين التحالف بين العلماء ورجال الصناعة ، هذا التحالف الذي سيرفع البنيان الاجتماعي الجديد » . هنالك على ما يبدو شيء من الاستعجال لدى انبياء العصر الذي ينعون متأسفين هدر القدرات العقلية والطاقت الفكرية كما يأسفون الاسف الشديد لهذا السير المشوش والتحالف للمنطق الذي يسيره التقدم البشري

ففي السنة التي مات فيها واط - ١٨١٩ - لم تكن الآلة التي استنبطها استطاعت بعد ان تقضي على مطاحن الماء والهواء ، كما ان الساقية لا تزال هي التي تتحكم بالمكان الذي يصلح لاقامة منسج الحياة . وبالرغم من هذا كله فظهور كشف البخار سيمى العلامة المميزة لهذه « الثورة الصناعية » التي رأت النور في القرن الثامن عشر والتي كانت عصب القرن التاسع عشر بطوله وهذا البخار ليس بالواقع سوى الماء الغالي ، مها كان الوقود المستخدم لرفع حرارة هذا الماء الذي استحاله الى حالة الغليان بدلاً من ان يكون سائراً يتدحرج فوق الحصى . وقد بذلوا قصارى العناية لادخال تحسينات على طريقة واط ليفيدوا منها الى الحسد الاقصى ، فطلعت علينا المرجل ذات الموقد الداخلي . وفي سنة ١٨٢٩ خرج علينا آل ستيفنسن بقاطرتهم الاولى :

المصاروخ ( *The Rocket* ) على الشكل الاسطواني وجاءت النشيجة ترفع الطاقة التي يولدها الاحتراق الى العشر . ومن جهة اخرى كان الناس خارج انكلترا يفتقرون جداً للأشخاص الفنيين المتخصصين بصنع هذه القاطرات وتركيبها . وقد عرفت انكلترا ان تحافظ طويلاً على السبق الذي سجلته في هذا المضمار اذ كان لديها عام ١٨٣٠ نحواً من ١٥٠٠٠ من الآليات البخارية بينما لا يتوفر منها لفرنسا سوى ٣٠٠٠ ولبروسيا ١٠٠٠ .

فقد عرفت هذه الجزيرة ان تزوج بين فوائد الحديد والفحم الحجري لسد حاجات الصناعة المدنية التي فاقت بكثير المستوى الذي سجلته هذه الصناعة في دول القارة . فقد اخذت ترسل الاخصائيين المهنيين لأعمال النقب والحفر . وكان حفر الدهاليز واستخراج الفلزات لا يزال يقوم على سواعد العمال . ولم يلبث ان حل التنقيص المعدني محل الآجر او الطوب . واخذت آلات الجمر التجارية تجر العربات الى سطح الارض محمولة على روافد من الخشب نُضت عليها قضبان من الحديد عرفت باسم *Rails* ، كما تم تحسين ملحوظ في طرق الضخ واساليبه الفنية . وأطل على العالم في انكلترا المصباح الذي وضع تصميمه الكيميائي همفراي دايفي فجاء هذا الاختراع ضمانة نسبية ضد انفجار غبار الفحم ومع ذلك ترددوا كثيراً في التعمق والتوغل في بطن الارض . فقد اقتصر التنقيب عن الفحم والمعادن في المقاطعة الريفية على الحفر عند سفح التلال . وفي سنة ١٨٣٣ فقط تجرأوا على فتح عرق في قلب الارض على عمق ٥٤ متراً .

وصناعة الصب التي تستعمل كوك الفحم لم تكن من المستجدات ولا عملية نزع الكربون بواسطة تسوية الحديد ( *Puddlage* ) ، وهي عملية تقتضي العامل جهداً شاقاً ( اذ كان عليه ان يحرك الصب المصهور بواسطة مسعر من الحديد يعرف باسم *Rungard* ) . وهذه الطرائق الميكانيكية التي عرف الانكليز ان يدخلوا عليها ، في القرن الثامن عشر تحسينات ملحوظة زادت كثيراً من فعاليتها ، أولتهم اسبقية ظاهرة في مجالات الصناعة على انواعها . فمئات الحديد ، ثمنها في فرنسا ضعفاً ثمنها ونصف في انكلترا . وتمكن الانكليزي ولكنسن من استعمال الكوك وقوداً في المعامل التي انشئت لصب الحديد في الكروزو عام ١٧٨٢ . اما بلجيكة فلم يرق فيها مثل هذا الفرن ، قبل عام ١٨٢٢ ، وقام واحد منها في سانت المجلبرت عام ١٨٣٢ ، وفي الروهر عام ١٨٤٧ . وجروا على الطريقة ذاتها في عملية تسوية الحديد . فالكوك قيد الاستعمال في نيويدي ، عام ١٨٢٤ ، وعند ستوم في الروهر عام ١٨٣١ ، وفي سيليزيا بعد ذلك بخمس سنوات . واذا كانت صناعة الزجاج تخلت عن وقود الخشب لتقبل على المواقد ذات الشعيرة ، فصناعة الخزفيات الانكليزية اعتمدت طريقة ودجود الفنية التي يعود وضعها الى عام ١٧٦٠ هذه الطريقة التي ضمننت للخزفيات الانكليزية الرواج ايها كان .

وتمركزت حول حرفة الخراف ، مهنة التجار هذه المهنة التي يجب ان تراعي مقتضيات دولاب الطاحونة او نول الحياكة . الا ان الآلة البخارية تأثرت من عدم توفر الدقة في تركيب الدواليب . ولذا اخذوا يفكرون بالفوائد التي تعود على الصناعة بصنع آلة متحركة توصل العلم الى صنعها بعد قرن من المحاولات والتجارب ، بعد استلهاهم اجهزة الساعة والمواد التي توفرها صناعة الخشب . فقد خطرت ا « براماه » من قبل ، صورة عن المكبس المائي كما وضع ولكنسن صورة لمثقب يستعمل في صنع المدافع ، ومودسكي صنع دولاباً معدنياً لقلوزة البراغي وفارة للتجارة ، كما اخترع سارك إيزمبار برورنل المنشار المستدير . وتمكن فيريرن الذي اخترع مكوكاً من المدن للنسيج ان يدخل تحسينات ملحوظة على مثقب إشعاعي . وتوصلوا بين سنة ١٨٣٨ - ١٨٤٢ الى اختراع المدقة الحديدية التي تعمل على البخار وتستطيع ان تقوم بتركيب لحام اكبر القطع المعدنية وأدقها على السواء . وكان من نتائج اختراع هذه الأدوات المتنوعة ان مهدت السبيل لظهور العديد من المهندسين الميكانيكيين امثال فرنسوا كافييه .

وقد حقق النول الميكانيكي انتصاراته الاولى اذ ساعد كثيراً على تسهيل اعمال الحياكة والنسيج الخاصة بصنف حديث من الخيطان مأخوذة من مادة القطن . ففي الوقت الذي تمكن فيه الأميركي ايلي هويتني ان يخترع عام ١٧٩٣ محلج القطن الذي حمل معه الثروة والازدهار بانشاء ما يعرف بجزام القطن في بلاده ، فقد حرص الانكليز على ان يحتفظوا بسر صنع الأدوات الخاصة بصناعة النسيج والحياكة . وبمساعدة احد الهاربين المدعو ديكسون ، مكن رسلر احد سكان مدينة ملهوز المدعو شلمبرجيه من ان يبني مصنعاً يعنى بصنع الآت النسيج . وقد أدخلت تحسينات على فن طباعة الاقمشة على يد برو ، وعلى نول الحياكة نفسه على يد السويسري بودمير الذي استوطن بولطن وعلى يد احد سكان ملهوز المتشارك مع كوكلي هو هيلمان ، هذا النول الذي اخترعته كارترابت من قبل والذي يعمل بالبخار . كذلك هنالك تحسينات لحقت بطبع الاقمشة باختراع اسطوانة نحاسية ، كما ان المكوك المدب كان باعثاً على ازدهار هذه الصناعة في نوتنغهام قبل ان يتم ادخالها بالحيلة الى فرنسا . كذلك شاع استخدام آلة Jacquard في صناعة التخريم او الدانتلا التي بعثت النشاط الصناعي في مدينة كاليه . وصناعة الكتان نفسها عرفت بدورها انقلاباً ثورياً بفضل المكوك الذي اخترعه سكان مدينة غنت المدعو بوفانس ثم ادخل عليه كروكس ولاسيا جيرارد فيما بعد تحسينات ملحوظة . وقد سجل مطلع القرن في عداد الانجازات العلمية التي سجلها اختراع الانوال الخاصة بنسيج التريكو والصداري بدون خياطة والتطريز الآلي ، ناهيك عن المشبك الذي اضفى على المنسوجات الحريرية المصنوعة في ليون ما امتازت به من نعومة ودقة ومتانة . ولكي نتيين اهمية هذا التطور التقني يجب ان نتيقن ان حائكاً ميكانيكياً يعمل في صناعة القطن اصبح ينتج سبعة اضعاف ما كان ينتجه حائك آخر يعمل باليد .

من المستجدات في الكشوف العلمية آلة الخياطة الآلية التي اخترعها خياط متواضع للالسة هو تيمونيه . وكان من بعض نتائج هذا الاختراع ان احدث ثورة في مصنوعات الالسة وعمل على ترويج ما يعرف بـ *Sweating system* . وقد ادخل فيما بعد هو وسنجر في الولايات المتحدة تحسينات هامة حيث آلة تركيب الالاب و آلة خياطة الوجه والنعل مكنت صناعة الاحذية من تأمين الانتاج بالجملة .

ومما يلفت النظر في هذا التطور التقني العظيم هو ان المواد الاولية في التغذية بقيت خاضعة لوسائل العمل التقليدي . فاستخدام الآلة في مجال الزراعة هو في اول مراحلها . فالخاصة الميكانيكية التي اخترعها الاميركي ماك كورميك لم تفرض نفسها على الاستعمال الا بعد مدة طويلة . ومطاحن الماء والهواء ستبقى قيد الاستعمال على نطاق واسع ولمدة طويلة ، والخباز لا يزال يستعمل يديه في توضيب العجين وتهبئة الخبز ، كما في السابق ، مع انه عام ١٨١١ اخترع معجن آلي لا يزال غير متقن ، والكروم لا يزال يستعمل رجله في عصر العنب او المصرة ، وتخمير الشمير لصنع الجعة يقتضي له عناية كبيرة . والوسيلة المثلى لحفظ اللحوم تبقى التمليح والتدخين ، والالبان لا يمكن حفظها وصيانتها الا بشكل جبنة ، يجب استهلاكها بسرعة ومحلياً والا تعرضت للفساد سريعاً . وقد اشار أبير الى الوسائل التي تضمن مكافحة الفساد والتعفن عن طريق الحرارة العالية التي تسبب التعقيم ، ولم يحن بعد الوقت الذي يمكن فيه استخدام التبريد الاصطناعي . فصناعة سكر الشمندر وحدها تتطور بسرعة بفصل الطريقة التي توصل الى استنباطها اشار بفضل تكريره بالحامض الكبريتي وبازالة لونه بواسطة المادة السوداء عن طريق استعمال مداحل اسطوانية الشكل تمتص العصير .

لم نلاحظ من ناحية اخرى اي تقدم يطرأ على فن البناء ، ومع ذلك فقد ظهر منذ عام ١٨٢٤ سيمنت بورتلاند الذي يلتصق ببطاء ، ولا في مجال التدفئة . ولما كانت بريطانيا مهتمة بتصريف محصولها من الفحم الحجري فقد جرت محاولات لصنع وجاقات ومدافئ من ذوات الموقد المسيج ، واجهزة توزيع البخار المائي على المنازل .

والاستصباح بواسطة الغاز المستخرج من حطب الوقود ومن الفحم الحجري لعدم وجود الغاز الطبيعي الذي اخذ الاميركيون بضبطه واستغلاله في بلادهم ، شق طريقه نحو الاستعمال منذ التجارب الاولى التي قام بها لوبون وموردوخ . وقد راحت لندن تباهي باريس وتدل عليها بسبقها لها على استعمال الغاز في التنوير والاضاءة العامة . وسيمضي نصف قرن قبل ان تتمكن منازل البورجوازيين ، في المدن الفرنسية من تقدير نعمة التمتع بالغاز في كل ادوار المنازل . والمصطلح عليه هو عادة قنديل زيت الكولزا المستخرج من بزر السلجم بعد ان ادخل عليه أرغان بعض التحسينات بعد ان راح كنيه يتبجح بانسه صاحب الفضل في اختراعه ، وقد ادخلت عليه تحسينات فيما بعد على يد جيرار وفرانشو ، كما ان الناس بقوا يعولون على استعمال

الشمعدان الحقيير المغرب . وستعمل الشمعة في نهاية الامر بحمل الشمعدان التي نرى في اسمها شيئاً من اثر الجزائر التي كانت قد سكان البندقية بشمع العسل الذي اخذ يدخل مزوجاً بصنع الشموع مع مادة الشحم . وقد سبق لشفرويل ان اشار الى الدور الذي يمكن للحامض الستيارى لعبه في هذا المجال . وقد توصلوا فيما بعد الى تأمين نوع من التصبن والى صنع فتيلة صالحين للاستعمال . ومن الاجهزة الاساسية في الملاحه البحرية المناثر التي يعمل فيها قنديل من طراز أرغان ، هذا القنديل الذي استطاع رمفورد تزويده بعدة فتائل متراكزة والتي تضاعفت طاقة الضوء فيها بواسطة جهاز عدسية وعاكسة فريسل .

ولست اقل اهتماماً بالملاحظة والتقدير العالي التطورات التي امكن للفن ادخالها على صناعة الكتاب والجريدة والصورة ، رغبة منه في الترويج لها ونشرها على الملأ . فقد درجوا الى الآن ، على استعمال الورق المصنوع من الياف القنب والكتان بعد مزج عجين الورق بالهلام ( وهي طريقة اكتشفها لويس روبرت في مصانع ديدون في أسون ، اذ ان الآلة الخاصة بصنع رب الورق لم تكن معروفة الا في انكلترا) . وسكب احرف الطباعة وصبها كان يتم بواسطة قوالب امهات الحروف او باليد . كذلك أدخلت تحسينات على حبر الطباعة وعلى فن صنع الكليشيات ، وهي طريقة مكنت من توفير النسخ باعداد غير محدودة . كذلك تمكن اللورد ستانوب من اختراع نموذج لا مثيل له من امهات الحروف .

وتمكن اللورد ستانوب نفسه من اختراع مكبس من المعدن ترك بعيداً وراءه المكبس الذي كان اخترعه غوتنبرغ وحل عام ١٨١٠ محل الآلة التي وضعها كونيغ السكسوني بالاشتراك مع الطباع اللندني بنسلي . وقد كان سبق لجون والتر مدير جريدة التيمس ووصف لكونيغ طريقة الدفع الميكانيكي التي ارتسمت صورتها لنيكلسن مدير جريدة الجورنال الفلسفي عندما وقع نظره على الاسطوانات الطابعة للاقمشة . ففي ٢٩ تشرين الثاني ١٨١٤ ، جرى طبع هذه الجريدة الكبرى في لندن لأول مرة على طابعة تعمل بقوة البخار المحركة للآلات . وبعد ذلك بقليل اخترع كونيغ مكبساً يعمل على عجلتين كما اخترع روسليه ، عام ١٨٣٧ ، مكبساً ذارداً فعل . ومهما يكن ، فالطبلية كانت تركز مسطحة على ارضية من المرمر . وكان لا يد من الانتظار الى سنة ١٨٤٦ حتى يتمكنوا من تركيبها على الاسطوانات نفسها . وهذا الشكل الاسطواني هو الذي سببه السبيل للتركيب الطابعة المعروفة بالروتاتيف بحيث اصبح ميسوراً ، منذ ذلك الحين ، سحب ٨٠٠٠ نسخة في الساعة بدلاً من ١١٠٠ نسخة عام ١٨١٤ وبذلك أطل على العالم عهد الدورية ذات الانتشار الواسع .

فلا عجب قط ان تفيد صناعة الكتب من هذا التطور العظيم الذي طرأ على فن الطباعة . ولم يلبث ان تمكن الذوق الفني في الطباعة على انواعها واستبد بالانتاج الفكري . ففي باريس نشطت اعمال النشر في دار النشر ديدو وازدهرت . وصناعة الحفر التي اصبح الآن بإمكانها

استنساخ الصور والرسوم انتشرت وعم استعمالها بسرعة على اشكال متنوعة ، كالحفر على الخشب وفقاً لطريقة بيويك ، والحفر على الحجر او الطباعة الحجرية التي توصل اليها الممثل المسرحي سينفيلدر . وانفتح الباب على مصراعيه امام الجورنال المصور الذي عُرف باسم مغازين . كذلك عرفت طباعة العملة الورقية ان تفيد هي الاخرى من هذا الاختراع ( وبذلك عرف جاكوب بركنز الاميركي ان يعقد الامور في وجه مزوري النقد ) ، وهواية جمع الطوابع البريدية ستطلع بعد حين لتوفر للعاملين على تكوين المجموعات الفنية ، اللذة والفائدة معا .

وفي سنة ١٨٢٩ ، اخترع برايل بالتعاون مع فوكو الكتابة النافرة لتعليم العميان ومكفوفي النظر .

لم تقطع العناية طول القرن الثامن عشر بتحسين شبكة الطرقات ذروة السرعة في وسائل النقل وتطويرها بشكل يسهل الاتصالات والانتقال . ونحن لا نقصد هنا التأكيد بان الطرقات التي كان يسلكها الانسان ماشياً على الاقدام او متمطياً صهوة احد الحيوانات او راكباً احدى العربات كانت في وضع يركن الانسان اليه . فمن الحوادث الحزيرة بالذكر مثلا ان توفيل غوتيه ، في الرحلة التي قام بها الى اسبانيا عام ١٨٤٠ كان يشكو من ان الثعيرة التي أقلته لم تكن لتستطيع التقدم الا بفضل قبضة من العمال تسيير في ركابه ، اذ « كانوا يعملون على التخفيف من حدة كره العجلات في المنحدرات والعطفات الخطرة ، والسهر على متانة السرج واستقراره ، وسلامة الازمة ولارسنة والقدرة على كبح البغل الحرون الجفول » . وبالفعل لم يكن في اسبانيا ، اذ ذاك من الطرقات الموصوفة « معبدة » ما يتراوح طوله بين ٣٠٠٠ و ٦٠٠٠ كلم . تم شقها خلال خمسين سنة ولم يتوفر شيء من هذا في صقلية قبل منتصف القرن التاسع عشر ، وجادة موسكو في بطرسبرغ لم ينجز شقها الا في سنة ١٨٣٤ ، وعلى عكس ذلك تماما كانت شبكة الطرقات الفرنسية التي بلغ طولها ٣٠،٠٠٠ كلم ، قامت السياسة التي اوحى بناءها على مطالب وطنية واعتبارات سياسية والرغبة في الظهور والتأثير في الخارج ، وكانت الرئيسية منها بالتجاء المانيا وسويسرا وايطاليا الشمالية . وعلى هذا الشكل وتلك السياسة سارت الدولة البروسيانة ، ورغبة منها في تيسير العمل بالوحدة الجمركية ( Zollverein ) . اما في مملكة البلاد الواطية ، فقد نشطت الشركات والهيئات البلدية فيها للنهوض بطرقها . وفتحت سويسرا من جهتها طريق الغريزون وجبل سان غوتار .

ولعل ما هو اصعب وأشق من هذا كله هو صيانة هذه الطرق . فقد راح كل من ناقبيه ويكوف ينصحان عبثاً بكشط الطريق بمسد كل مطرة ، بينما راح بولونسو ولامورانديير يوصيان باستخدام المداحل الضاغطة التي فكروا بفائدة استعمالها منذ عام ١٧٨٠ . وعلى عكس الطرق الفرنسية التي كانت 'تعد' ، اذ ذاك ، اجمل واحسن الطرق في العالم كله ، كانت الطرق في انكلترا تتمتع بسمعة عاطلة لما كانت عليه من ضيق وتعرج وتقاطع الحواجز . أفلم يكتب يوفنغ عن الطرقات التي تنطلق من لندن باتجاه

اطراف البلاد ، بأنها على الوضع الذي تركها لله فيه بعد الطوفان ؟ اذ كان شق هذه الطرق وصيانتها تقع على شركات عملية ( *turnpike trusts* ) قوامها اعيان المنطقة ووجوهها ، تقوم بجباية رسوم الدخولية واستيفاء عوائد عينية . ومع ذلك اخذت شبكة الطرق فيها بالامتداد والاتساع اذ بلغ طول هذه الشبكة ٣٢،٠٠٠ كلم عام ١٨٣٠ وارتفع الى ٥٠،٠٠٠ كلم عام ١٨٥٠ . وقد تطورت على الاخص الوسائل التقنية في شق الطرق : اذ غلب عليها بتأثير بلفورد، السطح المقيب للطريق بحيث يسمح هذا الشكل بتصريف المياه المتسربة ، كما اوصى مالك آدم في هذه الابحاث التي عقدها وحث فيها على الاهتمام بطرق البلاد ، برصف الطرق بالحصى فيسهل دحل الطريق كما يسهل بالتالي تأمين الشكل المقيب لها . وطريقة ( تحصيب ) الطريق التي دخلت الى بلجيكا عام ١٨٣٠ ، لم تنتشر في فرنسا الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

والامير كيون ، رغبةً منهم في التغلب على مشكلة المسافات ، أخذوا ، على الاجمال ، بهذه الطريقة الفنية ، عام ١٨٤٠ ، وبذلك جعلوا صالحة لسيير هذه المسالك السيئة *corduroy roads* كما كانوا يصفونها لمشابقتها كثيراً شريط الحمل والتي لم تكن تفضل قط الطرقات المعروفة في الغرب باسم *Plank roads* التي اتبعوا في شقها الطريقة الروسية اذ فرشوها او بالاحرى دقوها بالواح الحشب من جذوع الشجر .

وكما في السابق ، فالطريق يسير عليها جمهرة من المشاة ومن اصحاب الحرف وعمال المناجم بينما الموسرون يمتطون خيولهم او يدرجون في عرباتهم ، في الوقت الذي تأخذ فيه الطرقات العامة بالانتظام . فالخافطة البريطانية تتمتع بسمعة طيبة . فهي تقطع الـ ٦٠٠ كلم التي تفصل بين لندن وأدنبره في ٤٢ ساعة ، اما عربية *Quick silver* فلا يقتضي لها اكثر من ٤ ساعات ونصف لقطع المسافة بين لندن وبرايث ، وبعد ١٨٣٠ لقطع المسافة بين لندن وبرمنغهام بسرعة ٢٣ كلم في الساعة . اما في الشق المقابل من خليج المانش ، فالانتقال بالعربة من باريس الى مدينة رين ٤ ايام ، والى مدينة ليون ٦ ايام و١٢ يوماً الى ستراسبورغ ، في عهد الامبراطورية . ومدة الوقت تهبط الى النصف بين ١٨١٥ و ١٨٤٠ ، اذ كانت العربة تقطع ٦ كلم في الساعة بدلاً من ٣ ، وهي عربية ضخمة ثقيلة زنتها ٤ اطنان وتشحن من ١٦ - ١٨ راكباً في حجراتها الاربع من درجات مختلفة . ومنذ عهد الديركتوار كانت عربية البريد التي تؤمن نقل البريد تنقل ايضاً من ٣ - ٤ راكب فكانت عربية خفيفة تجرها ٤ جياد وتقطع ١٠ كلم في الساعة حوالي عام ١٨١٥ ، ثم ارتفع المعدل الى ١٥ كلم عام ١٨٤٠ ، وتبلغ بوردو وليون وستراسبورغ في ٤٠ ساعة ، تسير «كهبوب الريح» كما يكتب هوغو ، اذ ذاك . فاذا كانت الرحلة لا تموزها المناظر الشيقة امثال : السائق الطروب الهازل ، والكسول احياناً وغالباً السكران ، وفرقة السوط ينهال على اقفية الخيل ، والموسيقى عند الانطلاق ، وحدث ما ليس بالحسبان من المفاجآت ، ووقوع الحوادث المثيرة . فقد كان من مميزاتا ومفارقاتها غالباً : المقاعد الضيقة

ارتجاجات لا نهاية لها ، والزهرير هنا ، والحر هناك ، تارة يفوصون في الوحل وطوراً يفشاهم الغبار ، وأسرة لا يمكن الاطمئنان إليها في هذه الخانات المشبوهة ، بقطع النظر عما تتعرض له العربات أحياناً من تحطم العجلات . فإذا كانت المسافة أصبحت تقطع بوقت أقل ، فظروف السفر لم تتغير هي كثيراً .

ففي الوقت الذي سجل فيه النقل ارتفاعاً في معدل الواردات بفضل ازدياد النشاط التجاري ، فقد سجلت اسعار النقل فيه هبوطاً محسوساً . فكانت كلفة الرحلة من باريس الى بوردو في عهد لويس الرابع عشر ، ١٢٤ ليرة ، فإذا بها تهبط الى ١٠٨ فرنكات ، في عهد نابليون والى ٧٤ فرنكاً عام ١٨١٠ . غير ان الجر العادي للطن الواحد كان يكلف ٢٠ سنتيماً عام ١٨٤٨ بينما كان بمعدل ٣٣ سنتيماً عام ١٨١٠ ، اما الجر السريع وشحن البضائع فقد كان اكثر كلفة . فالبضائع لا تسير بسرعة اذ كان الشحن من باريس الى مدينة ليل يقتضي له ٤ ايام . ويقتضي ١٤ يوماً من باريس الى مرسيليا ، ولما كانت كلفة نقل الرسالة مرتبطة بوزنها وثقلها كان على قاطن باريس ان يدفع ٢٠ سنتيماً عن تحرير يبعث به الى فرساي ، وفرنكاً و ١٠ سنتيمات الى مرسيليا ، فيما كان على قاطن لندن ان يدفع فرنكاً و ٤٠ سنتيماً على رسالة من لندن الى ادنبرة . ومع ذلك ، فالبريد كان يوزع ١٠٠ مليون رسالة ، في فرنسا حوالي عام ١٨٤٠ ، مقابل ٣٠ مليون رسالة في عهد الوزير تورغو . وبعد ان ادخل رولاند هل تعديلات على تشريع قديم ، عمل على تبني رسم موحد هو بنس واحد ( ١٠ سنتيم ) ، كما ان الجمهورية الثانية وضعت من جهتها رسماً موحداً مقداره ٢٠ سنتيماً الامر الذي افضى الى زيادة غير متوقعة في عدد الرسائل المتبادلة .

كل هذا والطريق تخدم في الدرجة الاولى ، المدن الرئيسية : فهي تتجاهل مصالح النواحي والملحقات اذ كان يترتب على ذوي العلاقة في المقاطعات والاقالم ان يسهموا متضامنين في ما يصون طرق المواصلات في الناحية ، وقد صدر في فرنسا عام ١٨٣٦ ، قانون اناط العناية بالطرق الرئيسية بأموري الطرق لا سيما تلك التي تربط بين المناطق ، فجعلتها على هاتق البلديات . ولن تلبث حركة السير ان اعتمدت طرقاً ثانوية في الوقت الذي اخذت فيه سكة الحديد تستأثر تدريجياً بطرق المواصلات الرئيسية .

لما كان نقل البضائع والاحمال الثقيلة يكلف غالياً على  
حى الاقبال على المرات والاقنية المانية  
الطرق البرية ، فقد استأثر النقل النهري بالاهتمام واستبد  
بالحواطر ، واصبح من الوسائل التي لا ندحة عنها ولا بد من التمويل عليها امام هذا التطور  
الذي طرأ على صناعة التعدين واستغلال المناجم واستثمارها . ولذا بادر الانكليز الى ربط مصاب  
أنهرهم الكبيرة بالمراكز الصناعية الرئيسية . فقد تم فتح قناة Severn كما ان مشروع  
Shropshire Unton ضاعف نشاط الـ Trunk الكبير وبالرغم من وجود ٢٨ هاوساً على طول

القناة الكاليدونية، فقد استغني عن المرور على مقربة من جزر الاركاد المحفوفة بالمخاطر. وهبطت بالتالي كلفة النقل بين ليقربول ومنشستر الى سبعة امثالها ، كما ان سعر الاسهم في هذا المشروع الاستثماري ارتفع عشرين ضعفاً . الا ان عدم وجود اي اتفاق بين الشركات ينظم المقاييس والرسوم سبب هبوطاً سريعاً عند ظهور الخط الحديدي .

والشرعية التي عادت الى آل بوربون افادت كثيراً من تقليد مرعي الاجراء كما افادت من الغاء رسم الدخولية على ايدي الثورة . فقد اشترى النظام الجديد الاقنية وثمر عن ساعد الجد لانجاز المشروعات التي كان بوشر بها في عهد لويس السادس عشر، وفي عهد لويس فيليب برزت بوضوح شبكة الترع المائية التي شدت الاحواض المائية ، بعضاً الى بعض . صحيح ان شبكة الاقنية كانت غير كاملة وتفتقر كثيراً للتجانس فيما بينها : فقد امتنع على سفينة شحن قادمة من الفلاندر مثلاً المرور عبر قناة الاردن ، كما ان الكباري القائمة على نهر الرون في مدينة ليون وقفت حائلاً دون الملاحة بين نهري الساون والرون . الا ان دخول البخار كقوة محرّكة ذهب بكل هذه العوائق .

جاء في توصية لفرقة تجارة ستراسبورغ ان « على نهر الرين ان يؤلف اداة وصل بين كل الشعوب » . فقد كان شحن بضاعة من درسدن الى هامبورغ يكلف اكثر من نقلها بين مرفأ نهر الايلب ومدينة نيويورك . فقد سبق لمؤتمر فيينا ( ١٨١٥ ) ان دعا الدول الواقعة على مجرى الرين للتعاون فيما بينها للقيام بتحسينات على مجراه . وقد ظهرت السفينة البخارية لتعمل في وقت مبكر بين مدينتي روتردام وكولوني ، ولم تعدم ان شقت طريقها الى ستراسبورغ . ولم يباشروا في تنظيم مجرى هذا النهر الا في عام ١٨٥١ . وقد حدثت رغبة جامحة بكل المرافئ الواقعة على سواحل البلاد الواطية الى اجتذاب الحركة التجارية ونشئت على اثر ذلك منافسة حادة فيما بينها زادها حدة وتعقيداً دخول الشبكة الحديدية الحلبة . فبينما راحت روتردام تتحرر من حوائل الزويدرزة بانجازها قناة البحر الشمالي الكبرى ، كان حوض نهر الموز يحاول تيسير اتصاله بمرقأ انفرس بين لبيج وشارلروا ، وبين هذه الاخيرة وبروكسل . وراحت بروسيا والدول المجاورة لها تطلق حربة النقل التجاري على نهر الايلب . وقد عقد اتفاق روسي - بروسي يرسم خطة تؤمن قيام اشغال بقصد تحسين الملاحة على نهر الفستول ، في الوقت الذي كانت فيه فيينا تخطط هي الاخرى ، للاستفادة من نهر الدانوب . وتوصل نيلز أركسون عن طريق قناة تروهانن الى تفادي شلالات غونالف فيستر بذلك وصول الخشب والحديد السويدي الى مضيق كاتينغات .

اما في روسيا والولايات المتحدة الاميركية المعروفتان بمساحتها الشاسعة فقد ألقت البحيرات والانهر الضخمة فيها طرق مواصلات طبيعية مهمة للغاية ، مع ما هي عليه من حاجة ملحة لاصلاح مجاريها ولربطها ببعضاً ببعض بشبكة متجانسة من الاقنية والترع . فالسبق القصير الامد الذي

سجلته الامبراطورية القيصريّة في هذا المجال ، لم يسدم طويلاً امام هذه الاججازات الضخمة التي تحققت في العالم الجديد . فقد بقي نهر الدون والدينير منزولين . وقامت شركة روسية للسفن التجارية تعمل على نهر الفولغا وكاما، واذا كان نهر النيفا يتصل ببخيري لادوغا واويفا وفالفولغا بقي منفصلاً عن خليج فنلندا الى عام ١٨٥٠ . كل هذا يبقى تافهاً زهيداً اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الامكانيات الضخمة والطاقات الواسعة التي ستحظى بها السفافقة القديمة . وعلى عكس ذلك هنالك شعور عارم في اميركا بوجود ربط نهر الميسيسي وروافده المعديدة باحواض المحيط الاطلسي الساحلية ، وهذه بالبحر الداخلي القائم عند حدود كندا . فقد ألفت مواعين الشعن الهبوط من نهرى الاوايو والميسيسي حتى اورليان الجديدة، حاملة اليها من السهول والمروج الفيحاء ، الحبوب ولحم الخنزير المملح ، كان سكان الولايات الشرقية يشدون الرجال لنقلها برأ على عربات النقل البدائية ، راسمة في سيرها دورة هائلة . واختصاراً منهم للمسافات وتقاديا للموانع الحائلة والمعبات القائمة ، راحوا يضعون الخطط لانشاء ما يازم من الترع والاقنية الموصلة ، عندما خطر لفولتن التصعيد في نهر الهدسون على السفينة التجارية الجديدة «كليرمونت» التي تم بناؤها في برمنغهام . وضربت الممول الاولى التي بوشر بها عام ١٨١٧ ، ايذانا بشق الخندق الذي سيمتد الى بحيرة ايريه وبالبلغ طوله ٦٠٠ كلم . الذي تم الفراغ منه بعد جهود وشافقة استمرت سبع سنوات بكاملها ، وكلفت ٤٥ مليوناً من الدولارات سيسمح بوصول ٣٠٠٠٠٠ طن ، عام ١٨٢٥ ومليونى طن ، عام ١٨٦٠ . وعن طريق هذه القناة ارسلت شيكاغو اول شحنة لها من الحبوب . والطون الذي كان نقله يكلف ٥٠٠ فرنك هبطت كلفة نقله الى ١٠ فرنكات في اقل من عشر سنوات وهكذا جاءت حركة النقل التجاري هذه تكررّس اسبقية مرفأ نيويورك في مضمار التجارة في العالم الجديد . ومنذ ذلك الحين قامت منافسة حارة بين الولايات الاميركية والمدن الكبرى الواقعة على الاطلسي ، اذ راحت كل من هذه الولايات والمدن تحاول جاهدة الوصول الى احواض الغرب حيث عدد كبير من الاقنية كان على وشك ان يؤلف شبكة متجانسة من هذا الترع المائية . بما لا شك فيه قط ان هذه التصاميم الموضوعة لم يحالفها النجاح . فشبكة بنسلفانيا التي تألفت من قناتين تربط بينها جادات منحدره السطح تحتازها العربات المشعونة ، لم تتجاوز لنشبورغ ، الامر الذي حمل بلطيمور على تفضيل سكة الحديد . ومع ذلك ، فالولايات المتحدة التي ترك لنا ميشال شفاليه باعجاب كلي وصفاً دقيقاً لمجاربها المائية القابلة للملاحة النهرية، بلغ طول شبكتها هذه ٧٠٠٠ كلم عام ١٨٣٥ ، وبذلك هيأت اسباب تقلب البخار . وهذا الحماس لم يلبث ان خمد وانطفأت جذوته بسرعة امام طلوع البخار في انكلترا بالذات .

من اليسير ان يتصور المرء ان استخدام الاندكان للبخار وتسخيره له كوسيلة ظهور سكة الحديد من وسائل النقل الحديث كان ثورة طارئة . فقد عاش والحق يقال جيل كامل من الناس تنازعهم عاملا الامل والشك حول مستقبل القطار والخط الحديدي . فما عسى ان تكون عليه يا ترى ، سكة الحديد ، هذه السكة التي تتألف من خطين متوازيين من الخشب ،

ثم خطين من الصب واخيراً من الحديد ظهرا في اواخر القرن الثامن عشر، احسن المدنون واصحاب المتاجم ، في انكلترا ، استخدامه لنقل عربات الفحم . ولكن هل يكفي ان يلتصق الجانت بالخط الحديدي حتى لا تقبى العربة تتأرجح في مكانها ؟ ليس من عنصر حاسم في الامر منذ العربة التي صنعها كونيوت قبل ان يخترع ستيفنسن عربة *Puffing Billy* عام ١٨١٤ . فقد شهد عام ١٨١٤ نهاية عظمة نابوليون كما شهد ظهور القاطرة التي تجر ثمانى عربات تزن معاً ٣٠ طناً بسرعة ٧ كلم في الساعة<sup>(١)</sup> وهي آلة باهظة التكاليف كما يقولون ولا تصلح من جهة ثانية الا لنقل الفحم لمسافة قصيرة . فهي عبارة عن فكرة خطرت لمعدن فتقت بها مخيلته زولاً عند مقتضيات النجم . وعندما خطر للمركز دي لور سالوس ، عام ١٨٢٣ ان ينشئ له خطاً حديدياً ينقل عليه وقود الفحم من سانت التيان الى منطقة اللوار، لم يفكر بغير الخيسل والحير كأداة لجر العربات . ومع ذلك ، قام جورج ستيفنسن ، عام ١٨٢٥ بتجربته الحاسمة على خط دارلنفتن ستوكتن للتدليل على الخدمات التي تؤديها القاطرة . وتمت التجربة في ٢٧ ايلول امام حماس جميع الذين شاهدوها . فقد استطاعت ثلاث قاطرات تعمل على البخار ، قوة الواحدة منها ٥٠ حصاناً - كما تروي الخبر جريدة التيمس - ان تنقل ١٣ عربة محملة بالبضائع وغير ذلك من المواد المختلفة ، على خط حديدي مرتفع الصعيد . فقد وصلوا هذه العربات وعربة اخرى تحمل السلطات والمدعويين والمسامين ، بقاطرة نقالة عرفت باسم *Expertence* . وتألف القطار من ٣٤ عربة بينها عربة تحمل فرقة الموسيقى تصدح بانغامها الشجية ، بينما كان يرفرف على احدى العربات ، علم كتب عليه : « خطر فردي لقاء منفعة عامة » وعند انطلاق اشارة معينة اخذ القطار يتحرك فراحت الجماهير تهتف هتاف الفرح . وراح بعض الفرسان الخيالة يحاولون إستباق القطار الا انهم لم يلبثوا ان شعروا بانهم فاتهم كثيراً . فالمسافة التي كان الانحدار فيها قوياً بلغت سرعة القطار معها ٢٦ ميلاً ( ٤٠ كلم ) في الساعة . وفي سنة ١٨٣٠ ، فاز ستيفنسن وابنه روبرت بالجائزة ضد ادكسون ، وهي جائزة وضعها تجار لانكشير لمن يفوز بالسبق بين ليفربول ومنشستر . فقد جرت قاطرتها ١٢ طناً بسرعة ٢٢ كلم في الساعة . فالحدث لم يقل اهمية عن حادث *les trois glorieuses* في المدى التاريخي .

فبينما كان الشباب المتحمس في فرنسا يدفع المهندسين ومعظمهم من خريجي البوليتكنيك ومن انصار السان السيمونية ، وبطالون بالسكك الحديدية ، نراه يصطدم هنا بتنكر البعض للفكرة كما تلقى الفكرة هنالك عدم رضى الآخرين ، كما اصطدمت بمعارضة الذين رأوا في هذا المشروع ، اذا ما خرج الى حيز الوجود ، مساً بمصالحهم ، ريتعلون بغلاء الحديد ، رأينا الفكرة ذاتها تفوز برضى الرأي العام الانكليزي كما انها نزلت منزل الرضى من الاميركيين . وفي إثر إيفانس فكر ستيفانس ان يربط بين الهدسون وبحيرة ايريه باختراع يدخل فيه الخط الحديدي

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، مجلد ٥ ، ص ٥٩٦ ( من الطبعة العربية ) .

والآلة البخارية ، فيكون ذلك افضل من وصلها بقناة مائية . وقد كان لجحاح الشجرية ان حمل بعض رجال الاعمال في بنسلفانا على شراء قاطرة من انكلترا . وها هي بلطيمور تندفع بكليتها في الامر فتستخدم اول ما استخدمت الحصان والشراع ، فالقاطرة فازت في السنة التالية . وانهالت الاموال على المساهمين فسهل هذا الاقبال مد فروع الخط الى واشنطن ، ومنستر . وفي الوقت ذاته سارت الآلة البخارية على خط شارلمتن - همبورج . ولما كانت السفينة الشراعية تسبب مشاكل وتثير المتاعب فقد كتب النجاح لاحسن صديق او رفيق الذي باستطاعته ان يقطع ٣٤ كلم في الساعة جاراً وراهه أربع عربات والذي انتهت رحلته بانفجار عقب ان جلس السائق الزنجي على الصّام ليمنع البخار من الصغير . فالقاطرة *Old Ironsider* التي صنعها بلديون وتلك المسماة *Thumb* التي جرى صنعها في احواض وست بوينت اصبحتا حديث القوم . وبالرغم من بعض الحوادث المبكية المضحكة التي رافقت تجربتهما ، فقد رسمتا مصير هذه الوسيلة الجديدة من وسائل النقل . ومنذ ذلك الحين ، سارت الولايات المتحدة في الطليعة وتخطت اوروبا بمراحل ، فمن ٦٥ كلم للاولى مقابل ٣١٦ في اوروبا ( منها ٢٧٩ لانكلترا ) عام ١٨٣٠ ارتفعت الولايات المتحدة الى ٤٥٠٩ مقابل ٣٥٣٤ لاوروبا عام ١٨٤٠ - وبعد ذلك بعشر سنوات يصبح لدى الولايات المتحدة ١٤٠٤٠٠ كلم من الخطوط الحديدية قيد الاستعمال وتأخذ في الامتداد والتغلغل في الداخل . صحيح ان هذه الشبكة ليست بعد كلها متجانسة فيما بينها . فتفاوت البعد بين الخطوط يختلف بين خط وخط وشعبة وشعبة وعملية التفريغ وانزال الشحن المعد للفنادق تفرض على القطار التوقف ليلاً بعض الوقت . ومع ذلك فقد راحوا يقطون المسافة بين بوسطن ونيويورك باربع وعشرين ساعة بدلاً من ٨٠ ساعة . وفي سنة ١٨٥٤ كانت خمسة خطوط تجتاز جبال الابلاش . وهكذا يبدو واضحاً ان الولايات المتحدة الشبالية حققت لها اسبقية ملحوظة في اعتمادها على الخطوط الحديدية .

ففي اوروبا العتيقة لا يزالون بعيدين البعد كله عن هذه الانجازات البشاعة الطموحة الثيرة التي يقترح ميشال شفاليه الاخذ بها والاقبال عليها ممثلة « بشبكة البحر المتوسط » ، اي القيام بشق قناة مائية تربط كل الخليجان الواقعة في اوروبا على سيف هذا البحر بأهم المراكز الصناعية والمدن الكبرى . فالطريق والنهر هما قوتان . وجاءت ردة الفعل وفقاً لطبيعة ومزاج ومصالح كل بلد من هذه البلدان المعنية بهذا الامر . فمن جهة الجنوب والشرق نرى انها يفتقران كلياً لرؤوس الاموال اللازمة كما يفتقران للتقنيين والتقنيين . فما هي ايطاليا التي تنبأ لها أزغليو بأن انشاء السكة الحديدية فيها « سيحيط الجزمة » لا تملك ، عام ١٨٤٦ ، سوى بعض شعبات من هذه الخطوط ( خط ميلانو - مونز ، وخط بادو - البندقية ، وخط ليفورنو - بيزا ، يقطع النظر عن خط مقاطعة كمانيا ، هذا الخط الذي انشأه فردينان دي نابولي للذقة الخاصة وجهاز كل محطة تقع عليه بكنيسة صغيرة ، وحظر السير عليه ليلاً وايام الاعياد ) . اما هنغاريا فستبقى طويلاً لا تملك غير الخط الدائري الذي يلتف حول بودابست ( بعد ان كلوا يرددون فيها القول بان

كل من ينظر الى القطار في سيره على الخط يصاب بالجنون . وفي روسيا كان على الفيسر ان يضرب بعرض الحائط المخاوف التي جاشت بها نفوس «المصايين بمرض العصر» يعارضون فكرة بناء خط موسكو - بطرسبورغ . ومن جهة اخرى تحافظ انكلترا على سبقها في هذا المضمار وعلى التقدم الذي سجلته على كل جيرانها . فهي البلد الوحيد الذي يتمتع بشبكة حديدية تربط ما بين مدنها الرئيسية وحواضر البلاد الكبرى . وقد اقبلت بشيء من الهوس الجنوني على بناء هذه الشبكة التي استمر العمل فيها من ١٨٤٠ - ١٨٤٧ بالرغم من المنافسة الحادة التي ابدتها اصحاب العربات ومعارضة بعض الشركات المالية ولا سيما معارضة *Turnpike Trusts* وكل من يعتاش من صناعة الجر ، وبالرغم من المضاربات على الاراضي . ان و. شابلن الذي كان في حيازته عام ١٨٣٦ نحو من ٣٠٠٠ عربة نقل و ١٥٠٠٠٠ حصان جر رأى انه من اليسر والاسهل نقل الطرود البريدية بالقطار الحديدي ، وقبل ان يتأسس شركة خط لندن والجنوب الغربي . وقد احدث انشاء خط حديدي بين بروكسل ومالين تحولاً في الرأي العام الذي اخذ يعطف على الفكرة بعد ان تنكر لها فاخذ يظهر الاقتراح الجريء الذي كان يرمي الى انشاء خط حديدي يربط ما بين انفرنس - كولوني وهو مشروع تقدم به الوزيران روجيه ولوبو . وقد تعلوا في معارضتهم لهذا المشروع بأنه يجر الخراب على اصحاب عربات النقل ويدهك الارض الصالحة للزراعة ويدخل الرعب على الماشية والحيوانات ويحفظها . فبعد سنة ١٨٤٣ ، قام في هذه المملكة الصغيرة من الخطوط الحديدي ما يوازي ما كان منها في فرنسا . وكان من حسن وضع شبكتها ان اجتذبت اليها كل الحركة التجارية في اوربا الريفية . اما البلاد الواطية التي تخلفت عن جارتها في هذا السبق ، فلا عجب قط ان تفقد جانباً من الارباح التي كانت تعود اليها من الحركة التجارية وحركة النقل التي كانت تتجه اليها .

كبير جداً عدد رجال المال والاعمال والاقتصاد ورجال الادارة في المانيا الذين ادركوا كما يجب ، الفوائد والمنافع التي يحملها الي المانيا المنقسمة على نفسها سياسياً وعلى الاتحاد الجمركي الذي قام فيها التخلف عن الركب في هذا المجال . ولكن كيف العمل وقد راح الاطباء يؤكدون ان السرعة التي يتعرض لها المسافر تعرضه لفقد بصره وبالتالي للعمى ، كما ان بعض المصالح الفردية الخاصة وفقدان الثقة التي يجب ان تقوم بين الدويلات الالمانية وقلة رؤوس الاموال ، كل هذه التمللات قامت وانتصبت في وجه القائلين بالتطور في هذا المجال والقائلين بوجود الاخذ باسبابه . ففي عام ١٨٣٥ فقط ، وتحتم ضغط ليست استاذ الاقتصاد السياسي في جامعة توبنجن وبفضل المبادرة التي اخذها شارير ، عمدة نورمبرغ ، تم انشاء فرع خط نورمبرغ - فورت . وقد وجه البروفسور ليست نفسه ، نداءً الى سكان مقاطعة ساكس دعاه « البراءة الكبرى » للخطوط الحديدي ، يبيهم الى معاضدة خطة تطوير الموصلات الحديدي واخذ يجمع اشتراكات المساهمين بقصد بناء خط يربط بين ليبزيغ ودرسدن ، هذا الخط الذي جرى تدشينه باحتفال عظيم ، اقيمت فيه اقواس النصر واشتركت فيه اجواق الفتيات . وراحت كل مدينة

تطالب بوصولها وربطها بجارتها أو بأقرب نهر منها ، وكل واحدة ترغب في ان تصنع عقدة مواصلات. الا ان الحكومات المستبدة كانت في حذر من هذه المشروعات الخاصة: اذ ان القانون البروسيانى كان يقيم مراقبة شديدة على كل مشاريع الاستثمارات وراحت بعض الدويلات الالمانية تحتفظ لنفسها مسبقاً بحق استثمار الخطوط الحديدية فيها. فمن المفارقات الحسرية بالملاحظة ان تلعب السلطات العامة في المانيا هذه التي تفتقر اصلاً الى حكومة مركزية دوراً اكبر من الدور الذي قامت به الحكومة الفرنسية. اذ لم تعتم ان اصبح لديها ٥٠٠٠ كلم من الخطوط الحديدية مقابل ٣٠٠٠ في فرنسا وهي شبكة تتألف من خط رئيسي يربط بين اكس لاشابل وبوزين، ماراً بهانوفر وبرلين ويقطع الانهر الكبيرة في شمالي البلاد. ومن هذا الخط تتشعب فروع نحو برين وهامبورغ كانت قيد الانشاء. ولما كان الرين الأوسط لا يفي تماماً بالفرض فقد تم وصل فرانكفورت بمدينة بال ، كما ان بروسيا ارتبطت بالنمسا واتصلت بها عن طريق سيليزيا وبوابة مورافيا .

وطالت فترة التردد في فرنسا وانتصب فيها جبهتان: المحددون التقدميون الجريثون، والنظاميون الرجعيون. من هنا السان سيمونيون ومهندسو الكباري والطرق، ومن هناك رجال المال المتحفظون وفريق النبلاء الحذرون، والمتقسمون على انفسهم ذوي الموقف المتزعزع، وحكومة لويس فيليب الذي يتأرجح بين الأخذ باقتراحات له غران ومارتن دي نور ، وبين تحفظات المجلس الوطني وتردده . فلم يكن الى سنة ١٨٤٢ سوى بعض فروع قائمة . وعشياً يحاول كل من اميل بيرايير في جريدة « الناسيونال » وفلاشا في جريدة « الدستوري » وشارل دي فريبه في جريدة « الكريدي » وشفاليه في جريدة « الديبا » امتداح سياسة الانشاءات العامة ويحثون رجال الاقتصاد على وجوب تبنيها . صحيح ان جيمس دي روتشيلد اقتنع في نهاية الامر ليفامر بتنفيذ خط يربط بين باريس وسان جرمن ، تحت اسم الباريسيين وبصرهم ، تأمناً لما فيه الترفيه والتسرية عنهم . وقد ساهم الجيش الفرنسي ببناء جسر أنيسير . وجرى تدشين الخط باحتفال كبير ، عام ١٨٣٧ وعند افتتاح خط نيم - بوكير راح احدهم يقرظ شعراً فوائد القاطرة ، منشداً :

ما احيل القاطرة للعبوب اللامثة  
يداعب عرف شذاها النسيم العليل  
مري يا عربة الجود والكرم  
مخرقة من ارضنا السهل والجبل  
دخانك الاقتم هو خير بذار  
يقبض الحصب من الاقلام والبركات

وهذا الحماس يتجاوب مع نشوة الطرب بهز مشاعر ميشليه وهو في القطار من لندن الى ليفربول فيقول : خمسون فرسخاً باربع ساعات. ليس ما يستطيع وصف هذه السرعة الجنونية

التي لمجتاز معها كأننا مع قصة من قصص الخيال ، هذه المناظر الغناء .نحن لا نعدو ،نحن نظير فوق الحقول المنبسطة وفوق الصخور والبطاح ، نمر سراعاً فوق الكباري المعلقة والقناطر التي تذكرنا بما حمله من فن وملاحة ، في كل لحظة والتفاتة ، بهذه المباني الأتروسكية والرومانية . نحن نعوّث فوق الهاوي والأغوار .

اما في فرنسا فالمسافات رحبة هي وشاسعة ، واصحاب رؤوس الاموال يفضلون ريعاً تكفله الحكومة ، بينما اكثر المشاريع الاستثمارية تعيش فيها عيشاً نباتياً . وراح اراغو يحذر الناس من هذه الاحلام التي يملقونها على قضيبين من الحديد . ففي عهد حكومة غيزو فقط ، ويفضل حركة ازدهار قصيرة الامد ، صدر قانون ١٨٤٢ الذي اوجب على الدولة معاضدة المشروعات الخاصة وموازرتها ، انما تحت مراقبتها الرسمية واشراقها الفعلي . فتأسست في البلاد شركات جديدة ، واخذت الاسهم المالية تترى في حمى من المضاربات ، وقامت ورشات احتدمت بالنشاط . فالازمة التي استبدت بالبلاد شلت الاعمال لا بل عطلتها تماماً . فالذهاب من باريس الى ليون ، عام ١٨٤٨ كان يضطر المسافر ان يستقل القطار الى كوبي ، ليعود فيستقله من جديد من مليون الى تروى واخيراً من ديجون الى شالون . ولكن لا مندوحة له من ركوب القارب او العربة بين كورباي ومليون - وتروى وديجون ، وبين شالون وليون . ومع ان ركوب القطار يكلف ٢٥ سنتياً للكلم الواحد مقابل ٦٠ للعربة ، فالعربات تسير اسرع وتسير توأ .

ففي ديوانه الشعري *Les Destinées* ، تنزى ريشة فينيبي بشيء من الشك المقيم عندما يقول :

هذا الثور الحديدي الذي يدخن ويلهث ويخجور  
فأي عاصف فيه يَطْلُق هذا الاعشى الهائج ؟

عالم القرن الثامن عشر البطء في المواصلات بالاخترعات من التلغراف البصري الى التلغراف البرقي الجديدة يكشف فيها عن اسرار القوى الطبيعية ، ويأتي بها علاجاً اولياً نشرأ لافكاره وبنأ لها بالسرعة المرجحاة . فالاهتمام بتوفير وسائل الاتصال والاعلام عن بُعد لا يزال يستبد بالحواطر حتى بعد ان اكتشف الانسان التلغراف البرقي . ففي سنة ١٨٣٨ فقط ، اعتمدت الحكومة الروسية طريقة شاب للاتصال السريع بين فرسوفيا وبطرسبورغ ، هذه الطريقة التي كان لها في فرنسا اذ ذلك ٥٠٠ محطة فمكنتها الاتصال بين باريس وطولون في اقل من ١٥ دقيقة واتفق عام ١٨٣٧ ان كان الانكليزي هويتسون ، والازاسي ستاناهل الاستاذ في جامعة ميونيخ ، والاميركي مورس ، ان تقدموا في وقت واحد تقريباً ، بشهادة اختراع جهاز خاص للمخابرات السريعة عن طريق استخدام شاحنة فولطا بعد التجارب التي قام بها غوس وويدر حول المنطيسية الكهربائية فاستنبط هويتسون طريقة المحطات للتغلب على عنصر المسافة وعامل المقاومة ، بينما راح ستاناهل يقترح الاخذ بالشبكة الوحيدة

تكون الأرض فيها سلك رجوع ، في الوقت الذي استنبط مورس طريقة جديدة مبسطة جداً تتألف من علامات رسم على لفافة من الورق . فبدلاً من تسجيل الاشارات الرمزية تسجل البرقية نفسها . واستطاع مورس ان يتبادل البرقيات بين واشنطن وبلطيمور عام ١٨٤٤ . ولم يعض كبير وقت حتى راح كل من برنار وولف بالاشتراك مع ارنست ورنر سيانس ثم رويستر المعروف بصداقته لغوس يستخدمون طريقتهم هذه في هذه الوكالة للاخبار التي انشأوها . اما التلفراف البصري فقد احتفظوا به في مصالح الجيش والبحرية .

ازدهار السفن الشراعية وبده العمل بالبخر  
 كانت تنقلات الانسان على البخار حتى الآن مرتبطة الى حد بعيد بمزاج الاريح والاهواء التي حاول جهده ان يكبحها او يتحكم بها بشكل او آخر . والعمل في السفن الشراعية كان مليئاً بالمخاطر والمشقات اذ تقتضى القائمين به والناهضين باهبائه واحكامه ، الكثير من المهارة والجرأة ورباطة الجأش . فعلى من يرتضى حياة البحر مهنة له وحرقة ان يقنع بفراش خشن وحجرة ضيقة ، ضئيلة النور ضعيفة الاثارة ، فاسدة الهوا كئيباً ما تقح منها رائحة العطن ويعيث فيها الجرذان ويعيث بها الهوام . اما طعامه فقوامه المعجنات والملححات والتبلع غالباً بماه مز أجاج . فهو ابدأ عرضة للأمراض تترصده المخاطر بين الصخور وماهوي البحر واغواره . وتطل عليه من سطحه واعماقه ، فيسير على بركات الرحمن مستوثقاً بالظروف والامكانات الآتية ، ويقلع ملؤه النشاط كلما سمحت له الظروف وافتر له القدر ببسمة الامل . فوكالات السفر البحرية اخذت بتنظيم اسفار في مواعيد محددة بين نيويورك وليفرول ، شهرية في بسده الامر ثم نصف شهرية بعد حين ، كما قامت وكالات اخرى في لندن والهافر تنظم السفر الى شواطئ الهندسون ، في رحلة يقتضي لها من اسبوعين الى ثلاثة اسابيع ، ذهاباً من الشرق الى الغرب ، ومن ٣٠ - ٤٠ يوماً إياباً في الاتجاه الماكس ، والمهم في هذا كله تأمين الطمأنينة والسلامة اكثر من الوقت .

وبالرغم من هذا كله فقد قطع الاوروبي مسافات شاسعة فوق البحار يخترق عباها قبل ان يتاح له السيطرة على القارات والتحكم بالمسافات . فبعد ان اعتمدوا في اواخر القرن الثامن عشر السدسية sextant في تحديد خطوط الطول وقياس ارتفاع الاجرام السماوية وابادها اكثر من اعتمادهم على الاسطرلاب ، استطاع الميقت او الكرونومتر بعد التحسينات التي ادخلها عليه كل من بريقيه وابرهيم لويس ان يسجل تطورات عظيمة في قياس الوقت بدقه كلية . ولن يلبث رجل البحر حتى يرى تحت تصرفه خرائط مفصلة لرحلات فصلية مرتكزة على رصد مهب الاريح . اما البركار فلن يصعب في ما من من الاضطرابات التي تحدثها الحجوم المدنية الواقعة على مقربة منه الا بعد لأي من الزمن .

فكيف السبيل والحالة هذه الى استبدال السفينة الشراعية بأداة للملاحة تكون اسرع واكثر ايماءً للطمأنينة ؟ وفكرة استخدام البخار كمحرك في الملاحة وجدت لها رواجاً اكبر

بعد نجاح تجربة السفينة التي تعمل على الفئراشات في المياه الداخلية التي قاموا بها في العالم الجديد . وكانت نقطة الانطلاق هذه التجارب والاختبارات التي قام بها جوفروا دبانس على نهري الساون والسين ولاسيا التجربة التي قام بها فلتن على سفينة *Clermont* في خليج هدسون . هنالك عام ١٨١٥ نحو مائة بيروسكاف ( وهو الاسم الاول للسفن البخارية ) تعمل على الحطب كوقود لها لوفرة هذه المادة ورخص ثمنها بينما ارتفع هذا العدد عام ١٨٣٠ ، الى ٥٠٠ بيروسكاف . وهكذا طلع علينا ال *steamboat* مهداً السبيل لظهور ال *steamer* . ولكن هل باستطاعة المركب البخاري الذي اطلقه دل وثمان على الكلايد ان يستجيب لمتطلبات رحلة بحرية طويلة ؟ فقد ارادوه للملاحة القريبة من الشواطىء ولاجتياز البحار الضيقة كبحر إيرلندا مثلاً . فليس من الغريب قط ولا ما يدعو للعجب ان تجتاز « السافانا » شمالي المحيط الاطلسي عام ١٨١٩ ، بخمسة وعشرين يوماً ، فلا تصل الى مرفأ ليفربول الا بعد ان استعانت بالشرع . وقد ذهبوا بها الى كرونستادت الا انها لم تجذب بشيء اهتمام الاميرالية الروسية ، فاضطرت للتكول راجعة الى اميركا مستعينة في ذلك بالقول مرة اخرى . فقد برهنت التجربة على ان المعجل الذي يحرك الفئراشات لا يعطي النتيجة المطلوبة ، اذ ان حركة السفينة من الاسفل الى المقدمة تكشفه تارة وتقطيعه طوراً . ومن جهة اخرى ، ان تمشق المعجلات الذي يتحكم بالالات يفقد السفينة الكثير من قوة الدفع بعد ان يفقد المرحل ذو الربعات قسماً كبيراً منها . فهي من جهة ثانية لا تصلح كسفينة حربية اذ انها هدف سهل المنال لرماية العدو . اما اذا ما عادت سفينة الفنكس بسرعة ٩ عقد تذيب في فرنسا على الاملين خبر سقوط مدينة الجزائر عام ١٨٣٠ ، فالسفن التجارية لم تكن لتخاو اذ ذلك من محاذير سيئة . اما كان يقتضي لها من وقود الفحم ما يملأ كل الفراغ المخصص فيها للشحن؟ والسفينة انتربرايز وصلت كلكوتا عام ١٨٢٥ بعد رحلة استغرقت ١١٣ يوماً ، منها ٨ ايام قضتها تمار الماء والوقود في مدينة الكاب . والى هذا كان لا بد من ان يحسب المرء حساب اخطار الحرائق والانفجارات الطارئة ، وهي اخطار لم تكن نادرة الوقوع على خطوط الملاحة . فالسفر في عرض الاوقيانوس ، بدون انقطاع او توقف ، على ظهر سفينة تشحن الفحم ليس باقل خطر من رحلة يخططون الى القمر تنطلق من ليفربول ، كما يؤكد ذلك العالم الرياضي لاردنير ، عام ١٨٣٥ . فليس من غرابة قط ، والحالة هذه ، ان يتردد نواجدة البحر ، قبل الاقدام على تعريض اموالهم للخطر .

ومع هذا لم تمر ثلاث سنوات حتى وقعت التجربة التاريخية المشهورة التي قامت بها السفينة سيربوس والسفينة الاخرى *Great Western* اللتان عرفتا كيف تستفيدا من البخار والشرع معاً ، اذ قطعنا الاوقيانوس ، بين ليفربول ونيويورك ، الاولى في ١٦ يوماً ونصف والثانية في ١٣ يوماً ونصف . وعلى الاثر يتعهد البحار السكتلندي صموئيل كوفارد بنقل البريد على اربع سفن بخارية اولاهها بريطانيا التي قطعت المسافة بين ليفربول وبوسطن بـ ١٧ يوماً محققة بذلك الاقتراح الذي تقدم به المهندس إزمير كنفدوم برونييل ، الى شركة *Great Western Rail Way*

بمد خطها حتى اميركا وذلك باستخدامها سفن بخارية في اسفار مطردة .

واخيراً هل في مكينة السفينة البخارية لعمري ان تستغني الى الابد عن الاشرعة التي تحتاج الى ايد عاملة كثيرة ؟ فقد تجتهد السفانة نحو تحقيق هذا المطلب باسمها المروحة القائمة على مبدأ برغي ارخميدس ، هذا المبدأ الذي خطر لبعضهم ، منذ القرن الثامن عشر استعماله وتطبيقه ، والذي قام باخراجه الى حيز الوجود في وقت واحد تقريباً احد بناء السفن في بولوني هوسوفاج ، ومزارع انكليزي هو بيتيت سمث واركسن نفسه ، بين ١٨٣٢ - ١٨٤٤ . وستم ١٥ سنة قبل ان يعم استخدام هذا المحرك الحزوني او الدوامة . كذلك سيتم بالبطء نفسه من حيث التطبيق والافادة من خدماته ، الاختراع الذي وضعه هول عندما وضع المكثف السطحي الذي يرفع من حرارة المرجل ويزيد كثيراً من طاقتها الآلة المزدوجة التي ستوفر الكثير من الوقود لن تظهر للوجود قبل عام ١٨٦٠ .

وفي غضون ذلك تعرف السفينة الشراعية ان تدافع عن نفسها بنجاح بفضل عناية الامير كيين انفسهم وتقوقهم الذي عرفوا اثناء حروبهم عام ١٧٩٣ و ١٨١٤ ، ان يفيدوا الى حد بعيد ، مما لديهم من احراج وغابات كثيفة ظليلة . وزادوا ثلاثة اضعاف من حجم اسطولهم فجاءوا في المرتبة الثانية بعد انكلترا ، كما انهم راحوا يقلبون النظر في كيفية التغلب على اسطول الملك جورج من حيث السرعة واستباقه ، وذلك بتنميع شكل السفينة دون ان يلحقوا اي ضرر او اي هتانها . وفي هذا السبيل اخذوا يبنون سفناً شراعية يزيد طولها ٦ او ٧ اضعاف عرضها ويجهزونها بعدد اكبر من الصواري يباعدون فيما بينها . وهكذا طلع علينا نوع جديد من السفن من طراز *Clipper* وهو نوع ادق قيادة لعمري وان كانت سمته دون سعة الطراز المعروف بـ *Brick* ، تسير برشاقة وسرعة ناشرة ٤٠٠٠ متر مربع من الاشرعة ، لها من الطاقة ما يساعدها على اجتياز المحيط الاطلسي من الشرق الى الغرب بـ ١١ يوماً لتعود اياً بـ ٤٠ يوماً . فبلغت سرعة السفينة *Lightning* عام ١٨٥٥ نحواً من ٣٣ كلم في الساعة اي ١٨ عقدة ، وهي سرعة لن تتخطاها السفينة التجارية الا بعد مرور ٢٥ سنة . والذي جعل منها بحق ملكة السفن الشراعية ورجع جانبها الى حين واولاها الافضلية على منافستها هو قدرتها على القيام بالرحلات الطويلة . الا انه بالنظر لآمال وتهريب الافيون الى الصين في اعقاب ١٨٢٥ والاتجار الحر بالشاي الهندي بعد ان التت انكلترا عام ١٨٣٣ ، الحكر الذي تمتعت به شركة الهند الانكليزية ، واكتشاف مناجم الذهب في كل من أستراليا وكاليفورنيا ، اوجب التحويل على سفينة الـ *Clipper* واستخدامها في هذه الرحلات الطويلة ، من كلا جانبي اميركا ، من جهة بين اميركا وآسيا ، ومن اخرى بين اوروبا نفسها والقارات الاخرى . فنذ سنة ١٨٢٦ دشنت السفينة *red rover* الانجار بالافيون مع كللكوتا وهونغ كونغ . وفي سنة ١٨٤٥ انطلقت سفينة « قوس قزح » من نيويورك لتبلغ كنتون بعد ٩٤ يوماً . وفي سنة ١٨٤٩ قطعت السفينة الشراعية *Oriental* المسافة بين هونغ كونغ ولندن بمثل هذه المدة من الزمن . والسباق على الاتجار

بالشاي بين الشركات الانكليزية والاميركية استعمرت الى ان فازت انكلترا بالسبق على منافستها بعد عام ١٨٥٠ . وتمكنت السفينة *Cap hornier* من ربط شمالي الاطلسي وكاليفورنيا بثلاثة اشهر بدلاً من ستة اشهر او سبعة اشهر لثدور حول الطرف الجنوبي للعالم الجديد في طريق رجوعها من ملبورن التي تأتينا متبعة طريق الكاب ورأس الرجاء الصالح . فالقوانو والنترات المتوفرة بكثرة على سواحل جبال الاندس يصل اوروبا بالطريق ذاته .

وهكذا صانت الـ *Clipper* شرف السفينة الشراعية من الهوان والاستخفاف ، فالبخار لم يكسب بعد قصب السبق . ففي عام ١٨٥٠ يبلغ حجم السفن الشراعية ١٠ ملايين طن بينما ليس منها للسفن البخارية غير ٧٥٠ الف طن . ومها يكن ، فحجم الاسطول البريطاني يتضاعف ، وسيكون تحت تصرف الاوروبيين ، عام ١٨٧٠ نحو من ١٤ مليون برميل مقابل ٣ او ٤ ملايين ، عام ١٨١٥ .

## الدفع الرأسمالي والبورجوازي

« فقد اتخذوا لهم من وكالهم مبعداً ومن مكاتبهم  
كوسياً للاعتراف ومن مفكرتهم قوراة ومن مستودع  
بضائهم مصل . فاجراس المصق تفرع عندهم السلام  
الملائكي ، والذهب الرنان اصبح مبرودهم ، والاعتقاد المالي  
دينهم ودفنانهم » .

( هنري هاين : رسائل من برلين )

سارت التكنولوجيا قدماً الى الامام . فهل توفر لهم  
حاجة نسيطر عليها حاجة ملحة للنقد  
الاسواق التجارية ما يطمع المجتمع بتحقيقه من اهداف  
تسمى الوسائل التقنية الى تحقيقها . وكما حدث في القرن الثامن عشر ، عهد اشتداد الحاجة للتقدم  
وللسيولة ، نرى ان انتاج المعادن الثمينة اخذ بالهبوط ، اذ لم يعد هذا الانتاج ليتجاوز ٢٠٠٠٠٠  
كيلو من الذهب قبل سنة ١٨٤٠ ، بينما ارتفع هذا الانتاج ، بين ١٨٤٠ - ١٨٥٠ الى ٥٥٠٠٠٠  
كيلو ، ليسجل بين ١٨٥١ - ١٨٥٥ انتاجاً يقدر بـ ٢٠٠٠٠٠٠ كيلوغرام . وحركة ارتفاع  
الاسعار التي ظهرت منذ الربع الثاني من القرن الثامن عشر توقفت تماماً بعد اعادة السلام واستتبابه  
تماماً في القارة . فاذا ما عدنا نتملى النظر في الكشوف البيانية<sup>(١)</sup> ونحلل ارقامها لاحظنا هبوطاً  
ملحوظاً يستمر حتى عام ١٨٥٠ .

رافق حركة الاستنزات هذه نزعة الى احداث تخفيض في الاجور بعد ان توفرت في معظم  
البلدان ، اليد العاملة ، وهي نزعة تأرجحت بين فرض الحماية الجمركية وبين النزعة الى التوسيع

(١) راجع الكشف البياني ، من ص ٨٨ . كذلك من المستحب الرجوع الى الكشوف البيانية الاخرى المنشورة  
في المجلد الخامس من تاريخ الحضارات العام ، ٥٩٣ - ٥٩٥ ( الطبعة العربية ) .

في الحرية التجارية . فاذا كان رأس المال يدر ربحاً صافياً فلم يكن مع ذلك ليخرج من صناديقه بسهولة . ولعل خير من يرسم لتسا صورة واقعية عن الوضع السائد اذ ذلك هو هذه الشخصيات التي يمثلها الاب غرانديه بلزك ، والبخيل في رواية « اجراس كورنفيل » ، ولاسيا شخصية مردستون وشقيقته في رواية دافيد كوبرفيلد ، ورواية السير رالف نيكلباي لديكسن ، حيث نرى غوبسك يقترض بفائدة ٥ . و ١٠٠ ٪ . وعند اقل بادرة او اشارة خطر تظهر في وضع شركة تجارية او مصرف مالي ، يتهاقت الناس على المصرف ويندفعون لسحب ودائعهم . فالهم قبل كل شيء في دنيا الاعمال ، هو تاريخ الاستحقاق وشهرة ومكانة اقوى المهلات التجارية وارسخها ، فتصبح تحت رحمة مدين لا يستطيع وفاء ديونه . ولذا كثيراً ما يلجأ ارباب المال والاعمال الى استعمال القوة والاكراه ، والسجن يؤلف عندهم سبباً مصلتاً فوق رأس الدائن العاجز بعد ان انزله الشارع منزلة السارق .

الدول : مصاعبها المالية ومشكلاتها  
من الامور التي لها دلالتها في فرنسا ، بمد اعادة الملكية ورجوع الشرعية اليها ، الرغبة في عصر موازنة الدولة وتشجيعها ، على اعتبار ان كل انفاق لا كبير مبرر له بلحق الضرر بالوضع المالي العام الذي تتسكع فيه البلاد . ففي بريطانيا المعظمى نفسها ، بلغ من ضعف الثقة بالوضع المالي بحيث ان التغطية الذهبية للبنك الاهلي فيها ، عجزت مرتين عن منع الذعر يدب بين الاهلين كما عجزت عن منع حوادث افلاس بالجملة .

ومن جهة اخرى ، فالرجوع الى التعامل من جديد بالنقد المعدني كان من شأنه ان يسبب هبوطاً في الاسعار . فالسوق يرتاح الى الطمأنينة ويؤثرها على التوسع في حركة الاعمال .

فالتداول بالأسينياه ، ترك في فرنسا ذكريات مريرة استمرت طويلاً في الحواطر والاذهان . فثلثا قيمة القسيمة لم يتجاوز الالف فرنك ، والقسام ذوات الخمسين فرنكاً ، لم تدفع قيمتها قبل ١٨٦٥ . والبنك الاهلي في بروسيا فرض عليه نظام شديد وضع تحت مراقبة شديدة من قبل الدولة البروسانية حتى انه لم يتمتع بحق حسم السندات المالية الا في سنة ١٨٤٦ وكذلك بحق التسليف . فحكومات النمسا وروسيا واسبانيا وادارة صفار الامراء الايطاليين كلهم في عصر مالي وساحة ملحة للنقد .

ان اجبار المصارف في الولايات المتحدة الاميركية على دفع السندات بالعملة المعدنية أثار صعوبات كثيرة بين وزارة المال وبين خصومها من كبار المزارعين في الولايات الجنوبية ، والرواد في الغرب ، و صفار الملاكين في الشرق الشبالي الذي راحوا يشكون من فداحة الضرائب ورسوم الايجارات المهددة بالعملة المعدنية . وعندما راح جاكسون ، عام ١٨٣٦ ، نزولاً عند ثورة الشعب وتحقيقاً لمطالبه ، يتجاوز امتيازات البنك الاهلي ، حدثت في البلاد ازمة عنيفة امتدت عقابيلها الى جميع ارجاء اوروبا .

يحيّد ستندال الملاحظة ويعبر بعمق عندما يقول : المصرف هو كبار رجال المال والحكومات رأس الدولة . فالبورجوازية حلت محل حي سان جرمن ، واصبح المصرف بالتالي بالنسبة للطبقة البورجوازية ما كانته طبقة النبلاء بالنسبة للشعب . فقد طلعت على البلاد اوليفارشية مالية لم يعد في وسع الحكومات تجاهلها والاعضاء من شأنها ، معظم اعضائها ينتمون للطائفة الانجيلية . وقد اخذوا يشيرون الى هذه الفئة ، منذ عام ١٨١٥ ، باسم كبار رجال المال ، وانخرط في صفوفها بعض اصحاب المصارف من اليهود الالمان ، امثال هاين . وقد تمتع اصحاب هذه الاقلية بسمعة مالية قوية واخذوا يتحكمون بمصرف فرنسا الذي رأى النور تحت جناح وحماية المالي الكبير بيرينو من سكان نيوشاتل . وقام في لندن آل بيرنغ ، هذا البيت المالي الذي يعود اصله الى ابن قسيس في مدينة برين هو فرنسيس بيرنغ ، مدير شركة الهند والذي بدأ مسعفة لبيت في المشاريع التي نهض بها . وبعمده طلع اسكندر الذي اصبح فيها بعد اللورد أشبرتن الذي آل اليه الاشراف ، بين ١٨١٥ - ١٨١٨ ، على الاعمال المالية الضخمة التي جرت في هذه الفترة ، ثم دخل شريكاً مع آل هوب في استرداد وباريس . وقد تمكن احد حفدته هو اللورد نورثبروك ان يتولى مقدرات وزارة الخزانة ثم وزارة المالية . وقد تحمل افراد هذه الفئة بالفطنة والحذق وحسن الاطلاع وهي كلها من هذه الصفات التي ميزت كبار رجال المال اذ ذاك . فقد اتقنوا الى حد بعيد ، معاملات الكومسيون ( الوساطة ) في كل ما يتصل بشراء وبيع السفائح والسندات المالية واسهم المعادن الثمينة لحساب الغير ، كما تمت لهم في الوقت ذاته خبرات واسعة في الاعمال التجارية الكبيرة ، كما هي حال آل ايشبورن في مدينة بريسلو الذين همينوا على مصانع نسيج الكتان وتجارة البن ، كما ان آل هترمان اصحاب مصانع الاصواف ، انشأوا لهم شركة للتأمين ، كما ان انطوان برلييه أسس مع شقيقه كزمير مصرفاً له ، وامتلك مصانع لتكرير السكر ومعامل للنسيج ، ومسبكا للحديد والصب في شاير ، كذلك تعاطى تجارة غاز الازارة .

لم تسجل الاسواق المالية حتى عام ١٨٣٠ تطوراً كبيراً . فالصافق او البورصات التي نشطت اذ ذاك ولا سيما بورصة الاسهم المالية في لندن لا تتداول بسوى قسم ضئيل من الاسهم العائدة لبعض المحلات الصناعية ، فالاعمال التي تستأثر بالانتباه والنشاط هي المعاملات العائدة للقروض التي تجرئها الدول والتي كانت يرغب فيها كثيراً اصحاب رؤوس الاموال وتحوز رضاهم . فالمصارف الكبرى تلعب هنا بالفعل دور المصالح الادارية في تأمين الخدمات العامة .

لاحظ جنتر مستشار مترنيخ ورفيقه في مؤتمر فيينا ، بما له من شدة الفراسة ذرة آل روتشيلد ودقة الملاحظة ، ان آل روتشيلد « يتمتعون بفرىزة مدهشة وموهبة ممتازة يتبنون معها احسن الحلول المعارضة يختارون الافضل بين حلين جيدين » . فقد كان المؤتمر المذكور فرصة طيبة عرضت امام هذه الاسرة التي كتب لها ان تبرز وتلمع من بين هذه

البيانات المالية الكبرى التي كتب لها ان تلعب بمقدرات الدول في القرن التاسع عشر .

يمود اصل هذه الاسرة البعيد الى الطائفة الامرائيلية في مدينة فرانكفورت حيث كانت جدتها الاول أمشل - ماير يتعاطى بنجاح ، اعمال الصرافة ويدير بكل جدارة اعمال منتخب من كاسل ومصالحه المدينة . وقد رزقه الله خمسة اولاد عرفوا بـ « سادة فرانكفورت الخمسة » ، تسلم اكبرهم المدعو أمشل ادارة اعمالهم في فرانكفورت بينما استقر اخوه سلومون في فيينا واتجه اخوهم الثالث ناثان ، وهو اكفؤم وألبقهم الى لندن ، بينما توجه جاكوب او جيمس الى باريس ، واتخذ اصغرهم كارل مقراً له في نابولي . واعتاد هؤلاء الاخوة ان يعتقدوا - كل سنة في المدينة الامبراطورية الحرة ، اجتماعاً لهم يستعرضون فيه سير العمل في محلاتهم على ضوء بيانات وكشوف دقيقة ، ودراسة الاوضاع العارضة . وسواء أصعبت عملية مضاربة مالية ضخمة قاموا بها بمناسبة معركة واتزلو التاريخية ام كذُبت ، فقد كرست هذه العملية شهرتهم وجعلتهم اشد اطلاعاً على بواطن الامور وخفاياها ، من رؤساء الدول وملوكها . فقد اصبح آل روتشيلد المولدين الاوائل لدول الحلف وشركائهم . ويقوم سر النجاح الذي اصابوه ، بتأمينهم نقل مبالغ ضخمة قد تكون سورية او وهمية ، بين انكلترا وشركائنا ، في ظروف صعبة ، خطيرة من الحرب القائمة ، في وقت كان نقل مبالغ ضخمة من المال لمسافات بعيدة ، محفوفاً بالخطار . فاتخذوا لمحلهم شعاراً ان دل على شيء فعلى ما جاشت به نفوسهم من اعتداد وطموح بعيد وهو شمار تألف من الكلمات الثلاث اي : إتفاق ، مهارة ، نزاهة .

وهكذا لم يبق في وسع الملوك الاستغناء عن خدماتهم . ومعظم عمليات القروض الكبرى التي وقعت بعد عام ١٨٢٠ تمت على ايديهم وبواسطتهم . وكافأهم الامبراطور فرنسوا باعطائهم لقب بارون . ولما كان من المهم جداً لديهم ان يسود الامن بين الدول والشعوب بحيث ينصرفون م لاعمالهم التجارية والمالية بطمأنينة ، فقد حرصوا جهدهم على تأمين اسباب التفاهم بين الملوك والامراء . ففي الوقت الذي كانوا فيه يُتهمون بتحسين وضع ابناء ملتهم في العقيدة والدين الذين كثيراً ما كانوا يتعرضون للاضطهاد ، فقد راحوا يملكون على توطيد اسباب النظام بعد ان عاد السلام الى اوروبا . وكيف لا تقلق خواطرهم وتجزع نفوسهم على ثرواتهم الطائلة بعد ان اصبحت اسطورية ومضرب الامثال بين الناس ؟ فقد راحوا يستثمرون اموالهم في مشروعات عديدة على شاكلة آل فوجرز قديماً . فقد حازوا على مناجم الزئبق في ادريا كما راح ناثان يعمل لتأمين سيطرته على مناجم المادن في الوقت الذي كان فيه سلومون الذي يسيطر على مناجم وافران فنكوفتش للصب يعمل على تأسيس شركة لويد النمساوية للاسفار البحرية . كذلك عنوا بتجارة الشاي والتبغ . وامتلكوا لهم اماكن للراحة والاستجمام والترفيه عن النفس ، وابتنوا لهم دارات وقصوراً جميلة يقيمون فيها الحفلات الواسعة ويستقبلون عليه القوم بكل مظاهر البذخ والأبهة . وقد عرف ناثان وابنه ليونيل ان يتغفلا في صمم الارستوقراطية البريطانية ، بحيث راحت مدينة لندن تنتخب عام ١٨٤٧ ليونيل ممثلاً لها في مجلس العموم . إلا انه لم يتمكن

من القيام بالمهمة الملقاة عليه والمشاركة باعمال المجلس . واعادت البلدية انتخابه من جديد عام ١٨٥٨ ، وجرى تعديل نص القسم لاجله ليتمكن من القيام بواجباته كمضو في المجلس . و كارل الذي اصبح شخصاً مرغوباً به في نابولي ، عرف ان يكسب ثقة الادارة البابوية . فقد قدم له البابا يده ليقبلها وعلق على صدره الاوسمة البابوية . اما جيمس البارون الذي كان اصعب الشعر ، احمر الوجه والذي كان يتكلم الفرنسية بلهجة المانية ظاهرة ويقع من الولايم والمآدب السخية ما يدهش الناس لما فيها من بذخ واسراف ، فقد راق له ان يلعب دور نصير الادب والادباء والفنانين . فقد اخذ على عهده مؤازرة ميريير - كما اخذ تحت جناح حمايته برليوز وهان ، وسلف بلزك ما يحتاج اليه من مال بعد ان قدم له مؤلفاته واخذ يجمع الآثار الفنية .

ومع انه دخل في خدمة آل روتشيلد صحفيون آمنوا لهم كل اسباب الدعارة وعضدوا مشاريعهم - من ذلك انهم عرفوا كيف يصطنعون جنتر ويؤمنون موالاته - فالنجاح الذي حققوه لم يؤلف مع ذلك تياراً مالياً للسامية . كان آل روتشيلد مضرب الامثال في الغنى والثراء اذ كانوا يقولون : هو في غنى روتشيلد ، قول يردده الناس بشيء من الاعجاب الذي يشوبه الحسد أو الفيرة فقد قمرضت عام ١٨٣٠ ، حياتهم للخطر . وفي سنة ١٨٤٨ اضرمت النيران في قصرهم الصغير في غابة فنسين على مقربة من باريس كما ان سلومون اضطر للنجاة بنفسه والهرب من قصره الواقع في فيينا بعد ان هاجمه الثوار . وكان باستطاعة توسيل وهو من القائلين بمذهب فورييه الفلسفية ان يصرح عام ١٨٤٤ وان يكتب وينشر عام ١٨٤٧ ، رسالة بعنوان : « اليهود هم ملوك العصر » جاء فيها قوله : « ما من احد يعترف ويقدر اكثر مني ، ما للامة اليهودية ، من عبقرية وموهبة عالية . فليس من ملك في فرنسا غير اليهود . فاليهودي هو الذي يملك عندنا ويحكم . فاليهودي الانكليزي والهولندي والجنيفي يؤلف اليوم اسباط اسرائيل الاربعة ، اسرائيل الذي يدهي انه شعب الله المختار ، هذا الشعب الضاري ، المفترس الذي يعيش على الخطف والربا الفاحش ، والذي ينهش في جسم البشرية نش النصور للجيف » .

ارستوقراطية المال الحذرة هذه ، تهزها الى الاعماق نظرية السان سيمونية الشمور بالحاجة الى توزيع التي راحت تطالب بتوزيع أفضل للثروة بين الناس . والحال ، فالتجارة احسن في الثورة والصناعة لا تزدهران إلا ضمن تسهيلات خاصة تؤمن لها النجاح في عمليات الحسم والتسليف .

وقد جاء فريداً في باب اقدم البلاد الواطية على تأسيس الشركة العامة لتشجيع الصناعة الوطنية بحيث يمكن اعتبار هذه الشركة أول مصرف نشأ في القارة لتشجيع الاعمال المالية . فقد اصبحت مشروعات لافيت في فرنسا بالفشل ، فجاءت محاولاته هذه نذيراً بطولع محاولات بيرايير في عهد الامبراطورية الثانية .

وهذا النهج الجديد في الاعمال المصرفية لقي قبولاً في انكلترا التي اصدرت قانوناً خاصاً

يلتزم انشاء شركات مساهمة للقطع ادارتها مشتركة بين رجال الصناعة والتجارة ، مهمتها تسهيل وتيسير الاعمال التجارية الكبرى . وسيبضي وقت طويل قبل ان تتمكن هذه الشركات من القضاء على ما اكتنف اعمالها ونشاطاتها الاولى من التشكيك والظننة .

فالشركات المعروفة بـ *Commandite* او شركات التوصية المساهمة هي في طريقها للظهور ، في ظروف اكثر ملاءمة تتيح لها الازدهار ، مفسحة الطريق امام الشركات المنفصلة التي تمثل طرازاً او طوراً جديداً من اطوار ازدهار رأس المال ، وهي شركات توقع طوعها بعد حين بمض بعيدي النظر في الشؤون المالية .

كان المالي الفرنسي نيكر يعلق اهمية كبرى على هذه القوة الجديدة الطالعة التي كان يحولها ان يسميها «الملك المجهول» الرأي العام . فقد استقر في روع الجميع ان المطبوعة ، على اختلاف لبوسها ، ولا سيما الصحيفة الدورية هي التي تساعد على خلق هذا الرأي العام وتكوينه . فاذا ما اخضعت الحكومة الصحيفة للتمنعة والكفالة المالية استطاعت ان تؤثر عليها وان تخضعها لحضانة رأس المال وكفائه . ويلاحظ مونتلبيير بكثير من الحدق والبصيرة ، « وقد كان من كبار الصحفيين في زمانه » ان الدولة تجهل كيف تربح المارك بدون التضحية بجنودها ولا تعرف ان تؤمن نشر الجرائد في البلاد دون ان تبذل فلوسها . ولذا كان عدد الدوريات قليلاً ومحدوداً ، كما انها كانت تسحب اعداداً محدودة تكلفها غالباً . فالتناس كانوا اذ ذاك يذهبون للمقاهي لقراءة الجريدة ، ولذا أخذت هذه المقاهي تشترك بالجرائد اجتناباً منها لزبن جدد . فالرأي العام كان متمطشاً للاطلاع والمعرفة .

ممارسة سيطرة رأس المال على الرأي العام . الاتجاه نحو الصحافة الرخيصة

لا شك قط في ان الطاباعة الميكانيكية كانت خير وسيلة وأفضل اداة في يد جون ولتر ، مدير جريدة التيمس ، اتاحت له عملية تضعيف النسخ بسرعة اكبر . ولما تبين لهذا الرائد ، على ضوء الاختبار ، بان البريد بطيء جداً في حركاته وتنقلاته بحيث لا يفي بالفرض ، فقد خطر له ان ينشئ مراسلين . فأنشأ في هذا السبيل ادارة خاصة ادخل عليها البحار نومانس فلتشر وغورون محسينات جمة عرفت عندهم بالبريد القاري أو « بريد الهند » . وأخذت تظهر اذ ذلك وكالات للاخبار لم تلبث ان اتسعت شبكتها وامتدت في جميع الانحاء ، غابيتها جميع الاخبار والانباء . انشئت اول هذه الوكالات عام ١٨٣٥ بناء على اقتراح تقدم به شارل هافاس الذي ربط بين باريس ولندن وبروكسل ، بشبكة من الموصلات السريعة مستخدماً لها حمام الزاجل ثم الخط الحديدى واخيراً التلغراف البرقي .. وحذا حذوه في هذا المضمار رويتر احد مستخدميهم وكذلك وولف ، هذا في برلين وذاك في لندن . وفي الوقت ذاته راحوا يكثرون من الاعلان بقصد الدعاية بحيث احتل قسم الاعلان في جريدة التيمس ، كل يوم ، ٦٠ حقلاً أو عموداً ، وهكذا اطل علينا الاعلان الصحفي والنبا التجاري . فهنا يكمن على ما نرى ،

سر الصحيفة الرخيصة . واخذت التيمس تنشر كل يوم مئات الاعلانات التجارية الدقيقة ، وبذلك غطت النفقات الباهظة التي تتكبدها في سبيل جمع الانباء وتأمين الاخبار الجديدة المشوقة ، ودفع أجور المقالات العلمية والادبية التي كانت تستكتبها بعض الاقلام الشهيرة التي تتابع نشرها . وفي اميركا اخذ بنجمن داي يبيس جريدته بسعر سنتين للمعدد الواحد ، مثبتاً الاعلانات التجارية بين الاخبار المشوقة . وراح غوردون بنيت يصدر جريدة المورتنسغ هيرالد التي عينت مراسلين لها في الخارج يدونها بالاخبار ، مشددة على الحوادث المختلفة التي تثير الاهتمام .

وبعد ذلك بقليل اطل اميل دوجاردن وتمكن ، بعد محاولات شتى ، من اصدار جريدة يومية جعل اشراكها السنوي ٤٠ فرنكاً بدلاً من ٨٠ ، وهكذا ظهرت جريدة « الصحافة » كما ظهرت في الحين ذاته جريدة « الجيل » بمساعدة أحد الممولين يدعى دوكاك ، فامتسح على دوجاردن التفاهم وبالتالي التعارون معه . فاذا كان الفضل في رواجها يعود أصلاً للاعلان والدعاوة فقد كان من نشرها الروايات المسلسلة المشوقة اثره البعيد في الترويج لها . وبعد النقد الذي قوبل به النهج الجديد من جانب بعض الكتاب ، أخذ بعض حملة الاقلام الذين يتمتعون بشهرة واسعة امثال بلزاك وجورج صاند يساهمون في التحرير . وراح الكسندر دوماس واوجين سويؤمنان لها شهرة واسعة . وازدادت جريدة *Débats* انتشاراً بين الناس وذيعاً بنشرها مسلسلة رواية « اسرار باريس » ، كما راحت جريدة الدستور تنشر على الطريقة ذاتها رواية اليهودي التائه ، وبذلك عولت الجريدة اكثر فاكثر على الاعلان وزادت انتشاراً وأمنت بالتالي ارباحاً كبيرة . ووقعت جريدة الديبا والدستور اتفاقاً مع الشركة العامة للاعلان ، هذه الشركة التي ألفها بعض أتباع سان سيمون ، امثال دو فرييه وبيراي وارس - دو فور .

وراح بلزاك يضع على لسان احد شخوص رواياته ، بشيء من الغلو هذا الكلام : « كل الجرائد جبانة ، مداجية ، وكاذبة ، لا اخلاق لها ، سفاكة . فهي مقتسلة الافكار والنظريات والناس وبذلك نجاسها وازدهارها » .

فلاستثمارات الفردية والعائلية تشكل النظام المسيطر الآن . فنحن في بين تجار ومنتج عصر المسؤولية غير المحددة وفقاً للقوانين المعمول بها . فالمشروعات هي في الغالب بنت المبادرة الشخصية الجريئة ولذا تمرضت لمخاطر كثيرة .

نظام التاجر الصناعي لا يزال هو المعمول به الآن على الغالب . فالتاجر يبيس السلع التي تخرج من مصنعه ويتصرف على هواه بما يتوفر له من رؤوس الأموال ، وهو مطلع على متطلبات الاسواق ومستلزماتها ويؤمن بنفسه المواد الأولية ليد عاملة متوفرة ، عرفت بمهارتها اليدوية تتمتع بما تم له من صنعة ، بتقدير الجبيس واحترامهم .. وقد لوحظ جيداً ان هذا النظام العائلي استمر الأخذ به والنهج على منواله في صناعة الحياكة . فالخائك العامل في منزله أو بيته سيصمد

طويلاً في وجه مزاحمة المعمل له بالرغم من البؤس والشح والتفتير الذي يزرع تحته . و«المشغل العائلي» سيصمد هو الآخر في وجه المصنع حيث العمل اخذ يتجه نحو المركزية . ولمسل خير مثل نضربه على هذا النمط من النشاط الذي يجعل الصناعة مرتبطة بالتجارة تابعة لها ، هو المصنع الليوني ( في مدينة ليون ) اذ يبدو لنا صاحب المصنع تاجراً أو من كبار التجار احياناً ، يوزع النشاطات في مصنعه ويقتنيتها بين معلمي الكار ورؤساء الورش يحري عليهم الرزق والمرتبات كلا بحسب درجته من الفن والصنعة والتقنية . والنشاطات التي يضطر للتخلي عنها هذا النظام الصناعي العائلي هي التي تتمثل في الحياكة والنساجة . إلا أنه يبقى محتفظاً بالنشاطات التكميلية كصنع الملابس التحتانية والقبعات وما أشبه . وسيُعرف هذا النشاط في الصناعة باسم « النظام المرقق » .

ومع ذلك فقد برز في المجال التجاري نشاطات جديدة كتجارة الفرادي او المفرق وتجارة الجملة التي جاءت وسيطاً بين الصناعة والتاجر الصغير وهكذا أطلت علينا بيوتات تجارية كبيرة تعنى بالاستيراد او بالتصدير . وفتة الوسطاء والعملاء زادت كثيراً من نشاط الحركة التجارية . كذلك ظهر للوجود « المعمل الرحالة » . فها هو كوبدن يقطع كل يوم ٤٠ كيلومتراً يعمل في سني حدائقه عميلاً في صناعة الموسلين ، وقسمات هذا المعمل خلدتها بلزك في الصورة التي وضعا « لنوديسار » المشهور .

فاذا ما طمحت التجارة بالجملة لتوفير السلع والبضائع لاصحاب الدكاكين والباعة بالمفرق ، فقد أخذ الدكان والاعمال التي تتم فيه يرتدي طابع محل تجاري له شأنه . فقد زالت من الوجود معالم تاجر الفرادي الصغير والدكان المتواضع الحقير أمام ما اصطلحوا على تسميته بالمخزن الكبير ، هذا الطراز الجديد من المحلات التجارية التي تعمل على إرضاء زبائنها وتلبية رغائبهم وفقاً لامزجتهم وأهوائهم . فمن الرواد في هذا المجال نرى في باريس البقال باريسو الذي حذا حذو لابليل جاردينير ونحخص ببيع ملابس النساء الداخلية ، ثم اعتزل العمل في وقت مبكر بعد أن جمع ثروة لا تقل عن ٣ ملايين . والسعي وراء « الجديد » والرغبة في حيازته ، ساعد على ظهور مخازن كبيرة ، منها مثلاً المحل التجاري المعروف بـ ( *Les Deux Magots* ) ، ومخزن ( *Le Bonhomme Richard* ) والمخزن المعروف بـ ( *Les Trois Quartiers* ) . وقد رأت الجريدة الهزلية شاريفاري في هذا الطراز من المحلات التجارية ، ما أطلقت عليه اسم المخازن العملاقة وراحت تعطي عنها بصورة هزلية رسوماً وصوراً مفصلة . وبتخصسه ببيع المصنوعات من المجلس الممتاز ، وباحترامه الوزن الدقيق الى اقصى حد استطاع البقال بونرو أن يحقق له شهرة واسعة في هذا المجال ، جاء ينافسه ايها فيما بعد صاحب محلات بوتين الذي باشر بإنشاء مراكز فرعية للتموين في الملحقات .

عاد عدد كبير من اصحاب المصانع لابتناء طبقة النبلاء . فأبناء هذه الطبقة في انكلترا

يهيمنون على عدد كبير من المؤسسات الصناعية . وعلى هذا فليس أيضاً في بروسيا ابتداء طبقة ( Junkertum ) . وقد لعبت التجارة دوراً كبيراً في تطوير ما يعرف بنظام القبارك . ففي معظم الحالات نحن أمام عامل يدوي متواضع يستثمر لحسابه الخاص طريقة جديدة استحدثتها ، أو اختراعاً اكتشفه ، ونحت تصرفه المال اللازم لاستثماره بأشرف أو اشراك أحد ارباب المال . فما هو ستيفنسن يتعاون معه الكويكر بيازالثري المقيم في ارلنغن؟ وما هو ماسون صانع الريش والاقلام في منشستر يستثمر الاختراعات التي تمت على يد الكنفتن في عمليات التفضيض والتذهيب . وصنع وليم كوكريل لحساب سيمونيس وببوليه في فرفيه ، آلات الحلاجة والحياكة التي شوهدت لأول مرة على القارة . واطاف احد اولاده المدعو جون الى مصانعه العديدة في سيرانغ حوالي عشرين معملًا وزعها على بلجيكا وفرنسا والمانيا وبولونيا . وارجين شنيدر ، حفيد أحد القواد من تلاميذ الفوج الاول الذي تخرج من مدرسة الفنون العليا ( البولتكنيك ) كان رقيق الحال لما دُعي لاستلام ادارة مسابك بازاى الواقعة على مقربة من سيدان ، واستطاع مع شقيقه أدولف أن يبعث النشاط في معامل كروزو بعد أن أصيبت بالحمود . وقد عملا فيما بعد في مصرف سيابر الذي كان شريك توصية في شركة شنيدر وشركاه . وتمكن فرنسوا وندل من اعادة النشاط الى معامل ديانج ، وذلك بفضل مؤازرة أحد الطرفين في ميلبورز وبتطبيق الطريقة الانكليزية في عملية تسويط الحديد . كذلك كانوا مهندسين آل موني ودوربان وتالابو الذين استعانوا بالاموال الموضوعة تحت تصرفهم لاستثمار ثقافتهم الفنية .

نحن هنا أمام معين لا ينضب من ارباب الصناعة عرفوا بنشاطهم وجهادهم وكفاحهم في مواجهة مسؤولياتهم الواعية . وهذا المصنع الموجود في محيط ريفي يؤلف مؤسسة مغلقة على نفسها . فهي ملك سيدها ورئيسها ، يوجهها كما يوجه عقاراً بديره على هواه ، لا تترك ابوتيه للسلطات العامة أي باب لتتدخل في اموره الا فيما يتعلق بالحفاظة على النظام والامن الداخليين وضبط العامل ، وذلك بما لها من أسوار عالية هي أشبه ما يكون بسجن يبرز كقلمة تسيطر عليها الاقطاعية الصناعية .

بالرغم من التغيرات التي طرأت على النظام السياسي والنهج المتبع ، فقد استمر الانتاج وحركة المبادلات التجارية في نموها الصاعد .  
الاقتصاد : تطوره ومشكلاته  
حماية الصناعة

فلانتاج تضاعف على الاجمال في هذه الحقبة الواقعة بين ١٨١٥ - ١٨٤٨ . ففي انكلترا وحدها زاد انتاجها من الحديد ثلاثة أضعاف ما كان عليه من قبل ، كما زاد انتاجها من الفحم أربعة اضعاف عما كان عليه عام ١٧٨٩ . وزاد انتاج فرنسا من الفحم والصب والحديد ثلاثة أضعاف ما كان عليه عام ١٨١٥ . ونلاحظ حدوث مثل هذه الزيادة لدى كل من بروسيا وروسيا . أما في الولايات المتحدة الاميركية ، فالتطور الذي تم عندها خلال هذه الحقبة هو جدير بكل

اهتمام وتقدير . فقد زاد انتاج الفحم عندها عشرة أضعاف ، كما ان انتاجها من الحديد زاد ١٢ ضعفاً . وقطاع النسيج الذي يأتي في طليعة القطاعات الاخرى في تلك البلاد بنشاطه ، زاد بالنسبة ذاتها .

ومع هذا ، فالتقدم يبدو أدنى مما حققه القرن الثامن عشر في هذا المضمار ، ومن التطور الذي تم فيها بعد . فقد تطورت الحركة التجارية في الدول الغربية ٤٠٪ بين ١٧١٧ و ١٧٥٠ بينما تطور هذه الحركة بين ١٨١٥ - ١٨٥٠ لا يتعدى قط ١٥٠٪ . والسبب في ذلك هو ان الاستهلاك لم يتطور بسرعة أكبر . فالسوق الريفية ، وهي عنصر هام في الموضوع ، لها قدرة محدودة على الشراء في وقت لم تكن الطاقة الانتاجية فيه كافية لتلبية الطلب . اما المسائل أو الشفيلة فهم في وضع زري ، على الاجمال . قرب العمل يتشدد كثيراً تجاههم مع أن الوضع المسيطر اذ ذاك لم يكن ليخلو من مخاطر تهدده . فالعالم الرأسمالي يعاني أزمات عديدة ليس ريفية فحسب بل أيضاً بشكو انكماش الاسواق المالية .

ومها بلغ من تفاؤل علماء الاقتصاد الاحرار من تلاميذ آدم سميث ، فلا يمكن تجاهل الصعوبات الكامنة . فقد نعى الاقتصادي الاميركي جون ستوارت مل عام ١٨٤٨ : « الركود الشامل الذي يعاني منه الوضع » . وقد سبق لسييموندي فصرح : « بأن هذا هو الوضع نفسه في كل الازمنة » ، وأن الازمة هي نتيجة محتومة لهذا التطور الذي بلغه الرأسمال الاقتصادي ، هذا النشاط من الاقتصاد الذي شجبه المدرسة التي تطالب بنظام 'عرف فيها بعد بالنظام الاشتراكي .

ولذا راحت المصالح الكبرى تتجه بانظارها نحو الدولة . وفي هذا السبيل أصدرت انكلترا بعد عام ١٨١٥ ، قوانين الجبوت تسيجاً منها حول ما يعرف عندهم ( *The Landed interest* ) محافظة منها على ريع الأرض والدخل العقاري . أما في فرنسا فالتحالف القائم بين البورجوازية وبين كبار الملاكين حمل الحكومة على اتخاذ سياسة حماية شديدة . وفي الولايات المتحدة الاميركية ، لا يتطور النظام المعروف بـ ( *Factory System* ) الا في ظل تعريفات حماية قفرض رسوماً عالية . وعلماء الاقتصاد في بروسيا الذين وضعوا الاتحاد الجمركي المعروف *Zollverein* ، انما رمسوا من وراء تشكيله الى ايجاد سوق وطنية تشبهاً برجال عام ١٧٨٩ . وبما له من منفى خاص ، الموقف الذي وقفه لست الذي راح يضع عام ١٨٢٧ ، بعد أن تبين نظام الحماية ، الذي تعيش فيه الولايات المتحدة في ظله ، وهو نظام شمل قارة بأسرها ، كتابه المعنون : « محاولة اقامة نظام اقتصادي سياسي جديد » تدليلاً على حسناته لمجموعة من الولايات تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها . ان مثل هذا النظام الاقتصادي الوطني هو سليل هذه الروح التجارية التي جاشت بها نفوس المسوك والامراء ، هذه الروح التي جرى التعبير عنها عام ١٨٤١ ، خير تمبير ، في الكتاب الموسوم : « النظام الاقتصادي الوطني » وقد راق الكتاب في عيني الامبراطور نقولا الاول فأمر بنقله مع الكتاب السالف الذكر الى الروسية .



البلاد الى سياسة تؤدي الى رفع اسعار الحبز والى الاضطرابات الاجتماعية فيها . فقد وقعوا الى جانب انصار بيل وهسكن الذين عملا على التخفيف من تأثير قانون الملاحة واجازا للاجانب الاتجار مع المستعمرات على شرط المعاملة بالمثل ، وحولا حطس الحبوب الى مرقاة متحركة الدرجات تشبها منها بالقانون الفرنسي . واخذ كويدن وسكان منشستر بشن حملة شديدة ادت بالبلاد الى انتهاج سياسة تؤمن حرية التجارة والتخفيف من الرسوم الجمركية ، وهو تصرف لم يلبث ان انتقلت عدواه الى بلدان اخرى ونهجوا نهجه في الخارج .

هذا لا يعني قط ان حرية التجارة ربحت القضية وكتب لها النصر، ومثل هذا الأمر لن يتحقق ابداً بصورة كاملة . وعندما نشر بستيا ، عام ١٨٥٠ كتابه المعنون : « المؤتلفات الاقتصادية » الذي نادى فيه بسياسة حرية التجارة المطلقة ، راح العالم الاقتصادي الاميركي كاري يصدر ، هو الآخر كتابه الموسوم : « انسجام المصالح » ويطالب على طريقة ليست بتضامن القوى الانتاجية القائمة في بلد واحد . فدنيا الاعمال تتحرك دوماً بين طريقتين او مذهبتين تضمن لها احداً ما الطمأنينة المؤقتة بينما تفتح الاخرى امامها منافذ جديدة وانطلاقات اوسع .

ففي نظام اقتصادي من هذا النوع ، المدينة هي التي لها الكلمة القطع مدن الاس و مدن الغد والرأي الاول . من الطبيعي ان تطورها السريع مربوط الى حد بعيد بالسياسة الاقتصادية التي تنتهجها البلاد . فالتطور الذي عرفته الوظيفة التجارية والمركزية الصناعية الى حد ما ، عاد على المدينة بفوائد جزيلة عادت عليها بالخير دون ان نسقط من حسابنا التقدم الذي لا يمكن تجاهله والذي اصاب المصالح العامة وتناول المهن الحرة . الا ان حركة التكييف فيها جاءت على غير ما يرام . فقد بقي مظهرها الخارجي على ما عهدناه من قبل والملاح الجديدة التي اقتبستها تمت لها بسرعة وبشكل تعوزه اللياقة والبراعة .

ايانا ، مع ذلك ، والظن بسيطرة المدينة . فالنمو الذي حققته المدينة في انكلترا حري بكل تقدير واهتمام . هنالك في انكلترا ، يقطع النظر عن المدن السبع - باستثناء لندن - التي تجاوز عدد السكان في كل منها ١٠٠،٠٠٠ نسمة ، ١٨ مدينة أخرى بدلاً من سبع ، تجاوز عدد السكان في كل واحدة منها ٥٠،٠٠٠ ، فالعاصمة قفز عدد سكانها من ٩٨٨،٠٠٠ الى ٢،٢٦٣،٠٠٠ نسمة . وغلاسكو من ٧٧،٠٠٠ الى ٣٢٩،٠٠٠ نسمة . وبرمنغهام من ٧١،٠٠٠ الى ٢٣٢،٠٠٠ نسمة . ومنشستر وضاحيتها سالفورد من ٩٥،٠٠٠ الى ٤٠١،٠٠٠ نسمة . أما في الولايات المتحدة فقد قفز عدد سكان مدينة نيويورك من ٨٠،٠٠٠ الى ٥٠٠،٠٠٠ نسمة ، وفيلادلفيا من ٤٠،٠٠٠ الى ١٢٠ الف نسمة، بينما مدينة اورليانز الجديدة وسنستاق وبوسطن وبلطيمور لا يزيد عدد سكان الواحدة منها على ١٠٠،٠٠٠ نسمة . أما البر الاوروبي ، فالنمو المدني ليس فيه مسا يصدم الحواس اذ أن هذا النمو اقتصر على المواسم دون سواها بينما لا تتطور روما وبعض المراكز الصناعية سوى القليل . فباريس التي تضاعف عدد سكانها اذ انه قفز من ٥٤٨،٠٠٠ الى

١٦٠٥٣٤٠٠٠ ، تأتي بعيداً في الطليعة . فالمدينة التي يتراوح عدد سكانها اجمالاً بين عشرة آلاف وثلاثين ألفاً تتوفر لها النسبة التي تلام مثل هذا المجتمع البشري كما تتفق ووسائل الانتقال والتنقل الرئيسية التي تنعم بها وهي السير على الاقدام .

أما من حيث النشاط التجاري والصناعي فلم يأت بأي اثر ملحوظ للتطور . فالحياة في المدينة هي استمرار في وتيرة واحدة واطار واحد يتسم بالجمود الملازم لطابعه القديم . وعلى هذا تبدت المدن الاسبانية لتيوفيل غوتيه ساحرة فاقنسة لا تتحرك . فمدينة بورغوس الفخورة حيث الصعلوك يتدثر بعباءته بوقار بحيث تخاله امبراطوراً متجلبباً بالارجوان ، ومدينة فالادوليه « التي بإمكانها أن تستوعب ٢٠٠،٠٠٠ نسمة ، لا تعد غير ٢٠،٠٠٠ نسمة ، فتبدو نظيفة ، هادئة ، جميلة تبشرنا طوالها بقرب الشرق . ومدريد نفسها ببيوتها المبنية من روافد الخشب والقرميد أو من قوالب الشيد ، ومدينة طليطلة حيث المنازل لها مظاهر الدير والسجن والحصن وأحياناً الحرم ، بعد أن تعرف أن الاسلام مر من هنا ، وغرناطة التي تبدو موزعة بين الطراز العربي والطراز الفوطي ، حيث « قباب الكنائس تواكب مآذن الجوامع ، ، بينها تبدو قرطبة اكثر طابعاً افريقياً من أي بلد آخر في الاندلس كلها . ففي هذه الرحلة يقوم بها غوتيه عام ١٨٤٠ الى الاندلس لا نرى فيها شيئاً ينسب من قريب أو بعيد بطابع القرن التاسع عشر البورجوازي والعمالي .

فالمدينة القديمة تحشر نفسها داخل اسوار نصف مهتمة تتراكم فيها الحوانيت والدكاكين كما تتراكب منازل السكن فيها بعضاً فوق بعض . فهي تستوعب من السكان اقصى ما تستطيع استيعابه ، ولم يوضع لها أية خطة أو تخطيط ينظم امتدادها وتوسعها في المستقبل . والحد الفاصل بين المدينة والريف يرفرف فوق قرية أودسكرة برزت من الارض استجابة لمقتضيات النقل . فمدن برمنغهام ومنشستر وليفربول تثير الدهش في نفس المسافر بعد أن يرى كيف أن نواتها القديمة توارت بين ما نشأ فيها من أرباض وضواح واسعة لم تلبث أن غلبت عليها الجدة بما تم لها من اتساع وبما توفر فيها من خدمات تؤمنها مؤسسات مدنية ، كما يشهد ميشليه على ذلك : فالطريق بين روشدايل وليفربول أصبحت كناية عن شارع طويل تقوم على جوانبه بيوت ومساكن تتعادل ارتفاعاً وعرضاً ولوناً . وهذا التماثل أو التشاكل لا يدبث أن يبعث في النفس السأم والملل . « بينما مدينة ليندس ، اكبر مدن النسيج في انكلترا تفتقرش بشكل مدرج المرتفعات المطلة على النهر كأنها تزهد في السهل لا تنزل اليه الا لماماً ، فتبدو وكأنها قفير نحل وقد ارتفعت مداخنها الضخمة في الجو أشبه ما تكون بمسلات فرعونية تنفث دخانها الاسود فينعمد قباباً قائماً يغطي كاتدرائيتها ، .

فانكلترا هي البلد الوحيد في اوروبا تقريباً حيث نرى المساكن في لندن وفي بعض المدن الصناعية مبنية بالقرميد ومن طراز Cottage ، ينبئك منظرها الخارجسي عن طلوع العصر

الصناعي في البلاد. والمعامل لا تقوم في الريف بل بالقرب من الاحياء القديمة على الغالب، وأحياناً تختلط بها، كلما قام في احيائها مساحات تتسع لبناء المصنع أو المشغل، كما انه من مصلحة الدكاكين والمحازن أن تقوم في حركة المرور. ومن بعض نتائج هذا الوضع أن البورجوازية وأبناء طبقة الشعب يلقون على مقربة بعضهم من البعض. فلا يعتمدون كثيراً عن أماكن عملهم، مع العلم أن هذا التمرکز يحد فقراء الحال بينهم على السكنى في مأو واكواخ يكاد لا ينفذ الى داخلها الهواء ولا النور. ومع ذلك فمن النادر جداً أن تخلو مدينة ما من احياء جميلة فخمة المباني يبدو على ساكنيها اللراء، درجوا على اعدادها وتهيئتها منذ أواخر الاجيال الوسطى أو بفضل هبات أو وقوفات تعود الى القرن الثامن عشر؛ إذ أن جانباً من البورجوازية الثرية والارستوقراطية تسكن قصوراً خاصة بها أقيمت لهم على جنبات الشوارع الرئيسية، حولها ساحات واسعة مسورة يتألف من مجموعها احياء وحارات رتيبة، تكشف بظهورها هذه الفوضى والوضوء المخيمة على الاحياء الشعبية، وعلى الاحياء التجارية. وقد تكاثرت عدد الاثرياء الذين راحوا يبنون لهم منازل كبيرة تتوفر فيها أسباب الراحة والرفاه. ومع ذلك هنالك نزعة تبدو في انكسار أشد منها في أي بلد آخر على القارة، الى اقامة مباني سكنية للاستثمار، لم تلبث أن تصبح الطابع الذي يميز المدن الحديثة.

فقد جمعت لندن بين حي المدينة، محور رجال المال والاعمال، وبين حي وستمنستر بحي تجاري يعج بالنشاط ووسعت مرفأها وأرصفها الى ما وراء جسر البرج وغطت السهل الترامي أمامها بالوف المنازل المائلة شكلاً كما شغلت مساحات واسعة من الريف.

أما باريس فبالرغم من أن المزارعين أقاموا حولها نطاقاً من المزارع والبساتين قبل أن ترتفع في ضواحيها التحصينات العسكرية التي أمر الرئيس تيير بإقامتها فلا تزال مدينة سحر وقتنة، مقصد كل من لم يرها، واليها تنجبه الأنظار، تحمل الخبز والشر (وفقاً للأقدار والحطوظ) الى ساكنيها، وتخلف الأسف والفضة في قلب من يفادرها بعد ان سكنها ردها من الدهر. فالسكان يزدادون كثافة في القلب والملاية، وفي ضاحية سانت انطوان. فاذا ما راح ذوو اليسر والثروة من أبناءها يطلبون الهواء الطلق بالجماء الغرب، راح الشغلة من سكانها يمتشدون قريباً من مكان عملهم. وهكذا راح فريدريك سوليه يصف لنا كيف ان سكان المدينة يندفعون بكليتهم ايام الاحاد وفي عطلاتهم، الى الخارج بحثاً عن الهواء النقي، مخترقين الابواب والمنافذ.

الا ان معظم المدن لا تزال تبدي طابعها الريفي لما عليه من صفر الحجم. فقد كتبت جريدة برمنغهام عام ١٨٢١ تصف لنا كيف ان الناس في الريف يقفون مشدوهين أمام منظر الواحات وهم متراصون، يخشون ان يقفوا تحت عربات الجر وعربات النقل التي تتخطى الارصفة غالباً نظراً لما كانت عليه الشوارع من ضيق، بينما الجزارون وتجار الخيل يساومون في جدل لا ينتهي، الفلاحين والمزارعين بشأن قطعان الماشية التي تقص بها الازقة. وتحتل الجانب الأكبر من جادة

الطريق ، مع ما عليها من أسراب الدجاج ، وقطعان الخنازير غادية رائحة بحرية ، قامة بينما يتدافع صبيان الأزقة ويتراشقون بالبيض الفاسد وكتل الوحل والزبل ، هذا يكدش وغيغه ممسكاً به بين يديه بينا الكلاب في نباح لا ينقطع حبله والمستعطفون يملأون الشوارع . وما أن ينهمر المطر مدراراً حتى تستحيل الأزقة والشوارع بركا من الوحل والمفاسات . فالوحل يغطي برمنغهام كما يغطي غرينوبل ، هذه المدينة « التنتنة » كما ينعثها ستندال . ومثل هذا الوضع يجعل برودون يتمللق قائلاً : « ترى جيداً انه يكفيني ما تمارت به طوال حياتي من أوحال ليون ا يا لها من مدينة قدرة اعسى ألا يتحول عدم الاكتراث بهندامي ، هذه التهمة التي يلصقونها بي ، الى اتهامي بالاوساخ . فكيف النجاة من هذه الحمأة ، ومن هذه الاقدار التي لا حصر لها ؟ ليس في المدينة من دورات مائية جارية : فالماء ينقل على الظهر واكتاف الجمالين ، وليس من مجارير لتصريف القاذورات والمياه الملوثة . فالقدارة والمرض يسيران دوماً جنباً الى جنب . »

وعندما تكون المدينة صغيرة ، تشمر وكان الريف يسحقها سحقاً . فما هي سيدان ، هذه المدينة القديمة ، المحصنة التي ماتكاد تعطى فيها اشارة اطفاء النور حتى تقفل منها الابواب . هي عبارة عن شبكة من الأزقة الضيقة الممتدة حيث تكثر الحفر والاخاديد المليئة بالمياه الآسنة تفتح منها الروائح الكريهة ، سكانها عمال وشفيلة يعملون في صناعة النسيج ، يرواحون عن نفوسهم في هذه الاحياء والحارات المحيطة بالبلدة او يعتنون بمحذائهم وبساتينهم . لتضرب مثلاً على ذلك بلدة سان ديزيه التي كان لها من السكان ، عام ١٨٤٦ نحو ٧٠٠٠ نسمة ، ١٣٪ منهم يعملون في زراعة الكرم ، و ١٩٪ عمال مياومون ، و ٧٪ يعملون في الحدادة . فالكرامسون يقطنون أكواخاً في ضاحية جيني ، ثم يليهم باتجاه الوادي البحارة والمعشاشون من البحر . كما يسكن في ضاحية نو الحوذية وسائقو العربات وصانعوها ، والبيطريون والمنجدون والحمالون والباعة الجواله . ويقوم مقابلهم بناء السفن والشخاتير بينما يتوزع الحدادون على مربعات سكنية لا يزيد عدد سكان المربع الواحد ، على مائة نسمة . أما ابناء البورجوازية ، فقد سيطروا على الشوارع القائمة في وسط المدينة ، بينهم بعض اصحاب الدكاكين ، وبعض المحامين والملاكين . وهذا الحظي هو أحسن بناء الا انه قليل السكان اذ لا يوجد فيه اكثر من ١٧٠٠ شخص لا غير .

ومدن العالم الجديد لا ماضي لها ولا تقاليد ، ليس فيها ما يلفت النظر سوى اتساعها ورحبها ، « فشوارع مدن الاتحاد ، كبيرة كانت أو صغيرة ، تبدو مستقيمة الزوايا وعريضة . ولشوارع فيلادلفيا عرض كبير يستلفت الانتباه ، تنتصب الاشجار من كلا جانبيها ، كما يروي خبر ذلك عاملان فرنسيان . » هنالك منازل عديدة ، مغطاة واجهاتها بالمرمر الابيض ، والحركة في هذه المدن ناشطة قوية . ترى في نيويورك الى جانب العربات التي تجرها الجياد ، حافلات تسير على خطوط حديدية ، تتسع الواحدة لأكثر من ١٠٠ راكب بكل ارتياح . صحيح ان عدداً كبيراً من هذه المدن يبدو حقير المنظر . ففي شوارع بوسطن وازقتها كانت قطعان الخنازير الى وقت

قريب تسرح فيها وتمرح وتكفل بالقضاء على النفايات والارساخ المتركمة في مدن الغرب التي تبدو وكأنها ورش لا حدود لها ولا سدود . الا ان هذه المدن كالفطر ، تنمو بسرعة كلية ، وتبشر بضخامتها الهندسية بقرب طلوع هندسة المدن الحديثة .

فالبورجوازية ماضية في تصعيدها . فهي التي تفرض الذوق البورجوازي في  
وتعطي القياس في كل بلدان الغرب . وبما هو حري بالملاحظة ان  
الشعب فرض ذوقه في كل ما يتعلق بالهندام واللباس . فالسروال  
هو الذي يتحكم بالذوق والجمه في طريقها الى الزوال . فالبورجوازي يتميز عن السوقه بالريدينفوت وزيه وقبعته ، بينما يرتدي الاخير سترة . وهذا البورجوازي ينتعل السكرينة أو البابوج الخفيف او حذاء ناعماً ويضع حول عنقه عقدة كبيرة . « اما سيدة المجتمع الراقى ، فهي تتفنن في تأمين الانسجام والتناغمي في كل ما يتصل بملابسها وزينتها بجارة منها للذوق الرومنطقي . فهي تحلم دوماً بالفساتين المطفطة الاكام والاردان وتكثر من استخدام الدانتيل والشرائط ، ولا تستغني عن أكام الفرو ، كما انها تتفنن في عقص شعرها وتقصيبه وتحلمته . فالهندام الخارجي هو الذي يدل على هوية صاحبه : « أخواجا » هو أم « عقيلة » أم « كريمة » من ابناء العصر ؟

فالمل وحده العنصر الذي يحدد مركز الفرد ومكانه في هذه البورجوازية وداخلها . فالمل وحده يوليه المركز الاجتماعي والاحترام اللائق . في قمة السلم الاجتماعي نرى أرباب البذخ من اصحاب المصارف ، كما يحتل الدرصة السفلى منه البقال او العطار « الحشو الذي لا بد منه ولا غنى عنه للحياة الاجتماعية » كما يسميه بلزاك . ويتوزع بين مختلف درجات السلم كل من تعاطى التجارة أو حاز عقاراً له طابع صناعي . وهكذا ترى القوم في بلدي بارمن وابريلد ، كما يؤكد المجلس « غارقين بين الارقام والاعداد في عمليات حسابية لا تنتمي بجماس ؛ وتكالب لا نظير لها . وفي ساعات معينة ، في المساء يخرجون لقضاء السهرة فيلتهون بلمب الورق ، ويبحثون في امور السياسة العارضة ويدخنون ليعودوا الى منازلهم عند الساعة التاسعة ليلاً » .

عاملان يوليان المرء أهميته وشأنه : الوظيفة العامة والمهنة الحرة . ففي بلدان مثل فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة الاميركية ، ليس ما يجد من اطماع الفرد او يصد من طموحه ومن تطلعه الى المراكز الكبرى في خدمة الدولة . غير ان ابناء طبقة النبلاء من كلا جانبي المانش يكافحون للاحتفاظ بالمراكز العليا : في الجيش والسلك الدبلوماسي . ففي أوروبا الوسطى وروسيا ، لا ترقى العامة من الناس الى مراتب الادارة الا بفضل إنعام خاص من أولي الامر او بفضل مواهب وكفاءات خاصة تفرّد صاحبها وتميزه . الا ان ابواب القضاء مفتوحة على مصراعها امام ابناء البورجوازية . فالطبيب سواء وجد في المدينة او في الريف ، هو في مستوى النبيل منزلة ومقاماً يتعادل مع اصحاب المقارات الكبيرة . « فقد اصبح - كما يؤكد بلزاك - من دعائم الحضارة والمجتمع » . ان ما يحمله في الصدر من علم يوليه شأناً عالياً ينهض بأطماعه السياسية .

فالعيش على النهج البورجوازي ، يقتضي له منزلاً تتوفر فيه كل التسهيلات ووسائل تأمين التعليم والتربية للاولاد ، وتأمين بائنة البنات ، هذا فيما يختص بالرجال . اما عند المرأة ربسة المنزل ، فإن تزور وان تزار . هنالك درجات متفاوتة في الوضع الاجتماعي . ففي مدينة فانن مثلاً كانوا يقسمون المجتمع عام ١٨٣٥ الى ٨ طبقات او درجات في السلم البورجوازي وفقاً لنهج الحياة ، اعلاها مرتبة من يبلغ ريعه السنوي ١٢٠٠٠٠ فرنك ، يستطيع معه ان يدفع ١٠٠٠ - ١٢٠٠ فرنك ايجاراً في السنة لمنزله ، وعنده عربية وحوذي واسطبل . اما من تراوح ريعه السنوي بين ١٨٠٠ - ٢٠٠٠ فرنك فهو من صفار البورجوازيين . باستطاعة البعض ان يرتادوا المدن المائية ويختلّفوا الى المسايح التي اخذت تظهر هنا وهناك ، كما ان البعض الآخر يقنع بارتياح المتنزهات القائمة على مقربة منهم . والكل يتوق لارتياح دور التمثيل ودور اللهو . ان معظم اصحاب معامل النسيج وكبار التجار في مدينة ليل من آل سكريف وآل ماقون مثلاً ، لهم صروحهم وداراتهم الباذخة . ويعد انسحابهم من حياة العمل نرى اشخاصاً امثال سكوليبيه - بتور واغاش دسمد يمجون حياة بذخ اصحاب القصور .

وبفضل الدور الذي مثله تيير في مجالات الصحافة والادب والسياسة ، ارتقى حتى اصبح وزيراً للملك لويس فيليب ، وهي وظيفة كانت تدر عليه مرتباً يتراوح بين ١٠٠ الف و ١٢٠ الف فرنك في السنة . وقد در عليه كتابه « تاريخ الثورة » مبلغ ٥٠ الف فرنك ودخل عضواً في مجلس ادارة جريدة « الدستور » وبذلك عاد اليه قسم من الارباح . وعندما تزوج عام ١٨٣٣ انفق على فرش دارته عشرة آلاف فرنك . وكان معه نقداً ٦٠ ألف فرنك وملك قصراً في شارع سان جورج باعه فيما بعد بمائة الف فرنك كما ملك منزلاً في مدينة اكس . وقد كلف جهاز عروسه عشرين الف فرنك وجلبت معها بائنة تقدر بثلاثمائة الف فرنك قدر في السنة ريعاً صافياً قيمته ١٥ الف فرنك . وتراه يشترى الخيل والدرجات ويجمع التحف والكتب النادرة ويسافر محوطاً بمظاهر الابهة ويتعاطى المضاربة بالمقارات .

وهذا النموذج الممثل بجوزف برودوم وجيروم باتورو وقيصر بيروتو الذي كان يمثل الاتاقاة ويتحدث عن الشرف وينادي بالانسانية المثالية والذي كان يزعم انه يخشى الشعب ، يدعي انه من الشعب ويتبجح بأنه يتكلم باسم الشعب ، هو نفسه سبب نفرة وامتعاضاً لهؤلاء الذين يتهمونه في ذوقه الغني والتبجح بنزاهة الضمير والوجدان ، وهزؤون من رضاه عن نفسه . وهذا النموذج المثالي يبدو على أنه في هذه الصورة التي وضعها الرسام انغر لبرتن الاب مؤسس جريدة الديبا . فصوره لنا غارقاً في كرسية الكبير ويدها مسبلتان على ركبتيه ، ساخماً بأنظاره ، معتداً بنفسه وستبرز لنا صورته من جديد بعد عام ١٨٤٨ ينصب ويجهد ، ويشيد فريتاغ بذكراه في كتابه المعروف *Droit et avoir* .

في فجر هذا العصر الصناعي الذي تتجه اليه البورجوازية بخطى حثيثة ، تطلع علينا الرومنطيقية ، لتحرر قوى الاستقلال بمد ان عقلها النقد الاجتماعي وكتبها عندما استعطر شأنه .

## الفصل الخامس

### الحركة الرومنطيقية وعودة الشرعية الى أوروبا

أي متى ظهرت ، يا ترى ، الحركة الرومنطيقية التي تجلت بوضوح  
وبرزت على أمتها في مستهل القرن التاسع عشر ؟ هل منذ عام ١٧٧٧ ،  
بعد ان شن كلنجر ، في هذه السنة بالذات ، هجومه على المذهب العقلي ،  
في مأساته الموسومة : « Sturm und Drang » ( عاصفة وصراع ) التي ينم عنوانها عن زخم  
التيار واندفاعه الشديد ، او منذ عام ١٧٧٣ ، تاريخ وصول «غلوك» الى باريس ؟ فقد تحلى غلوك  
عن النهج الايطالي وسار على طريق « رامو » راميا من وراء ذلك الى اخضاع الموسيقى للشعر  
وادخال الطبيعة في المأساة الموسيقية . وقد مهد رامو في مسرحيته *Les Indes Galantes* لظهور  
برليوز كما انه جاء بالدليل على ان مؤلفات موزارت تنزى بالزي الجديد الذي رسخ وتوطد  
في النفوس .

ففي الحقبة التي تلت العاصفة الثورية والنابوليونية مباشرة ، برز للعيان من جهة ، الشعور  
بالقلق ، ومن جهة أخرى التمرد على الحياة الرتيبة التي تشوبها الروح البورجوازية . ولذا بدا  
هذا الشعور متشائماً على شيء من مظاهر التدين ، ومن الحنين الى الوطن المألوف . فقد اخذ من  
الشعوبية النزعة نحو النظام الاجتماعي ، وقد فتنّت الشبيبة البورجوازية بهذه النزعة الجديدة  
واقبلت عليها بشغف ، فجاهت الاستجابة عندها وفقاً لمشاغلها الخاصة ، وبذلك اصبحت الروح  
ذات نزعة متحررة ووطنية الانجاء ، تتجه تحت تأثير الماطفة ، شيئاً فشيئاً ، نحو مثالية من  
الاخوة الديمقراطية جاءت بلسماً خففت نوعاً ما من أوصاب البروليتارية وآلامها . وهكذا لن  
تلبث المثالية ان التقت بالتفاؤلية التي ميزت العصر الماضي . فهي في نظر ستندال الذي عايشها :  
« هامل لا يبصر ولا يسمع في خدمة مستقبل غامض » .

وصف دليكلوز في يومياته: الابداعية (الرومنطيقية) « بالخواه»  
مع العلم ان هذه الحركة انطلقت تحت مظاهر الاتباعية او  
الكلاسيكية وتطورت تحت جناحيها . والفنانان دافيد وأنقر  
بين الاتباعية والابداعية :  
وضع غوته وبيتهوفن من بعده

ليسا بمنفردين . فالجماهير التي وقفت مشدوهة امام تمثال « تاليه هوميروس» والتي قابلت بتصفيق  
حاد طالما، يحتفظ بمثل هذه الحماسة لراشيل. الا ان الفكرة التي ارتسمت في الاذهان عن التاريخ  
القديم برزت اقل مطابقة للصورة المألوفة او الصورة التقليدية . وقد اطلت علينا رؤى عن  
الحضارتين الاغريقية والرومانية ، ألصق بالتاريخ واعلق بالواقع التاريخي واخذت تبدو شيئاً  
فشيئاً الصورة الادبية التي علقت في الخواطر عن بشرية خالدة . وبما له دلالة خاصة بهذه الحركة  
هو اكتشاف شكسبير بعد جهل العالم له ، فأنزله فولتير منه منزلة خاصة ، واستاد به لسنغ  
عالياً وترجمه شليفيل وتيك وادخله كارامزين الى روسيا فأدخل القبطة على روح بوشكين . وقصة  
فوست التي دخلت المسرح على يد مارلو احد معاصري شكسبير ، حملت لسنغ على معالجتها  
وتدبرها قبل ان اصيحت موضوع اهتمام غوته .

فالتحولات التي خضع لها فوست انما تدل على تطور الفكرة عند غوته . فصورة فوست  
البداية عزت اليها صورة بروموية المتحمس في رواية *Syurn - Drang* ، الى آخر تجسد من  
تجسدهاته المديدة الحلولية الطابع والصيغة مروراً بفوست المناضل الذي يهوي الى الارض .  
ففي هذه القصة رمز للبحث عن الحقيقة ، عن طريق الثورة أولاً ، ثم عن طريق التكامل  
المتناغي للقوى العقلية المنسجمة . فبدع فوست وخالفه هو هذا الاديب الالوبي الخلاق الذي  
يهيمن من عل على الظروف والصروف ويتحكم بها بحيث تتم له المطابقة ويحصل التسيب بين  
افكاره وبين الوظائف التي شغلها في بلاط ويمار ، وهذا التجريد الموسوعي العقلاني الذي يسمى  
وراء البحث العلمي محمولاً على اجنحة التفاؤل البشري . فهو يطري الى ابعد حد هذه الحرية التي  
يجود ابطاله بأرواحهم دونها ، هؤلاء الابطال المتمثلون بـ : غوتز وانغونوت وفوست ، ويؤمن  
اياماً عميقاً برسالة الشاعر . وسيبقى في نهاية الامر الشاعر الكلاسيكي الامثل في الادب الالماني ،  
بما له من انشاء جزل ولغة سامية .

بتمتع بيتهوفن بشخصية لا ترام ، كما يقول فيه غوته نفسه . فقد توفرت له خصائص  
وسمات مفردة : عنفوان شباب لم يلبث ان استحال نزعاً قوية تدفعه نحو العظمة الوقور ،  
ومفهوم اكمل للآثر الفني بوصفه منجاة من عاطفة الحب المشبوبة ، والسعي الرصين بحثاً عن  
الوحدة وراء التناقض ، بين القوى الخيرة ، وقوى الشر ، هذا التناقض الارستوقراطي الطابع  
هنا ، والشعبي الجماهيري ، هناك ، الذي يذكرنا بأبحاث جان جاك روسو في انمزالته الاجتماعية  
في ما جمع بينها ووحده من قالب كلاسيكي ، والكلاسيكية الموسيقية الحقة التي عمر بها الجو الذي  
استنشقه باخ وهندل . فالمعجزة البيتهوفنية تقوم في ان سيد يون نفخ روحاً جديدة في الانغام دون

أن يبدل بشيء في الفنون . فبعد ان وسع من الاركسة وبعتماده على المعرف كوسيلة اولى في الانشاء والتنظيم ، وعن طريق ادخاله الحزن أو الشجى في التعبير الشخصي ، فتح الباب على مصراعيه امام المدرسة الابداعية الرومنطيقية . فالكمال الفني الذي بلغه موزارت قد يُدخِل اليأس على نفوس الشباب . اما السمو الفني الذي حققه بيتهوفن ، فيبعث النشاط والتجدد بعد ان حرر الفن من ربة التقاليد .

الرومنطيقى وحلمه الدفين  
يحاول لهذا الرومنطيقى ان يلفت اليه الانظار بطريقة أو بأخرى من طرائقه الغريبة كالمظهر الخارجي والذوق ، والمزاج ، والطبع .  
فهندامه او زيه « مدروس الى اقصى حد » كما يقول فيه ثيوفيل غوتيه . فقد سبق لليون غوزلان ووضع لنا عنه صورة هذه بعض قساماتها المميزة: بزة رسمية، سوداء اللون مزررة مما اتصل بالبطن حتى الشريان السباتي ، وياقة فضفاضة مسترخية ، الى سحنة ممتعة اللون، مستديرة، عليها شيء من اللامبالاة ، لون وجهه ينم عن القلق المنبئ بموت قريب ، اذ عليه ان يجس حياة ملؤها العنف والنضال او يزول من الوجود . وبالفعل فاللورد بيرون ، هذا اللورد الذي صدمه الواقع فجاء مزيجاً من المرارة والقحة عبر عن الطريقة الرئيسية التي لا تتوقع شيئاً من البشر ، وذلك قبل ان يجود بنفسه بكبر في مدينة مسولونغي ؛ وساندور بتوفي يفتل في ساعة الوغي ، في معركة سجسغار، عام ١٨٤٩ ، وحوادث البراز تخترم بشكل مبكر حياة بوشكين وله من العمر ٣٧ سنة ، كما تودي بحياة ليرمونتيف وهو ابن ٢٧ سنة ، وغالوا، هذا العالم صاحب الفكر الرياضي، يموت وهو ابن ٢١ سنة . وها هو كليست يقتل عشيقته ثم يحطم رأسه امام جثمانها ؛ وجيرار دي نرفال يشق نفسه في احد الازقة ؛ والممثل نورتي يقذف بنفسه من النافذة خلاصاً من الحياة . واذا اتفق وقام ، انتهت حياته بالجنون ، او الادمان على الكحول ، امثال لينو وشومان وبر ، فهناك غيرهم امثال توفاليس وشيلي وكيتس وليوباردي وشوبرت وشوبان وديلاكروا وابيل تتخاطفهم حوادث المرض والعوز والبؤس واليأس . كم هو كبير عدد هؤلاء الامراء في هذا العصر الذين يبديون كريحة في مهب الريح ، على شاكلة شارل البيير ، وفريدريك غليوم الرابع ، ولويس الاول ملك بافاريا ، بينا لويس نابليون المصاب « بالنومشة » يعيش في احلامه ويؤمن بطالع نجمه .

ولما كان الفرد هو قسطاس نفسه وله نمطه الخاص في العيش ، راحت روح الثورة تدفعه للوقوف في وجه الاعراف والتقاليد المعمول بها فزقاقية اللغة وريشة ديلاكروا الثملة ، وموسيقى برليوز « الرهيبة » ، المفزعة ، البركانية الاثر ، ، كلها ذرائع ووسائل لاستشاطة البورجوازي وإثارتة . فيبرون يستشيط غيظاً ضد التصنع والتزمت المغالي ، ورياء اللغة ، ودجل التعبير ، وبوشكين لا يتورع عن ابراز معانيه ونقائصه ، واوروز دويين ، بارونسة دوديغان تحتسي الـ *Princhi* وتدخن السيكار ، وتظهر ثارة بلباس الغندور المتأنتق الايسق ،

وطوراً بلباس البوهيمي . « يعجبني ذرو الطبايع والغرائز الشاذة ، واني لواحد منهم »  
يصارحنا بذاك في مساراته جورج صاند .

من يستطيع على شاكلة برليوز ، ان يسمر الهلع بواسطة موسيقاه الرهيبة ، في نفوس مستمعيه ، ومن يستطيع على شاكلة جريكو ، ان يجمع جثث الموتى في مرسمه ، ليؤلف لنا هذه القطعة الموسيقية المعروفة بـ « طوف المدوزة » ، هؤلاء بالذات يذهبون فريسة التأمل والتفكير . هذا ما يمتدحه لوفاليس بجواء النفس وهذا هو الملتس عند هوفمان وتيك ، وهذه هي رائحة الضباب الذي يغشى المقابر ، مطلب غسبار - دافيد - فريديريك ، ومنظر المستنقع الآسن ومنجم الفحم الذي يمتدب اليه أنيت دي دروست - هولشف ؛ هذا هو لويس سولر الذي يجد لذته وامتعه المفضلة « واقفا امام قبر ، او في دير حيث يسود الصمت والسكون او امام صرح قديم منمزل ، على ضوء « قمر ممتع اللون » ، هذا القمر الذي يوحى لاندرسن اقاصيص غريبة عذبة . فالصورة التي خلفها لنا هوغو تعبر عن اللذة التي تجيش في صدر من يرزح تحت الكابوس او ما يوحى الشعور بالضيق المرهق . معبود كورو ، رسام المناظر المشهور ، هو ان تكتحل عيناه بهذا الوشاح المهفب الذي يتألف من هذا الضباب الفضي ، الذي يترك الاشياء قلقة ، لا تستقر على وضع او حال . هنالك من ينقطع للرحلة والسفر بروح طليعة او بروح ملول كما ان البعض يؤثر المشاهد الهادئة التي تكثر بين الناس داخل أسرم ، ومعظمهم يحاول ان يجد في الطبيعة سلواه وعزاء . فاذا ما رهب فينيي برودة هذه الام الشرسة الطبايع ، واذا ما تقم عليها ليوباردي لامبالتها وعدم اكترائها لهذه البشرية البائسة ، واذا ما غاص لامرتين في احشائها واذا ما نظر اليها ميشليه كما هي على علاقتها ، بمعجها ويجرها ، وهو يقول : ما من شيء في الطبيعة لا يثير في الانفعالات ، فانا اكرها واعبدها سواء بسواء ، كما امقت المرأة واعبدها . ولما كان الزواج يقيد صاحبه ويفرض عليه شيئاً من العبودية ، فانا احتقره واسخر منه ، فالاتحاد البورجوازي يجب الا يقوم الا على العاطفة التي يجب ان تتمتع بكل حرية ، وما هو غريبلرسر وهيبيل يميلان من المرأة بطلاة مسرحياتهم التي تذكرنا عن قريب بمسرحية راسين .

هذه الشعبية المستنيرة ، الارستوقراطية الطبايع ، والطبقة البورجوازية  
البيئة وأدوات التعبير  
المليا اللتان اتخذتا من فرنسا موطناً لها ومستقراً ، لم تخفيا قط من الوجود . فالصالونات ونوادي المجتمع الراقي ونصراء الادب والفنانين من الامراء ، لم تتمكن الثورة الكبرى من القضاء عليها او ان تستأصل شأفتها من البلاد . فاذا ما سلمنا جدلاً بأن فرنسا خسرت كثيراً في هذه العملية ، فسيطرتها الفكرية لم تتأثر كثيراً من هذه المغامرة الكبرى . من المعروف باتفاق الآراء ، ان باريس هي مدينة الذوق الرفيع ومقياس الشهرة الواسعة . الا ان الظروف لم تمد تماماً كما كانت من قبل . فقد مرت بساء فرنسا عاصفة هوجاء ، والمستقبل يبدو عندها وكأنه على كف عفريت . ومن جهة اخرى ، فالخلط الذي ذهب اليه المغامرة النابوليونية

والحركة العقوبية التي سبقتها ، تسببت في ردة فعل هوجاء ضد الروح الفرنسية ، كما عاد كل ذلك على القومية الفرنسية يمثل هذا الحسف .

ولذا فليس بمعجيب قط ان يصاب في الصمم هذا الاتساق أو الانسجام «الفلسفي» الذي طبع النماذج الفرنسية وميزها في القرن الثامن عشر . وهدمها كان المهندسون والنقاشون ، والرسامون ، والمذوقون يقومون بعملية الخلق والابداع كل في فنه ، كانوا كلهم يستوحون النماذج الفرنسية ويستلهمونها . ولذا لا نرى في الفن هندسة رومنطيقية . فالارستوقراطي والبورجوازي الذي يبتني له منزلا يستوحي ما وقع تحت انظاره من نماذج قائمة ، عندما لا يرغبون في بعث الطراز الفوطي . فالرغبة الجنونية بتقليد كل ما هو انكليزي فرشت بلدان القارة بالحدائق والجنان التي تبدي طابع الجزيرة المزدانة بالخرائب او الآثار المزيفة . وهكذا زالت من الوجود النقوش والمحفورات - باستثناء «رود» الذي يؤلف وحده خروجاً على القاعدة . ولذا راح العاملون في النقش ، يتجهون على الغالب ، نحو الموضوعات التي يعالجها النقاشون عادة ، مثال ذلك الرسام باري المتخصص برسم الحيوانات والذي لقب بحق «ميكالو المجلو الكواسر» ، وأفيد الجحيم المتخصص برسم الاشخاص ، ودانتان الابن المتخصص بالرسم الهزلي او الكاريكاتور . ففي الوقت الذي يتوارى فيه فن الرسم التشكيلي عن المسرح ، يطل علينا فن التصوير على مسند ويزدهر بشكل لم يكن ليتوقعه احد .

وهذا النوع الذي يأتلف كما يجب ، والهوى او الرغبة ، كما يطابقت معارض الصالونات والمتاحف ، والذي يصف بدقة كلية ، هذه المخططة العجيبة ، وهذه الفوضى الماكرة المتقلبة باستمرار ، هذه الفوضى التي «توحي القبطة» كما يؤكد بلزالك ، وتوحي السجاجات البشرية ، والهلع ، او توحى هذه الطبيعة الذاتية او الغنائية الموحشة او المبهرة عن سرائر النفس الدفينة ، فن شخصي يستمد كل قوته من اللون . ولذا كانت عناية أنفر بالرسم على نسبة صدق محاربتة للريشة الثملة .

كذلك تتوفر للموسيقى وسائل هائلة لتمبر عن انفعالات النفس وتثير الاخيلة . فهي تنبعث وتتجدد بالتأليف بين هذه الانغام والتعبير عن المبادئ والقواعد التي يقوم عليها اثتلاف الانغام وانسجامها . فهي تتوخى التنويع وتهدف للتأثير على القلب اكثر من تأثيرها على العقل . وهكذا يطل على الناس عهد المعرفة الذي له من الايقاع المدري ما لا يتوفر بعضه للبيانو القديم . فكبار صانعي المعازف امثال ايرارد وبلابل عملوا على انتشاره وجعله في كل منزل ، وفي متناول الدورجوازية الحديثة العهد . فالمعزف هو الآلة الموسيقية الفضلى لدى شومان وشوبان وليست . وجل ما يريده الموسيقاريون الكبار او يطعمون فيه من القيثارة مع بفانيني ، ومن الفيولونسيل والناي مع الآخرين ، هو الخلق الفني . وساكس ، رب الآلات الموسيقية النحاسية النافخة ، كما يسميه مايرير ، جدد الحياة وبعث النشاط في آلات النفخ وزاد عليها اختراعه الكبير

## مثلاً بالكسفون .

فاذا ما ابرز الكونسرتو موهبة النبوغ الموسيقي ، فقد عقدوا الامس على القصائد الرومنطيقية المعروفة بـ *Leids* والتي تلائم تماماً بين النغم واللفظة لكي تعبر عن اعتمق خوالج النفس البشرية ومشاعرها الدفينة . فموسيقى الحجرات المخلفة التي تنبع من عدد معين من المستميين تأتي ادنى مرتبة من المسرح الغنائي الذي طلم علينا بهمهذه الذهبي ، هذا المسرح الذي يعمل في سبيله ، العديد من المؤلفين واضعي نصوص الاوبرا . هذا المسرح الذي يفتر عن *Belcanto* وعن رقص جميل ميزته الكبرى قربه من افهام الجماهير : من هذه التواريخ المفردة روائع ويبر المسماة *Fretschtuty* عام ١٨٢١ ، و *Le muette de sorici* أحد آثار اوبرا ، ١٨٢٣ ، ومقطوعة « روبر العفريت » من تأليف ميبير بيير عام ١٨٣١ ، و« اليهودية » من وضع هاليقي عام ١٨٣٥ .

والمرحبة الرومنطيقية هي من نفس المعين والمصادر . فالعاطفة الجماعية تمتد الحركة والشعارات المثيرة وبكل ما يثير الحنان والشفقة . فالعاطفة الجماعية تجرد فيها كما يجد المؤلف نفسه ما ينفعها . فهاهو هوغو يباشر معركة هرتاني التي يكتب له فيها الفوز عام ١٨٣٥ ، كما ان مسرحيته « سقوط البورغراف » التي صدرت عام ١٨٤٣ جاءت تعلن للأ ان ساعات الرومنطيقية الكبرى قد ولت ومضت . من المفيد ان نلاحظ هنا ان في الوقت الذي تفقد فيه الاستدارة البيانية ، ما لها من سحر وقتنة ، كان الشعر الغنائي او الوجداني قد اعطى معظم روائعه الادبية هذا الفن الذي يفرغ المرآة الغنائية ، في القصيدة الفلسفية ، والذي عرف كيف يمازج بين المسارة والسرد الملحمي . فمنزلته من الادب منزلة الرسم من الفنون التشكيلية ، لا احد لصوره وصيفه واشكاله كما لا حد قط لموضوعاته ، ويعبر بصورة ذاتية او شخصية ، أكان ذلك تعبيراً عن المشاعر الدفينة او تعبيراً صادقاً عن فكرة او خاطرة وجدانية .

فالرومنطقي ، بما له من اسلوب بياني فخم يحول دون ابراز الحقيقة عنده ، بما لها من قوة ، سواء اراد تحلية الامور او تسويدها ، يستعمل بكل ما اوتي من قوة ، حتى ولو لم يكن شاعراً ، هذا الاسلوب التقني الجديد ، اعراباً عن سخريته وتهكمه . ففي الوقت الذي يتباح فيه لشارليه ولرافيه الترويج لشخصية « الجندي المؤمن » ولشخصية « العريف الصغير » ، سلستين نوتويل تذييق مؤلفات هوغو وغوتيه واسكندر دوامس وتحليتها بالصور والرسوم ، ولديكروا تحلية فوست لفوتيه ، عرفت الطباعة الحجرية ( الليثوغرافيا ) ان تؤمن لها ازدهار التصوير الهزلي .

ففي الوقت الذي اتاح فيه فن الفكاهة عند الانكليز خلال شخصية بكوريك لديكنز ، وجعله نموذجاً لا يقل شهرة بشيء عن شخصية روبر ماكيه ، كما ابدعت الفكاهة الاميركية شخصية نيكربكر لواشنطن ارون ، نرى بلزاك من تاحيته ، يضع امامنا ، شخصيات ذات مفارقات متعادلة متضاربة ، فيهوي بالسوط على عابدي المال ، كما نرى سانت لوف بمد حملة النقد المعاصر بالنقد

الدقيق الذي كان بمثابة مرآة تنعكس على صفحاتها ، كل المدرسة الرومنطيقية .

رومنطيقية رغبة الممول  
للتاريخ مدلول يعمل عميقاً في ربط الحاضر بالماضي . فقد سبق  
للقرون الثامن عشر ان وضع تفسيراً عقلانياً للتطور البشري  
دون ان يذكر بشيء المسألة التي طرحها بوسويه . فقد شدد كل من فيكو وهردر على هذه القوة  
التي توجه العالم ، حلولية هي عند الاول ، عضوية وخاصة بكل شعب ، عند الثاني ، اي ردة  
هجومية للاعقلانية<sup>(١)</sup> الى ان وقعت اذ ذاك الهزة العنيفة عام ١٧٨٩ التي استبدت بالفكر  
والمفكرين امثال يورك وجوزف دي مستر وبوتالد الذين تملحوا بدليل الديمومة ، حجة  
الكنايس والارستوقراطية . والتاريخ الذي يسير في ركاب العناية الربانية والسلطات المنوط  
بها امر المحافظة على الامن ، يتبنى هو نفسه فكرة الاستمرار والديمومة ، وبذلك ربط نفسه بهذه  
الاصول الرصينة .

وقد تكفلت المعرفة الواسعة والبحث عن العنصر الجمالي او الصورة الذهنية ، بالباقي . ليس  
من وجوب قط لرذل او التنكر لما جاء به اليونان واللاتين : فالنزعة الانسانية جاءت والحق  
يقال ، مثيرة ، مبهجة . ففي الحين الذي راح فيه نيبهور يكشف عما للتقليد الشمي الشفهي من  
قوة عند تيت ليف ، نرى الاعجاب بالهيلينية يثير الهمم ويحرك المشاعر . ومع ذلك فالحركة  
الاستشراقية التي طلست علينا ، والاعمال الوحشية المرعبة ، ونبش معالم الحضارة في كل من مصر  
وابران والهند ، كل ذلك وسع كثيراً من آفاق المعرفة البشرية ، حتى هذه النظريات الحديثة  
المتعلقة بالأصل او العرق الآري للشعوب الغربية ، هذه النظريات التي راودت الازدهان  
اذ ذاك ، لم تأت بأي فائدة للتراث الكلاسيكي لشعوب حوض البحر المتوسط .  
فالدروس التي استفدناها من آسيا وافريقيا اختبارات اكثر وشعوراً اعتمى بالتقاليد . أفلم ينزع  
ديلاكروا الى ان يرى في الاسلام تكملة للحضارة الهيلينية او حصيلة هذا القران الذي تم بين  
الشرق والغرب ؟

فالكشف العظيم هو الكشف من الاجيال الوسطى . وسار شليغل في اعقاب لسنغ عندما  
هتف قائلاً : « ليل الاجيال الوسطى ؟ ليكن ، انما هو دليل متلألئ بالنجوم الزواهر . انها  
لحقة عجيبة مدهشة ، كل ما فيها مشوق وأخاذ ، فاضلة ، ساذجة خصبة بالمعجزات والحوارق ،  
ليس اصغرها لعمرى هذه التقوى المسيحية المستبدة بالنفوس ، وعندما يروح شاتوبريان يتغنى  
في كتابه « نبوغ المسيحية » بعودة الايمان الى البلاد على يد ابن الثورة وجنديها ، يحقق هذا  
ككله بوصفه ارستوقراطياً محباً للجمال . اما هؤلاء الناصريون ، هؤلاء الرسامون ، الماخوذون  
بالجمال الديني ، فقد تبناوا الحياة الرهبانية . هم من المانيا هذه التي ينعتها ماكتوش بوصفه لها :  
« المتوهمة بصورة ميتافيزيقية » ، حيث لاقت الروح التقوية رواجاً عظيماً . وهذه الاقاصيص

(١) انظر تاريخ الحضارات العالم ، مجلد ٥ ص ٨٦ ( الطبعة العربية ) .

الاسطورية ، اقصيص البطولة ، كالمساحة السكندنافية والرواية البطولية الاسبانية المعروفة بـ *romancero* ، ولا سيما الالمانية منها ، وفوست وغيرها من هذه القصص الشعبي المعروف باسم *Maerchen* واغنية رولان ، لاقت او ستلاقي شهرة منقطعة النظير ، بحيث تكاثرت وانتشرت الى حد بعيد اقصيص ابوكريفا او المزيفة . وفي الوقت ذاته عرفت الروايات التاريخية ازدهاراً رائعاً . فقد أمدت ولدت سكوت بانتظام مدهش بأقصيص رسمت نهجاً خاصاً احتذوه في كل مكان وكان له اتباع ومريدون في كل قطر وصقع : روايات بطولة تبهر بألوانها الزاهية اظهرت ، على الاجمال ، احترامها للتقاليد والاعراف الشعبية . وهذا القصص للتاريخي ، امد الى هذا كله ، المسرح بمادة خصبة استلهمها من قبل كل من شكسبير ، وكالديرون ولوب ودي فيفا .

وقد كان هذا الجو وجد مؤات للمؤرخ الطلعة اذ جاءت القصة تستند الى الوثيقة التاريخية وتنهض على الدليل الاثري . فقامت على الاثر جمعيات علمية ، في كل مكان تقريباً ، تولت تصنيف النصوص وتحقيقتها ، وحاولت فك ما تحمل من رموز في خطوطها وردتها الى اصولها . من ذلك مثلا الجمعية الخاصة بدراسة التاريخ الالمانى التي رأت النور على يد المؤرخ شتاين عام ١٨١٩ ، ومدرسة القراطيس او معهد الوثائق الذي تأسس في باريس عام ١٨٢٢ ، وهذه الكشوف العلمية التي حققها غيزو . وعلى هذا الاساس وضع اوغسطين تييري وميشليه تاريخ الاجيال الوسطى بعد ان تفننا في التوفيق بين مراعاة اللون المحلي وبين التفاصيل الدقيقة ، محافظة منها على احترام المصادر ونصاعة التعبير .

والاجيال الوسطى هذه تبدت صورتها لكل واحد كما تبدت على صحيفة مرآته . فهي تمثل في نظر سيموندي عهد الاستقلال الذاتي للمدن ، كما رأى فيها فيلنوف بارجمونت عهد السلطة المسلسلة التي نفر منها سيموندي . ولم يلبث ان رأى فيها كل شعب صورة لما يرجو ولما يطمع اليه . فهذه الرومنطيقية الابداعية ذات المفعول الرجعي ألبسوها لباساً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً حتى وثورياً . فما من مكان قط استشرى فيه هوس الاصول التاريخية المتوسطة بين افراد الشعب كله مثل المانيا اذ راحوا فيها يستبدلون الـ *Aufklärung* بالروح القومية الموعودة نافرين من هذه الشعوب العقلانية ومن الروح التحررية البورجوازية . فمنذ عام ١٧٩٩ واجه نوفاليس هذه المعضلة الثنائية : اوروبا المسيحية ، فعلها باختيار او بتحقيق الامبراطورية المقدسة بشكل جديد تحت اشراف الكنيسة والخيرة ، الملازمة للطبيعة البشرية ، حتى اذ ما كاد يتوارى ، اشتد التيار بعده ، غنياً ، غالباً مطالباً باعادة الميرخية او الملكية الشرعية . ومع ان المدرسة الشعرية في انكلترا تطورت باكرأ ، رافعة لواء الثورة ومنادية بسلطان الحب ، فقد ترك ودسورث عليها طابع الروح المحافظة المهذبة ، كما كانت لذة سكوت الخاصة ان يبعث التجدد والحياة في بريطانيا العظمى التقليدية المحافظة في الصمم . من دعاة الشرعية ومؤيديها ، هوغو في دواوينه ولامرتقن في « تأملاته » اذ راح كلاماً بتفني ، عام ١٨٢٥ ويشيد عالياً

بتكريس شارل الماثر ، ويلزاك نفسه يتجه آنذاك نحو الشرعية . بعد عام ١٨٣٠ . ومع  
انهما من اقحاح الوطنيين الايطاليين ، راح منزوني يضع : « الاناشيد المقدسة » ، فاتحاً بذلك  
نقاشاً حاداً مع سيسموندتي حول الدور الذي لعبته الكنيسة في ايطاليا ، كما راح سلفيو باليكو  
يروي علينا بكلمات تتنزي بالروضح وروح الاستسلام المسيحي ، قصة اعتقاله . والكل  
يتفادى او يحاول ان يتفادى هذه البورجوازية الواقعة تحت تأثير عبودية المعجل الذهبي .

راحت المثالية الفلسفية تقدم هي الاخرى ، خدماتها لقضية  
ميغل واستبدادية الدولة  
الشرعية ، كما راح كل من غوتيه وكانت وفخت يستجيب  
عالياً للاتجاه الذي اتخذته الثورة الفرنسية . فقد بقي غوتيه ، على الاقل اميناً للشال الجمهوري  
كما راح فخت بدوره يرسم لنا نظريته عن الدولة معترفاً لها بحق الاكراه وحق الركون اليه .  
ومن هذه الثنائية التي قال بها كدنت والتي اعترف فيها بقدرة العقل على معرفة مظاهر الاشياء  
دون كنهها يفضي بنا الى القول بالأحدية الغائية ولو بصورة ذاتية .

واذ ذاك طلع علينا ميغل الذي راح يقول بمثالية مطلقة مناقضاً بذلك تعاليم القرن الثامن  
عشر . فعلاً بمنطق ديناميكي هو الديالكتيكية الجدلية ، فالافكار المتحركة توجد الواقع وتخلقه  
وقدفع بالكائن دوماً ليتجاوز باستمرار وضع وجوده . ولذا فالمطلق عنده هو وحده الذي له  
وجوده الخاص وينزع دوماً للتحيز بفضل فكرة الدولة المثلى الملكية الطابع من اساسها ، هذا  
الشكل السياسي الوحيد الذي باستطاعته وحده ، التوفيق بين الحرية والسلطة . اما الفرد هذه  
الفكرة المجردة التي لا قوام لها ولا كيان فلا وجود له قط بذاته . فالدولة هي تجسيد لله على  
الارض لها وحدها الحق بالسيادة المطلقة والاستئثار بها .

وبعد ان دعي ميغل عام ١٩١٩ للتدريس في جامعة برلين راح يثبت ان الصورة المثلى لهذه  
الدولة هي الدولة البروسيانية . فقد « اخذ هذا الفر الغي المتوجه بأنظاره نحو الماضي يبرر ، بطريقته  
الخاصة ، الشرعية التقليدية . وقد كان لا بد لنظريته هذه عملاً مبدأ رجوع الامور الى نقطة  
الانطلاق ، من ان تؤول الى راديكالية واضحة ، فقد انتصب في وجه الابداعية الرجعية ،  
هينغية محافظة او مترمته ، كما قام في وجه ابداعية مستقبلية ، هينغية ثورية .

وهذا الصراع العملاق الذي وضع وجهها لوجه ، هنا النظام  
عودة النظام في اوربا الى الشرعية  
الاوروبي القديم وامتداداته الاستعمارية ، وهناك القوى  
البورجوازية الجديدة والجمهورية ، استمر قائماً . فقد اتصل بشبه الجزيرة الايبيرية التي اعلنت  
الثورة وامتد الى اوربا نفسها حيث انصار الحرية ومؤيدوها استمروا ماضين في كفاحهم .  
فالانتصار الذي حققه للملك في ساحة القتال ذهب جزافاً كما ان قرارات مؤتمر فيينا بقيت  
حبراً على ورق وكلمات فارغة ، اذا لم يقم في اوربا نظام دائم يفرضه القائمون بالثورة الماكسية  
هو نظام ديني ملكي ارستوقراطي .

ان قيام شعور ديني رومنطقي لدليل على وجود بقية دينية .  
 فارتدادات فريدريك شليفيل وستولبرغ وهولر، واعتناق آل راتسبون  
 اليهود للكنائس ، واعتناق ساهل البروتستانتية ، يشير بوضوح لا يدع مجالاً للشك الى ما في  
 المسيحية من قوة جذب واغراء . فنوايدي مونستر ومونيخ لها روادها الكثيرون . ففي الوقت  
 الذي راح فيه هنتستبرغ المدافع الاكبر عن اللوثرية الاصلية ، يهاجم المذهب العقلي بعنف ،  
 دوت في جميع ارجاء فرنسا صرخة انذار واستنفار اطلقها كل من لامنيز في كتابه « محاولة  
 حول اللامبالاة في امور الدين » ، وجوزف دي مستر في كتابه الموسوم : « حول البابا » مشيدين  
 بالدور الذي يمكن للبابوية ان تلعبه في هذا المجال . ويحاول الاب بلميس ، سيراً منه على خطى  
 بوسويه ، الكشف عن « التغيرات » التي لحقت بالكنائس ، والملل الانجيلية . فاذا ما عاد  
 الكاثوليك ، ولو متأخراً ، الى الدراسات الكتابية التي تحلوا عنها فترة للأوساط البروتستانتية  
 والعقلانية ، فقد برزت الدعوة للتلمس وفي اوساط النخبة الفكرية ، بعودة بيوس السابع الى  
 روما وباعادة الرهنة اليسوعية الى الوجود ، ( كما ان الاب لاکوردير سيقوم بتجديد الرهنة  
 الدومنيكية في فرنسا ) . وقد تكاثرت عدة الرهبانيات التربوية والتأملية والحيوية ، ولا سيما  
 الجمعيات التي تعنى منها بشؤون المرأة . فنحن امام حركة عارمة من ازدهار الجمعيات الحيرية ،  
 والكتب الجيدة والدراسات القومية وجمعيات القديس يوسف للدفاع عن المسيحية . وبما هو  
 ابرز من هذا كله ، اعمال الرسائل الدينية التبشيرية التي نشطت لنشر المسيحية ، وحمل  
 الصليب الى البلدان التي لم تعرف شيئاً منه ولا عن المصلوب شيئاً ، كما انها اخذت توزع على  
 المؤمنين الاشياء التقوية وتقوم بالكراسة بالانجيل من مكان الى مكان آخر .

ومع تسليم الادارة الرومانية في روما بفوائد الادارة العلمانية فقد اضطرت للخضوع لهذا  
 التيار الذي يؤيده المترتمون الذين فازوا باقرار التشريع القديم ، والنزول عند « اصلاحات  
 البارونات » ، وديوان التفتيش والى توصيات « مجمع الايمان » الذين نجحوا ، في مجمع الكرادلة عام  
 ١٨٢٣ ، وانتخبوا عام ١٨٣٠ للكرسي الرسولي ، احد ابناء الرهنة « الكاملولية » المعروف  
 بتزيمته في امور الدين وتقسفه ، هو البابا غريغوريوس الرابع عشر . فبعد ان كرر حرم  
 المذاهب الفلسفية والجمعيات السرية ، فلم يتورع قط في توجيه اللوم الى رؤساء الحكومات لما هم  
 عليه من فتور ديني ، طالباً اليهم مؤازرتهم بحيث يتعاون التاج والهيكل . الا ان المفاوضات  
 التي يوشح بها لعقد معاهدة دينية ( كنيكورداتو ) بين الكرسي الرسولي والدول الاخرى ،  
 هذه المفاوضات التي تتسم دوماً بالدقة وتحف بها المخاطر والصعوبات لم تنهه الى ما يرضي مطالب  
 الكرسي الرسولي .

فالكرسي الرسولي يضع نفسه في موضع حرج عندما يطالب للكنيسة الكاثوليكية  
 بامتيازات ومنافع بعد ان يرفض منح مثلها للكنائس الاخرى . فهو يتجاوز عن السماح لليهود

بإقامة حي لهم في روما ، كما يتجاوز عن تركهم تحت رحمة الدول عرضة للاضطهاد في دول أوروبا الوسطى ( مع العلم ان الكاثوليك لا يتمتعون بحرية أكبر في روسيا ) ، في الوقت الذي راح فيه يطالب سويسرا والبلاد الواطية وبروسيا بالمزيد من الحرية للكاثوليك . وباسم الكاثوليك يمارض بشدة قانون الشهادة في انكلترا كما يمارض بشدة امتيازات الكنيسة الانكليكانية في ايرلندا . وبفضل هذا الجو من التساهل استطاع اوكنيل والرابطة الكاثوليكية ان يحققا معاً الانتصار الذي حققاه عام ١٨٢٦ ، مسجلين بذلك المرحلة الاولى من مراحل سحب اعتراف الدولة بالكنيسة ، كما ان الكاثوليك الاحرار في فرنسا طلبوا من الحكومة ان تتقيد بأحكام دستور عام ١٧٨٩ الخاص بحرية التعليم فيها . وما عسانا ان نقول ، من جهة اخرى عن هؤلاء المؤمنين والكنهنة الذين راحوا ، في كل من ايطاليا وكرواتيا وهنغاريا والامارات الرومانية يسهمون سراً وعلانية ، بالحركات التحررية التي تقوم بها الاقليات في هذه المناطق في سعيها نحو الحرية . أفلم ينمت وزير الدولة «الباني» ، قبيل اندلاع الثورة البلجيكية «مرعب» التحالف الذي تم بين الكاثوليك والاحرار ضد الملك غلوم الاول البروتستانتي ! ومع ذلك فهذه المواقف التي تنطلق من حناجر الجماهير التي تجتمعها وحدة العقيدة او الوحدة القومية والحرية ، قبيل عام ١٨٤٨ ، موجهة ضد البابا بيوس التاسع أتاحت لترنيخ ان يقول فيها : « توقعت كل شيء ما عدا قيام بابا متحرر » . كل ذلك سراب غرار يمكن تبريره .

ففي الوقت الذي تطل فيه على المجتمعات الكلفينية في فرنسا « يقظة » انجيلية وتكتل في بروسيا الكنائس الوثيرة والاصلاحية ، يقترح فيه المفكر السويسري فينه الكبير على أوروبا ، الاحتذاء بانولايات المتحدة الاميركية . وقد لقي اقتراحه استجابة لدى غيزو ولدى بعض الفئات في فرنسا وجنيف ولا سيما في اسكتلندا . وكان المسيحيان النيبلان مونتلبير وتوكفيل معجبين جداً بالديموقراطية الاميركية حيث اخذت جميع الطوائف الدينية تتنافس فيما بينها بعد ان نعمت البلاد بفصل الدين عن الدولة . وفي انكلترا حيث راح جماعة يطالبون في اثر ولبرفورس واسلي وتوماس ارنولد مع اتباع الكنيسة العربية الاخذ باصلاحات تحررية ، كما قام من جهة ثانية فريق مناهض للكنيسة العليا عرفوا باسم « المتسامحين » كانوا من غلاة الطائفة الطقسية يطالبون برفع ولاية الدولة للكنيسة الرسمية ، فانتهوا في تطورهم الديني عند نهج بيوزي الذي لم يكتب لطريقته الاكتمال ، والبعض منهم عند نهج نيومان والرجوع بالتالي الى الكاثولكية . ان روح الكفاح الذي جاشت بها بعض الطوائف الدينية المنشقة ( لا سيما ملة المتوديست منها ) تبلورت عن عدائها العنيف للبابوية ، هذا العداء الذي لم يكن ليزه شدة الا النفرة من المذهب اللاعقلاني .

وهكذا بالنسبة لوضعها الداخلي ، وفي عجزها عن الصمود في وجه الاندفاع للمطالبة بالحرية لم تستطع المسيحية في أوروبا ان تؤلف لمدة طويلة ، ضماناً للنظام الذي يدعو للمحافظة على النهج .

أفلم يخطر ، مع ذلك ، للقيصر اسكندر الاول ان يؤمن الوحدة بين السلام الاوروبي عن طريق المسيحيين عندما راح يقترح على الحلفاء ، وضع الحلف المقدس تحت حماية شرعية النظام الملكي « الثالث الاقدس غير المنفصل » ؟ وماذا هم ان تأتي الموافقة ، كما أنت المبادرة من صفوف بعض المتصوفين او ادعياء التقوى ، وان يكون غوته رأى في هذا الاقتراح « خير محاولة وامثلها جرت لخير البشرية جماء » هذه الحركة «الطنانة الجوفاء» ، كما يصفها مترنيخ ، والتي لم يرَ فيها سياسيو تلك الحقبة ، سوى المقاصد البعيدة وتحقيق السيطرة التي راودت القيصر ، من خلال صليبية اوروبية جديدة ضد الاتراك .

والحال ، ان العدو الذي يجب وضعه تحت الانظار هو « تنين الثورة » . ان الخير الاكبر الذي حلم ميشاق عام ١٨١٤ بتحقيقه ، هو « تأمين الراحة والهدوء لاوروبا عن طريق اقامة توازن عادل بين دولها » ، اذ كان المنتصرون عاجزين كما انهم غير راغبين في اعادة اوروبا الى حدودها الجغرافية التي كانت لها عام ١٧٨٩ ، فالحق العام هو نتيجة موافقتهم ، وبعبارة اخرى هو هذه الشرعية التي تولف بالنسبة للنظام القديم ، ما تمثله طبقة الاشراف المستحدثة بالنسبة لطبقة النبلاء الاصلية . فالقضية لا تخرج عن كونها قضية اتفاق بين الدول المنتصرة الاربع التي انضمت اليها فرنسا البورجوازية لتؤمن معاً النظام الحقيقي ، اي توازناً يأتي في صالح هذه « السلطة الخماسية الادبية » .

وسلطات هذا المدير كتوار الاوروبي تبقى غامضة ، مبهمه ، ولذا كان لا بد من التشاور وتبادل الرأي فيما بينها كما دعت الحاجة الى ذلك . وهكذا اصبح مترنيخ رجل المؤتمرات اذ راح من مؤتمر فيينا الى مؤتمر فيرنا ثم الى مؤتمر مونيخ - غراتز يحاول توطيد اسس الروثام السائد بين الملوك .

الا ان هذه المؤتمرات تبقى دونما جدوي تذكر اذ لم يكن هنالك من قوة بوليسية او حربية تعضدها او تسندها . وبالفعل فقد كان الكونت سدلتسكي بمثابة كلب نيوفاوندلند الحارس للامبراطورية النمساوية ، بعد ان عهدت اليه ، عام ١٨١٧ مهام دقيقة قام بمسؤولياتها مدة ثلاثين سنة اولته حق الاشراف المزعج على المانيا برمتها وعلى ايطاليا متقصياً او اللاجئين السياسيين ومتعقياً لحركاتهم وسكناتهم في ارض غربتهم في كل من سويسرا وفرنسا . فقد عرفت هذه البلدان نظاماً من الاستثناءات القضائية منها هذه المحاكم التي قامت في عهد لويس الثامن عشر وفي عهد اعادة الشرعية في فرنسا للمرة الثانية والمعروفة بـ « المجلس العدلي » التي لا تقبل احكامها اية مراجعة امام اي قضاء ، والمحاكم الاستثنائية التي قامت في كل من نابولي ومودينا وقورينو ، في عقب الثورات التي طلعت على تلك المدن سنة ١٨٢٠ - ١٨٢١ ، وعقوبة الشنق في اسبانيا اثناء الحركة الرجعية التي شجرت عام ١٨٢٣ - ١٨٢٤ . فالشرطة البوليسية والمراقبة تحد من حرية الكلام وتحكم افواه الجامعات والصحافة ، وتجور على المسرح . ففي فرنسا بين

١٨١٥ - ١٨٣٠ ، ما من مسرحية تمثلت قبل ان يتم فحصها بالتدقيق فيها جملة جملة ، ثم راح النظام الملكي الجديد المعلن في تموز يفرض غرامة مالية على المتجاوزين لقرارات الحكومة . وقد صدر عام ١٨٣٧ امر في ميلانو يمنع تمثيل رواية بوليوكت لكورتاني ، مع انه جرى استبدال كلمة « المسيحيين » فيها باتباع الزرادشتية . وانكلترا نفسها خضعت ، ولو لأمد وجيز لنظام خاص عرف عندهم بنظام القوانين الستة هذه القوانين التي اقرتها ، عام ١٨١٨ ، حكومة المحافظين في عهد ليفربول ، اضيف الى هذا كله التدخل المسلح من قبيل كل من فرنسا في اسبانيا ، والنمسا في ايطاليا ، وروسيا في بولونيا .

وهذا النظام الملكي والحفاظة عليه يتوقف الى حد بعيد ، على الموقف السلبي المفروض بالقوة او المقبول به من سكان الريف ، مع الملاحظة هنا متانة موقف الحكومات المحافظة في هذه البلدان حيث تسيطر الملكية المقاربية الضخمة . ففي الوقت الذي راح فيه القانوني الالماني الشهير سافيني يؤكد حق العرف ويعليه على الحق الطبيعي والقائلون بأن الملكية حق إلهي هي ، ومعظمهم من النبلاء ويشيدون عالياً بفضائل السلم الاجتماعي المسلسل ، تولى طبقة الاشراف ولاءها للملك : فكلما الحزبين : الاحرار والمحافظين ، يقفان موقفاً عدائياً من السلطة الشخصية ، في بريطانيا العظمى . وفي فرنسا يقف المتطرفون موقف المدافعين عن حقوق المؤسسات التمثيلية ويطنون انفسهم ملكيين اكثر من الملك . وفي اسبانيا الوسطى يستمر الخنوف على اشده بين البيروقراطية الملكية وبين المجالس التمثيلية . وفي كل مكان يبقى صامداً في موقفه لا يتزحزح ، من يتمتع بامتيازات مالية او قضائية ، او عسكرية . ولعل ما هو افضل من ذلك ، هنالك عدد من كبار النبلاء يتبجحون بالحربة ويؤيدون مطالب القوميات . مما لا شك فيه قط ان الخوف من الاضطرابات والاستمساك بمرى السلام حملا البورجوازية على تبني اعادة الشرعية والوقوف الى جانبها . فاذا لم يكن للدول من حليف افضل غير المصرف ( ارباب المال ) فالهم الاكبر الذي يقض مضجع الحكومات الدستورية هو ان يُعترف بشرعيتها . فالملك لويس فيليب يتمسك باصرار بالتأييد التقليدي . وبفضل ماله من محمد كريم ، استطاع ليوبولد ساكس كوبورج ان يدخل بارتياح مصف الاسرة المالكة .

كان من العسير على القوى الاجتماعية المحافظة ان تتغلب على هذه الخصومات او العداوات المستعصية التي كثيراً ما كانت الباعث الحقيقي لهذا الصراع الذي كثيراً ما يقوم بين الدول . فنظام الحكومات الخمس يفرضي بأصحابها الى الجمود الموصول بينما سياسة الوضع القائم التي تترسما فينا وارتضتها قاعدة لها ، وجدت في وجهها الى جانب هذه الاطماع التي جاشت بها نفوس بعض الامراء ، النزعات القومية التي لا تزال تتفاعل وتتطور بالرغم من كل شيء .

## الفصل السادس

### الحركات القومية والقضية العمالية في أوروبا الروح التحريرية والأبداعية المتفائلة

جاء في كتاب بيوناروتي : « مؤامرة في سبيل المساواة »  
« ليست الحرية سوى القدرة المحدودة على التملك »  
( مؤامرة في سبيل المساواة ، المعرفة بمؤامرة  
بابوف ، ١٨٢٨ ) .

الاحرار بقي الحزب الثوري حتى عام ١٨٣٠ ، كما يؤكد كورنو ، يشد بناواجهه مستمسكاً  
بنظريات وافكار القرن الثامن عشر ، كما ان توكفيل يؤكد هو الآخر ، من جانبه :  
بأن تاريخنا ( تاريخ فرنسا ) بين ١٧٨٩ - ١٨٣٠ ، اذا ما نظرنا اليه عن بُعد ، نظرة شاملة ،  
ليس سوى مشهد صراع عنيف قائم بين النظام القديم بما له من تقاليد وذكريات ، وآمال  
ورجالات ، يتمنون خير تمثيل ، في طبقة الارستوقراطية ، وبين فرنسا الجديدة بقيادة الطبقة  
الوسطى . وجماعة الثورة هذه ليست سوى طبقة الاحرار . وقد حدد غيزو الطبقة الوسطى :  
« هذه الطبقة التي لا يمشي افرادها على المراتب والاجر ، والتي ينبض الفكر عندها وتميش  
الحياة فيها بالحرية ويتخلل نشاطها بعض الفراغ ، والتي تستطيع ان تخصص جانباً ملحوظاً من  
وقتها لبحث القضايا العامة ، اي هذه الطبقة التي تجد نفسها على بعد متساو بين الامتيازات  
الماضية ، وبين هذه الطبقة المنصرفة للعمل اليدوي » .

وهذه الروح المتحررة ، قوام الشرعية وعدة الشرعية الدينية على الاخص ، تقترح نظاماً هو  
خير الانظمة وافضلها ، والهدف الاسمي لحقبة تاريخية طويلة من حقب التاريخ امتدت الف سنة ،  
هو الملكية الدستورية التي يوجهها اعيان البلاد : الذين جرى انتخابهم من بين المواطنين الذين تتوفر لهم  
عن طريق الثروة التي تمت لهم ، ونعمة التعليم التي صقلت نفوسهم ، الامكانيات السياسية . فالجمهورية  
التي رسخ دعائمها صاحب الفضل واشنطون ، لها بالطبع المعجبون بها والقادرون لفضلها . غير

ان معظم اصحاب الفكر الحر يفضلون عليها نظام الملكية : « فلولم يكن من نظام ملكي ، يقول كازيمير بيرييه ، لهبط النظام الى درك الديمقراطية ، وبذلك تكون البورجوازية قد اذاعت سيادتها . والحال يجب ان تتمتع البورجوازية بهذه السيادة لاسباب مبدئية ، لأنها أكفأ الجميع » .

وإذا كان بروز البورجوازية له ما يبرره ويزكيه ، فهي تعتبر نفسها والحالة هذه ، تتمتع بصورة طبيعية بالحرية لان لديها من الاستنارة ما يجعلها تدرك جيداً ان سعادة الجنس البشري تتوقف قبل كل شيء ، على التمتع بالحرية الفردية التي تأتلف مع تطور الجسم البشري ويؤمن سلامة المقتنيات . ولهذا الاسباب ، فالأفضل هو النظام الانتخابي او التمثيلي القائم على اساس دافعي الضرائب والصالح للوقوف معاً في وجه الفتن الجماهيرية والثورة المعاكسة .

فالروح التحريرية حتى الرومانية منها ، تشجب الملكية القائمة على حق الهي وترفض كذلك التسليم بأي سلطة للاديان والكنائس وستجردها مما تتمسك به من حقوق الاحوال الشخصية ، وتملن الزواج ولا تقبل بمخدمات الكاهن او خادم الدين في التعليم الا للعرض ادبي واخلاقي . وهذا العداء للكثيروس ، يقابله لاسيما في البلدان الكاثوليكية الدعاوة الدينية . فبين ١٨١٧ - ١٨٢٩ ، اصدرت دور النشر ٣١٦٠٠٠٠ نسخة من مؤلفات فولتير ، و ٢٤٠٠٠٠٠ نسخة من مؤلفات روسو . وقد ادت هذه المنافسة الحادة في قضايا الدين ، والذهاب أو الدعاية المضادة لها ، الى حروب اهلية ، في كل من سويسرا والدول الايبيرية .

والى هذا ، فمن آدم سميت وجان بابست رأي الى جون ستيوارت ملل ، راح علم الاقتصاد السياسي يعد ان انتسب الى الكلاسيكية ، يضع القواعد الذهبية التي تنهض عليها المصلحة الشخصية القائمة على تهم صحيح للامور والاضاع ، وعلى المنافسة الحرة . وهذا يعني حتماً الاقتصاد الحر الا فيما يتعلق بمصالح الدولة التي تتمزج بمصالح البورجوازية .

من مفهوم الحرية والصفات المعقودة عليها ، القدرة على إثارة الحركة الرومنطقية والفوميات وتحريك الشعور والهالها . فيبر انجيه يجعلها ، في فرنسا عروس قصائده واغانيه الشعبية ، وهكذا سكريب في مفكراته واوبرير في موسيقاه . ففي صفوفها وعداد الناهضين بها ، نرى الحداة المتغنين بها ورجال الاقتصاد الى جانب العاملين في الدعوة لها والفلاسفة والمؤرخين والمناضلين حيا لها . فهي تتمتع ، الى حد بعيد ، على اصوات الناخبين في الانتخابات العامة واطراف الجمعيات السرية واطراف الثوار والمحاربين في الشوارع . ففي وضع من هذا النوع الموصوف ، التحررية انما تعني الكفاح ضد السلطة الشخصية قارة ، وطوراً الصمود في وجه الاجنبي الدخيل ، هذا الصمود الذي كثيراً ما يصطبغ بالمطالب الوطنية او القومية .

فالثورات الاميركية والفرنسية كانت في الاساس ردات فعل شعبية ، في وجه الحق الملكي

الأمي القديم . وهل يصلح لمعري التلويح وحده بحقوقي الإنسان مبرراً لهذه الرغبة الجماعية التي تهيب بالأمم الى النهوض بعد ان يمحش في عروقها الحياة ؟ فيكويح هذه القوة في الكون ، في الأمة الـ *Volksgeist* عند هرذر ، اما فخت فيشدد من جهته على الـ *Urvolk* بينا يراها هيتل في الفكرة ذاتها التي يعمل التاريخ على تحقيقها . وما عسافا ان نصف به هذه المؤازرة المؤاتية تشد ازر الحركة اتفاقاً يقدمها احدم هو شارل البير فريسة الاوهام والهواجس والظنون ، هذا التلميذ الاتم لجوزف دي مستر ، او يتبرع بها آخر من صف فريدريك غليوم الرابع ، هذا الفنان السقيم المزمو بالامبراطورية المقدسة ؟

وال هذا ، فمها كان من سحر الفتوحات الفرنسية التي لا يمكن لمؤرخ ، مهما اعماه التعصب وضيق الصدر ان يتجاهلها ، ومن هذا الاثر المدوري الذي تركته في النفوس والقلوب الالجماد التي سجلهم الامبراطور الكبير ، هذه الالجماد الآخذة ذكرياتها بالانتشار والذوبوع ، فلا مجال لنكران عنصر المفاجأة - العنصر الاسطوري ، في التاريخ بحيث لا يمكن للمؤرخ ان يجهل قط الاثر العظيم الذي تركه التوسع الفرنسي في القارة ، فساعد على بعث المطالب الوطنية المتعددة بين الشعوب التي وقعت ضمن هذا الفتح . ففرنسا لا تزال ، حتى في سنة ١٨٣٠ ، تعطي اشارة الانطلاق والتقدم الى الامام . الا ان بيكر يضع عام ١٨٤٠ في وجه النشيد الوطني الفرنسي « المرسلياز » ، النشيد الالمانى *Wacht am Rhein* واذا بنشيد هوفمان دي فالمرسلين : « المانيا فوق الجميع » يدوي عالياً مطالباً بالمانيا واحدة موحدة :

من المرز الى النيمن

من الاديغ الى البلت

فمن هذا الريفي السلافي الذي يشدو متغنياً ويرقص مبرراً عن تعلقه الشديد بهذا الماضي المجيد ، الى هذا العالم الالمانى الذي يكتشف بقبضة ويفهرس ويفسر ويشرح بشغف هذه النصوص والوثائق التي تشهد عالياً بخلود ثقافته الوطنية ، تم عمل عظيم ساعد كثيراً ، شيئاً فشيئاً ، على ابراز سمات ارض هذه الالجماعات التي تجيش في صدورنا الرغبة في الظهور والتجلي وعلى اثبات ما أوتيت من نشاط زاهر وما فيها من العضلات المقتولة . وهذه المطالب الوطنية تتجند في سبيل تحقيقها اجيل متعاقبة من الكفاءات والطاقات المشحونة المتعددة الالوان ، فتوحى الشمر وتحرك الالطماع السياسية وتسخر الموسيقى ، وتجنبد الغناء ، والرسم ، والتصوير والنقش والحفر ، وتستغل القانون والاقتصاد السياسي . وكل شعب من هذه الشعوب يهم بلبلاء ويفني على هواه .

فالهورى او الفرض قلما يعتمل في قلب هذه الشعوب التي لريكن لديها من سبب يجهلها على التذمر من هذه القرارات التي اتخذت عام ١٨١٥ . فالكبرياء التي يجهل جون بول ( انكلترا ) يتبه عجباً وهو المعروف بكرمه لكل ما هو فرنسي ، لا قبل لها بهذه المطالب التي تملن عنها

ايرلندا الفتاة ، كما ان السويد لا يمكن ان تخضع او ان تتقبل اي فكرة ترمي لنسخ المشاركة بينها وبين الترويج ، والدانمارك ليست على استعداد للاصفاء الى اي مطلب الماني يرمي لاسترداد مقاطعتي شلسويغ وهولشتاين . ولم تكن هولندا احسن استعداداً للتسلم بانفصال بلجيكا عنها . وايطاليا تتحرك وتور جنباتها تحت تأثير الحركة الانتفاضية التحررية التي اطلقتها جمعية الفحاميين السرية . الا ان قيام الدولة البابوية عليها جعلتها تواجه مشكلة وجدان ، فراحت الرومنطيقية القومية تبث في شبه الجزيرة « *Italia fara da se* » ايطاليا فخورة بذاتها . فخورة لمعري الا ان لا اثر لها ولا شأن ، وكثيراً ما أطل عليها النهار بفجر اليم . والحركة الالمانية المتأرجحة بين بروسيا والنمسا وعدد من الامراء من الصف الثاني ، والتي تتقاذفها البروتستانتية والكاثوليكية والمتعرجة بين الاتحاد الجرمكي والسوق النمساوية ، والشعبة بروح التقليدية القضائية تحلم بتحويل هذا الـ *Bund* العاجز ، المستضعف الى راينج تجهل تماماً ما اذا كان سيأتي على نطاق المانيا العظمى او المانيا الصغرى . واطل البعث السلافي على العالم على اثر اتصاله بالعلم الالمانى ، كحركة رجعية قامت في وجه الروح الالمانية المستبطرة ، رافعاً لوائى العلم والفن ، مستعيناً على تحقيق اغراضه الوطنية . بالفيلولوجيا نارة ، والشعر طوراً ، هذا الشعر الذي يرقص على انغام موسيقى جياشة . فليس افضل من شوبين على لعب دور السفير المتجول الذي يبعث الاسى ايما حل ، وينشر الشجى في قلب شعب خذلت اقداره فتمس . الا ان وقوع القوميات السلافية في اوربا الوسطى تحت سيطرة عدد من الدول القومية جعلها في حيرة من امرها لا تعرف ما اذا كانت تستجيب للدعوة الصوفلية : قيصرية كانت ام ثورية ، او انها تنضم تحت جناح شقيقتهم الكبرى روسيا التي تفتق منها الببال وفتش الحاطر .

واوربا الفتاة هذه ، سواء رهبوا امرها او رغبوا فيها ، ذات الملامح القامضة تستبد بقلوب السياسيين ، وتشغل بال الدبلوماسيين ، فتتفرز الادب وتروحي الفنون . فقد بذلت دماً غالباً ذكياً من هذه الاضاحي والشهداء تقدمهم قرابين على هيكل الفداء ، وقام من بينها الابطال يناضلون ويكافحون في سبيل الرؤى الحلوة والاحلام المعسولة ، فنزح بنوها بالألوف . وقد احسنت باريس وقادتهم . فما هو متشافتش يغبنا اعجاب بولونيا ويصف لنا اخلاق وعادات واعراف بولونيا هذه ، المضطهدة والمهبطة الجناح والتي لا تُقلب مع ذلك ولا تُقهر . وهامو هابن حفي بهذه الصداقة والضيافة بعد ان وفرتها له المدينة المضيافة غيب ان تقهمتها واكنهت سره ، هذا الانسان الثقيف الذي تخيفه غرائز ما وراء الرين الحربية ، واخوة « حلف الشعوب المقدس » ، الذي يحمي بير انجيه طلوعه ، والذي يحتفظ فيه كل من كينه وميشليه لالمانيا هردير بمرکز ممتاز . يا لها من فكرة جبارة !

من لا يعلق قلبه وغقله بحب هذه الامة الكبيرة كما يتصورها ميشليه ويشيد بها ؟ نموذجي ، مثالي ، على كل حال ، كتابه الضخم « تاريخ فرنسا » الذي انتهى من وضعه ، بطله الاول

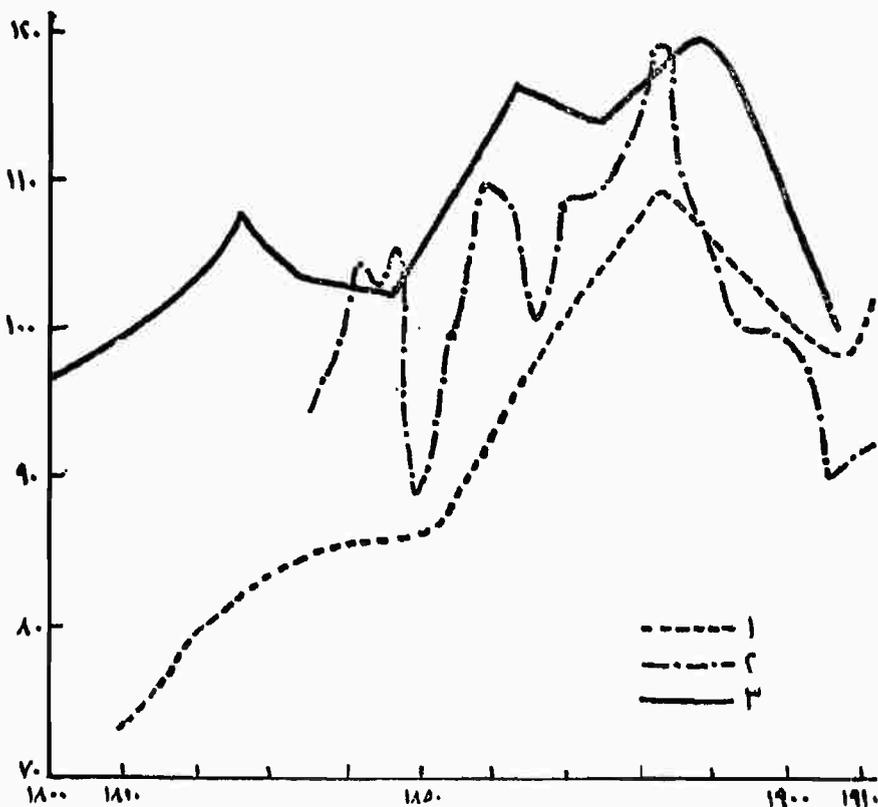
والأخير هو الشعب الفرنسي ، وليس غير الشعب الفرنسي بنزواته وغضبه ، بأفراحه وأزواجه بأحزانه ومباهجه ، هذا الشعب المجاهد الصابر ، الحبيب الى قلوب ابنائه .

اخذ البعض يتساءل عما اذا كان الوطن يعير اي انتباه لهؤلاء  
الذين يعملون في تحصيل أودم على سواعدم وقوام البدنية .  
فالريف لا يزال يحتضن عدداً كبيراً من اصحاب الحرف الصغيرة  
الذي ليس بوسعهم ان يستغني عنهم فحسب ، بل انه في الريف ايضاً اشياء كثيرة تُصنَّع فيه  
لها أدواتها وعدتها يقتضي لها الكثير من الوقت والعناء والمراحم الطويل لتدر على صاحبها دخلاً  
متواضعاً يدخل المسرة الى نفسه ويعتبره مسعفاً في تحمل اعباء الحياة . ومن الامور التي استأثرت  
بالانتباه والملاحظة وضع عمال النسيج ، هؤلاء العمال الذين يعملون معزولين ، فرادى في القرى  
والدساكر ، وضع يأتي دون وضع العمال في المدن المتمركزين في المصانع والعمال ، يخلدوت  
التقاليد التي سجلتها مصنوعاتهم الفنية من الابنوسيات والبروزيات والخزفيات والزجاجيات  
والمنقرشات فبرزوا نخبة مختارة من رجال الفن والصنعة . وهذا العامل ليس أسوأ وضعاً من  
وضع زميله او رفيقه عامل النسيج في انكلترا وفي مقاطعات الفلاندر او رينانيا او سيليزيا .  
الا اننا نرى في بعض الاوساط التي يتركز حولها العمال ، في المناجم مثلاً او في مصانع حياكة  
الاجواخ او معامل صناعة الحديد ان العامل الذي يتناول اجره من صاحب المعمل تقلقه مزاحمة  
الآلة له وتزيد من اليد العاملة بكثرة . ويلاحظ احد علماء الاقتصاد والاحرار هو ادولف  
بلانكي ، عام ١٨٤٨ « ان الصناعة اخذت تتمركز حول معامل ضخمة هي اشبه ما تكون  
بمقشلات او سرايات او اديار ، يتكسد العمال فيها بالملثات ، وحياناً بالألوف ، يعملون في  
مختبرات يصرد فيها النور والهواء تصريداً ، يرتبط فيها العمل بالآلة ، فيبقى مثلها ، عرضة  
للحادثان ولتقلبات المرض والطلب » .

فمع تباين ظروف العيش تبايناً ملحوظاً بين بلد وبلد ، وبين حرفة وحرفة ومهنة ومهنة ،  
فمن الثابت على العموم هو ان هذه الظروف لم يطرأ عليها أي تحسن يذكر في القسم الأول من  
هذا القرن ، بينما تكاليف العيش السنوية لدى الاسرة العاملة في فرنسا مثلاً كانت دوماً بارتفاع  
مطرده الى عام ١٨٢٥ وما تكاد تنتهي إلى اقرار حتى تأخذ بالهبوط فيها بعد<sup>(١)</sup> . فمعدل كلفة  
الحياة يرتفع اكثر بكثير من معدل الاجر الحقيقي الذي يدفع للعامل ، فمرتب عامل المنجم  
الذي كان ١٠٠ عام ١٨٩٢ ، كان ٣٦ عام ١٨٠٥ ، و ٤٢ عام ١٨٣٠ و ٤٩ عام ١٨٥٠ . وقد  
حدث هبوط في قطاع النسيج لا يمكن تجاهله او نكرانه . فمن ٨٠ عام ١٨٠٠ هبط الى ٦٥  
عام ١٨٢٠ ، والى ٤٠ عام ١٨٢٧ ، والى ٤٥ عام ١٨٥٠ . والأدلة كثيرة تشهد غالباً على ما في  
هذا القطاع من تفاوت وتناقض ومفارقات . فالعامل في مصانع كروس - روس في مدينة

(١) راجع الكشوف البيانية المثبتة في الصفحات ( ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ) .

ليون الذي يعمل في صناعة الحرير ، هبط اجراء الى النصف في هذه الازمة - ازمة الهبوط - التي وقعت بين ١٨٢٤ - ١٨٣٠ . فذينة المناديل في مدينة روان ، يتراوح ثمنها ، حسب

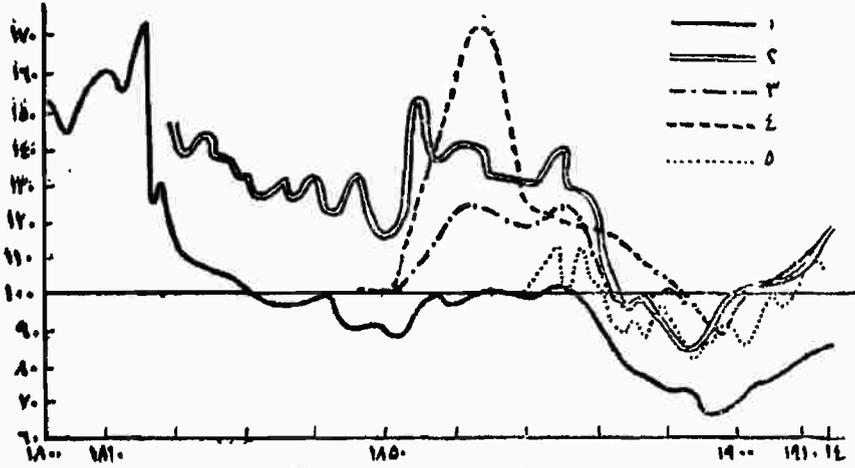


شكل ٣ - نفقات عائلة عاملة في فرنسا

١ - عائلة بدون اولاد - ٢ - عائلة من ٩ اشخاص في باريس - ٣ - عائلة من ٤ اشخاص ( مأخوذ من الاحصاء العام في فرنسا . والدليل ١٠٠ وضع على اساس سنة ١٩٠٥ للعائلة الاولى ، وعلى اساس سنوات ١٨٩٥ - ١٩٠٠ للعائلة الثانية ، وعلى اساس سنة ١٩٠٨ للعائلة الثالثة .

عرض المنديل من ٥ - ٣٠ فرنكاً ، عام ١٨١٥ ، بينما هبط ثمنها الى سعر يتراوح بين فرنك ونصف و ٤ فرنكات ونصف عام ١٨٣٠ . اما في انكلترا ، فعامل النسيج الذي يعمل في بيته ، كان ربحه في الاسبوع ، عام ١٨٤٠ يتراوح بين ٧-٩ شلن بينما بلغ ربحه ٣٠ شلناً حوالي ١٨٣٠ . والرقم القياسي عند سورربيك يشير الى هبوط في هذه الحقبة ، في اسعار البضائع والسلع . فالرقم القياسي هو ٩٣ لفترة ما بين ١٨٣٨ - ١٨٤٧ ، بينما كان ١١١ في السنوات بين ١٨١٨ -

١٨٢٧، فكان باستطاعة العامل المذكور ان يحصل على الكمية نفسها من دقيق الترييد والمصيدة، بينما يحصل على نصف هذه الكمية من دقيق القمح ومن الزبدة . اما اللحم ، اما الجملة فلا اثر لها على مائدته .

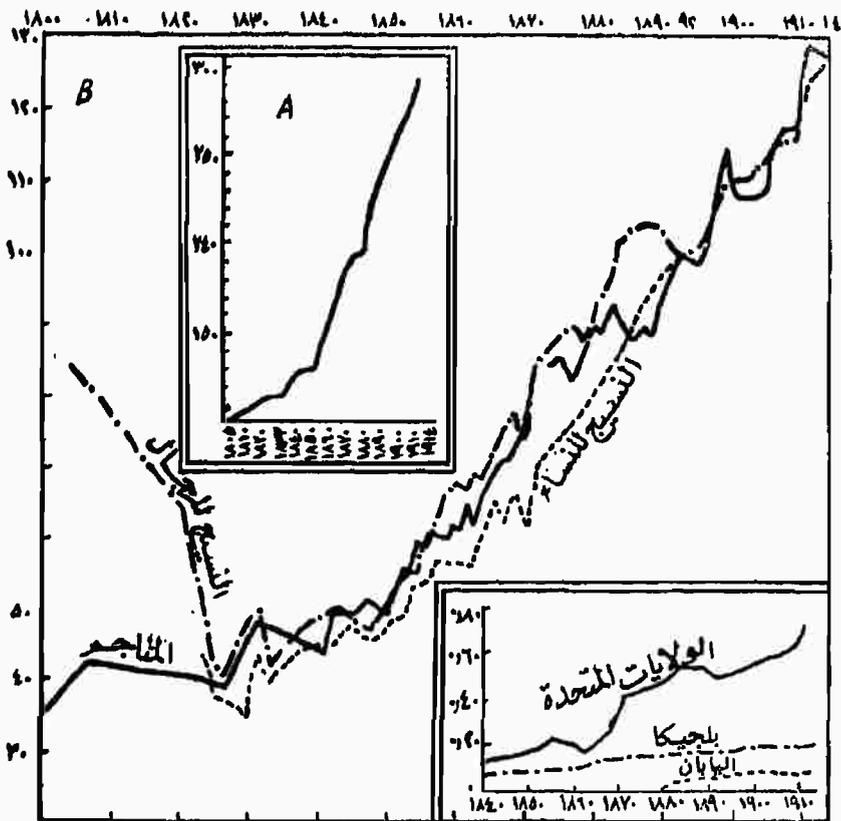


شكل ٤ - حركة الاسعار في القرن التاسع عشر

- ١ - وفقاً لدليل ملبرتنغ وسوربيك : سعر الجملة البريطاني ( معدل ١٠٠ : ١٨٦٦ - ٧٧ ) .
- ٢ - سعر الجملة الفرنسي وفقاً للاحصاء العام في فرنسا ( معدل ١٠٠ : ١٩٠٠ - ١٩٠١ ) .
- ٣ - وفقاً لمعدل ستانلي جونز : الاسعار البريطانية ( معدل ١٠٠ : ١٨٤٥ - ١٨٥٠ ) .
- ٤ - وفقاً لجداول الايكونوميست : الاسعار البريطانية ( معدل ١٠٠ : ١٨٤٥ - ١٨٥٠ ) .
- ٥ - اسعار الجملة الايطالية : وفقاً لجداول فرساتي : الانتاج في ايطاليا ( معدل ١٠٠ : ١٨٧٠ ) .

حري بالملاحظة هنا هذا العدد من المطبوعات التي اخذت تطل علينا منذ عام ١٨٣٠ واصفة البؤس الذي تتردى فيه الطبقة الكادحة . ان تحديد الحياة عند العامل في مدينة فانت : « ان تحبس هو ان لا تموت » كما يؤكد لنا ذلك الدكتور غيبان عام ١٨٣٥ . وهذا الوصف يشدد بالاحص على الظروف القاسية التي تكتنف العمل : حرارة مرقعة او واطية ، عدم توفر النور ضيق المبنى ، ورطوبة المكان ، مضار المواد المستعملة وأذاها في صحة العامل ، لاختلاط الجلوسين والاعمار . ويلاحظ ادولف بلانكي « ان العاملات في مصانع كروس - روس تربح الواحدة منهن ٣٠٠ فرنك في السنة ، بمعدل ١٤ ساعة عمل في اليوم الواحد على انوال تكون معها العاملة مربوطة بسير من الجلد ومعلقة بحيث تستطيع استخدام رجلها ويديها معا في هذه الحركة الدائمة المتواقة التي لا بد منها لتنسج ما وزنه غالون » . وفي احد معامل التنسج في مدينة أنتسي ، جاء في احدي المرائض المؤرخة عام ١٨٤٨ ما يلي : « هنالك مراقبون لا

وجدان لهم ولا خمير ، يسمون العمال والعاملات المكلفين بأشغال الوصل ، الفسوة الفاحشة بحيث ان عدداً كبيراً مهماً يقضون نحبهم تحت الضرب المبرح . ولكن اي زريبة يجد العامل عند خروجه من العمل ؟ قلياتون جداً أرباب العمل الذين يعنون ببناء منازل لائقة للسكن يركن



شكل ٥. حركة الأجور

- A - دليل الاجور في فرنسا ، المعدل ١٠٠ : ١٨٠٦ ( وفقاً للاحصاء العام في فرنسا )  
 B - الاجور في فرنسا في المناجم وصناعة النسيج ؛ معدل ١٠٠ : ١٨٩٢ ( وفقاً للجداول التي وضعها ف. سميان تحت عنوان : الاجر والتطور الاجتماعي والنقد ) .  
 C - الاجور بالساعة في حياكة المنسوجات القطنية ( وفقاً للجداول التي وضعها ف. فان هورت ، بعنوان : تطور صناعة النسيج في بلجيكا وفي العالم ) .

اليها العمال . فالقبو او الكهف ينتظرم في مدينة ليل وفي ليفربول ، والزريبة في هواينشايل ورنس وروان ، والبيت الخرب العالي الجدران التنت الساحة في ليون . وفي الداخل فراش من

القش قدا عرف الشرسف او الحرام غطاء في الليل ، حيث يستلقي رازحين ، ثمين ، شخصان او ثلاثة ، ويصعب عليك وصفه ، او التعرف اليه ، مما وقعت عليه انظار ادولف بلانكي في روان وشاهده مارتن نادولدى البنائين العاملين في معمل كروز ، في باريس ، او هذا المراقب على زرائب عمال الحياكة الفننكيين . فخلال المجاعة التي اشتدت وطأتها عام ١٨٤٥ - ١٨٤٦ ، يأخذ العمال ينهب جيف الخيل ويتهاشون في مخاطفهم الكلاب والمهرة ، ويلاحظ عدد من المسافرين ان العاملة في انكلترا تتنفع سعتها من كرع كؤوس مشروب الجن ، كما ان شمرها وسخ قدر . وكثيراً ما يصادف ادولف بلانكي في روحاته وغدواته في روان اولاداً ؛ وشاخوا وهم بعد احداث . . . ضرت اجسادهم وقصرت قامتهم بحيث لا يستطيع المراه ان يتبين ، ولو بصورة تقريبية ، اعمارهم كما يجد في مدينة ليل « صبية احدودبت ظهورهم وتقوست اجسامهم ، وشوحت اعضاؤهم ، معظمهم عرايا ليس ما يستترون به ، وقد فشت بينهم الامراض على اختلاف انواعها : كمرض الحنازير والزهري والتدرن الرئوي وراحت تعصدم حصداً بعد ان تأصل فيهم الادمان على المسكرات واعتبر بقاء البنات من الموارد العادية التي يعولن عليها عادة .

فمن اصل ٣ مواليد في باريس واحد منها يولد سفاحاً ، وواحد من ٥ في مدينة ميلهوز ، عام ١٨٢٧ ، ويموت منهم قبل أن يبلغ الخامسة الثلث في بعض شوارع ليل . وپروي لنا أشيل بينو « أن معظم العمال يشاهدون اولادهم يموتون دون ان يبالوا بشيء واحياناً بكل ارتياح ، كما ان البعض منهم يعتبر نفسه سعيداً ومحظوظاً اذا ما وجد عملاً له ، الا ان بينهم من يهرب من العمل ويتفاداه . وعلى كل فالمستعطفون والمشردون الذين لا حرفة لهم ولا عمل تقص هم الازقة والطرقا كما في الماضي . ان محافظة الاور-واللوار كانت تضم ، عام ١٨٣٣ ، نحو ١٧٠٥١٦ معوزاً بينهم ٨٨٦٩ من المستعطفين . وفي عام ١٨٣٩ ، ارتفع عدد من يلتصق بالصدقة الى ١١٠٦٧٧ ؛ وفي سنة ١٨٤٥ ، كان من المطلوب مد يد المساعدة وقأمين الاسعافات ١١٤٣ من اصل ٦٨٥٢ في مدينة نوجان - له - روترو . وفي عام ١٨٢٨ ، هنالك في محافظة الشمال ١٦٣٠٠٠ عامل من اصل ٢٢٤٠٠٠ مسجلة اسماءهم في سجلات الاحسان والاسعاف . وفي كتابه : « بين الماضي والحاضر » يرينا كارليل انكلترا تحتدق بالغننى والثراء الفاحش ، بينما هنالك مليونان في اصلاحيات الاحداث ، و١٤٠٠٠٠٠ من المعوزين الجياع . « هنالك طيف يشع برزح على صدر اوروبا هو طيف الشيوعية . كما يؤكد ماركس في بيانه ، عسداً عن خطر الاملاق والفقر المدقع .

فالشعور بعدم الاطمئنان والحسوف من الوقوع فريسة البؤس  
 تنظيم العمال  
 لا عجز من ان تحمل المامل على الاخلاص للاستكانة والركون الى  
 الاضطرابات المعالية العفوية  
 الدعة والسكون . ففي المانيا حيث التحسس بالروح النقابية او  
 المهنية لا يزال عميقاً في النفوس ، فقد اتخذ اصحاب الحرف القديمة الطراز من هذا الشعور

'تكأة' لهم لتنظيم صفوفهم وللصمود في وجه القانون الذي ينظم المنافسة الحرة في مجال العمل . وقد بقيت قوية وطيدة ، هذه الرابطة او الجمعيات المهنية ، مثل : رابطة ابناء سلبان المعروف اعضاؤها باسم « Gavots » ، ورفاق العمل ، ودورة فرنسا وغيرها التي مهما باينت بينها المصالح الخاصة لا تزال مع ذلك تشدها عاطفة من التضامن والتماضد بين ابناء المهنة الواحدة ، والعمل على توجيههم التوجيه الصحيح .

وفي وسط هذه الجمعيات والأخويات الحرفية اختمرت الفكرة النقابية التي من اهدافها الرئيسية السعي للتخفيف من الاضرار والأذى التي يتعرض لها ابناء المهنة : كحوادث العمل ، والمرض والبطالة ، وذلك عن طريق الصناديق الخيرية التي تفتديها التبرعات . وقد عدت باريس وحدها في عهد عودة الشرعية الى البلاد ، ١٣٢ جمعية مهنية ضمت ١١٤٠٠٠ عضو بينهم ٢٦٠٠ من عمال المطابع الا ان هذه الجمعيات تفتح ابواب عضويتها على الاخص للعامل الذين تمت لهم الخبرات الفنية وبعض المهارات بعد ان توفرت لهم درجة ما من التعليم ابقطت فيهم روحاً اقتصادية . واولى التعاونيات التي ظهرت في الولايات المتحدة و في انكلترا جاءت وفقاً للأوينية ، هذا المذهب الذي قام وفقاً لنظريات Owen في الوقت الذي طلعت في فرنسا احدى هذه التعاونيات باسم « الرواد المنصفون » التي اتخذت اساساً لنشاطها المبادئ التي قال بها وعلم روشدال ، كما قامت تعارنية اخرى على اساس المبادئ التي قالت بها المدرسة البوشيزيانية التي كانت تطالب بادارة حكيمية . والاتحاد النقابي الوطني الكبير الذي بني عليه أوين آمالاً كبيرة ، والذي اصاب بالتفسخ والانحلال من كثرة المطالب والاهداف التي وضعها نصب اعينه . فلم يحن بعد طلوع عهد النقابية حتى السلمية منها والنفعية .

فالعمال وأصحاب المهن مقتنعون جميعهم بالضرر والاساءة التي تسببها لهم الآلة . فالآلة هي عدوتهم الاولى وخصمهم الكبير ومنافستهم الجديدة . فمن انكلترا حيث عم استعمال الآلة في اوائل القرن التاسع عشر ، اطلت على دنيا الممال نزعة لمحطيم الماكينات في المصانع . فالعامل او الانسان الذي يمتد كلياً على سواعده وقوته البدنية لكسب معاشه ينف ، وهذا امر طبيعي ، في وجه كل قوة اخرى تزاحم او تقف حائلاً دون تأمين معيشته ، او التي تلسب في تخفيض اجره او مرتبه . ولذا تكاثرت حوادث محطيم الماكينات والآلات في كل من فرنسا وبلجيكا وريانيا وسويسرا نفسها . فقد انطلقت الحركة من مدينة فرقيه في آب عام ١٨٣٠ ، مطالبة « بتعطيم الماكينات » . وعمال المطابع الذين قردوا ضد الملك شارل العاشر في تموز ١٨٣٠ ، راحوا يطالبون بعد ذلك بسنة ، بالتخلي عن المطابع الآلية .

فالعهد عهد غليان يلف الريف والمدينة على السواء . وقد انضم عمال الكرمة في مدينة بيزنسون الى المظاهرات احتجاجاً على توحيد الرسوم ، عام ١٨٣٠ . والثورات البلجيكية التي نشبت في السنوات ١٨٤٥ - ١٨٤٦ في المقاطعة الفلمنكية عمت المجتمعات الريفية كما عمت مدينة

عُنت . وهذه الفتن والاضطرابات التي تكرر وقوعها لا يقوم بها العمال الفحامون في مناجم  
 اترين او اللوار او الفحامون في المناطق الانكليزية ، بل ايضاً اصحاب الحرف والعمال الميامون  
 العاملون في المرافق الزراعية . وهكذا نرى العمال يسعون عن العمل ويضربون في ولايات  
 الميامونت ولبارديا والبندقية ، في الأشهر الاولى من سنة ١٨٤٨ . وقد برزت الحركة تظاهرة  
 في الشوارع على شاكلة مظاهرات الشوارع في الثورة الكبرى . فالعمال والصناع ينضمون الى  
 اصحاب الدكاكين والمخازن والمستودعات والى جماعات البورجوازيين في الفتن التي وقعت عام  
 ١٨٣٠ و ١٨٣٢ ، و ١٨٣٤ ، وفي شباط ١٨٤٨ ويثورون لشؤونهم الخاصة عام ١٨٣١ وفي  
 حزيران ١٨٤٨ .

قمت السلطة الفتنة التي نشبت في ليون عام ١٨٣١ بمد ما لاحظ المعاصرون ما للحدث  
 من خطر وسأن . فقد كتب سان مارك جيراردن حول هذه الحادثة في جريدة الديباقائلا : ان  
 الفتنة التي نشبت في ليون اظهرت للناس امراً خفياً هو هذا الصراع الداخلي في مجتمعا والقائم  
 بين طبقة الملاكين وطبقة الفقراء المعوزين . . . وراح يشهر بـ « هؤلاء البرابرة » ، من نوع خاص  
 الذين « يشكلون خطراً » على هذا المجتمع « والقائمين في ضواحي مدننا الصناعية وأرباضها » .  
 وهذه الكلمات ردد صداها ماركس في كتابه : « بؤس الفلسفة » حيث جاء « فالبريه أطلت  
 برأسها من جديد وطلعت هذه المرة علينا من احشاء حضارتنا واصبحت من اجزاها المقومة » .  
 وهذا لا يعني قط ان نظرية سياسية جديدة هي التي تحفز العمال في صناعة الحرير ، هؤلاء  
 « المتبوذين » كما يصفهم لامرتين ، بل هذه النقابة التي دعا الى تأسيسها معلو الورش والمصانع  
 للحد من تمت تجار الحرير والتي تعمل من وراء العمال وتمتبرم وفاق عمل . الا ان جل ما  
 يطلبه هؤلاء العمال المتمسكون بتقاليدهم المرعية هو رفع اجورهم . « نحن نجاهد ونكافح  
 لتأمين خبزنا اليومي » ، ولتوفير العمل لنا « كما يصرحون . ولما كانوا يخشون عاقبة الحركات التي  
 يقومون بها ، نراهم يتراجعون عن موقفهم ويفسحون بذلك المجال للجنود لاسترجاع المدينة التي  
 سيطروا عليها مدة من الزمن . فقد اسفرت هذه الحركة عن سقوط اكثر من الف بين قتييل  
 وجريح ، الا ان اثنين حكم عليهما بالشنق بعد ان قبض عليها الثوار وهما متلبسان بجريمة  
 النهب والسلب . ومن الملاحظ انه لم تقع حوادث عنف على اصحاب الممتلكات الخاصة  
 او العامة

وباستطاعة المجلس ان يشدد فيما بعد قائلاً : « ان الصراع الطبقي بين البروليتاريا  
 والبورجوازية برز الى الصف الاول في تاريخ اكثر بلدان اوروبا تقدماً وتطوراً » .

واذ خشي محافظ الرون ان يرموه بتهمة الضعف ، رفع الى اولي  
 حرية العمل والنضال دونها الامر تقريراً مسهباً جاء فيه : هنالك بين ٦٠،٠٠٠ و ٨٠،٠٠٠  
 من العمال كانوا بالفعل يتضورون بؤساً . فلم يكن بالامكان مقابلة مظاهراتهم السلمية اعراباً عن

مطالبهم المشروعة بإطلاق النار عليهم الا اذا كنا بالفعل ننوي اقتناءهم بالجملة . فقد بلغ من شدة خوف اصحاب الاملاك ، في باريس ، عام ١٨٣٤ ان راح تيير يعلن عالياً : « لا مكان للرحمة قط » ، كما راح الجررال بوجو يصرح بدوره : « يجب قتل الجميع ، لا رحمة على الاطلاق . كونوا بدون شفقة ... يجب القضاء على ٣٠٠٠ من العصاة » . واذ ذاك توقفت مذابح شارع ترانسونين . وقد جاءت حركة القمع ، عام ١٨٤٨ ، أشد منها واقوى .

فالمحافظة على النظام انما تعني التسييج حول العمل ومنع او حظر كل ما يمس او يوقفه . فالتشريعات الاجتماعية التي صدرت اذ ذاك في اي مكان ، انزلت الاعتصاب بمنزلة الجنانية ، كما ان اي اخلال بالقوانين التي توصي باحترام الملكية وصيانتها كان جزاؤه التوقيف ، وربما السجن مع الاشغال الشاقة . وقد تناولت احكام من هذا النوع ، بضعة آلاف في السنة الواحدة .

فالمجتمع غير ملزم بمساعدة من وقع فريسة العوز ، وتوفير ما يؤمن اوده دون ان يقوم بأي عمل . ولهذا استمرت انكلترا في اخذها بنظام فرض الاصلاحيات على المخالفين . فالحركة الاصلاحية التي ادخلت على « سجن البؤساء المدمين » ، عام ١٨٣٤ هي من بعض نتائج المساعي الحميدة التي قام بها المتأفرون بتعاليم بنتهام ، والمنشقون عن الكنيسة الانكليكانية في انكلترا والاحرار من اتباع الـ *Broad Church* وبعض اعضاء حزب المحافظين الاجتماعيين زاد صعوبة عملية الاختيار بين العمل الاجباري ، والتنشغيل في المدينة والمهاجرة . وهكذا نستطيع ان نتفهم اليوم بصورة ادق تعلق المحافظين الالمان بالروح التعاونية النقابية القديمة ، هذه الروح التي عرفت كيف تصمد في وجه الاجراءات الاصلاحية التي حصلت بين ١٨٠٧ - ١٨١٢ والتي رؤي اكثر من مرة جعلها الزامية .

اما في فرنسا حيث القوانين المعمول بها تحول دون بعث الروح النقابية ، فقد راح بعض من الكاثوليك يقترحون ، بعد ان تبينوا المعجز الذي يشل عمل المؤسسات الخيرية الفرنسية ، الاخذ بطريقة التحكيم وتشكيل مجالس نقابية مختلطة وانشاء تعاونيات . « علينا ان نشجع العامل على استكمال تهذيبه خلقياً وعلى اكتساب طبائع اكثر انسانية وذلك عن طريق تقوية وسائل التملك والحيازة عنده وانشاء توفيرات له » . هذا ما كتبه زوبير الكلفيني ومن رجال الاعمال في الألزاس . ففي كل مكان ترتفع الدعوة مطالبة بالادخار والتوفير .

وقد عدت انكلترا نفسها مجدوة الحظ اذ انها تقدمت غيرها من الدول في وضع قوانين العمل في المصانع ، هذه القوانين التي حولت العمال حق الاحتكام لدى السلطات العامة عندما يتجاوز ارباب العمل حقوق الحريات المعطاة لهم ، وهي قوانين ترمي لحماية الولد . وبالرغم من انشاء هيئة تفتيش خاصة بالعمل ، كثيراً ما عبثوا بالنصوص المتعلقة بسن تشغيل الاولاد ومدى يوم العمل وضرروا بها عرض الحائط ، ولا سيما الامتناع عن تشغيلهم ليلاً ، فيفضي المفتش او المراقب مأمور الشرطة عن المخالفات . وصدر قانون جديد ، حدد بموجبه يوم العمل للولد

بست ساعات ونصف ، و ١٢ ساعة للنساء اللواتي حظرن عليهن العمل في المناجم منذ عام ١٨٤٢ ، كما انه عملاً بأحكام الوثيقة ، نشطت الدعاية لاصدار قانون يجعل ساعات العمل في اليوم عشر ساعات فقط . واتخذت بروسيا الاجراءات الاولية للتسييج حول مصلحة العمال الصغار ، الا انها جاءت غير وافية بالمرام . اما في فرنسا فاذا ما وقفت المؤسسات التشريعية الى جانب ارباب العمل لمدم وجود دائرة خاصة تعنى بالتفتيش ، فلم يكن هذا الموقف ليملي عليها وجوب التصرف في مصلحتهم . ولذا فقد اقرت الجمهورية الثانية قانون العمل بـ ١٢ ساعة عمل في اليوم .

احلال المدرسة محل المصنع ، سياسة تتفق ومتطلبات التقنية والاخلاقية . ففيزو البرتستانتي يلتقي هنا مع مطالب النحل الانكليكانية البريطانية . ولذا راح يقترح عام ١٨٣٣ المباشرة بتعليم مدرسي يتولاه اعيان من رجال الدين والدنيا . « لتحسين وضع العمال يجب قبل كل شيء تنقية نفوسهم وتوطيدها وتنويرها » . وراح مسيحي آخر مشهور هو مونتلبير ، يعلق على هذه القضية قائلاً : « هنالك شيء ما تم في فرنسا مع تقدم التعليم العام : هو الحركة الاجرامية » .

عالماء امرأه فيه قط ان الجريمة الاجتماعية تلاقى السخط في اصحاب الضمائر الحية ، وتهيج المشاعر في القلوب الحساسة . وهذا الشعور الغامض في اعماق النفس يستحيل ، شيئاً فشيئاً عاطفة انسانية عارمة كما ان الرومنطيقية الوطنية تستخدم جذوتها امام التهمة التي يرمون بها الوطنيين من انهم سيبقون غير مبالين ببناء الوطن . فالجمعيات والهيات العاملة في حقل الاصلاح الاجتماعي كثيرة هي ، ولكل واحدة شعاراتها وتعاليمها ومراسمها ، وكلها تنطق باسم المسيحية وتقول الله على الارض وترسم لنا صورة للسيد المسيح متمربلاً بلباس الثوار ، بزي ابن البروليتاريا . فعلى البشارة الجديدة ان تملن ويكرز بها بانتظار اليوم العظيم . فبعد اعلان حقوق الانسان وبعد اعلان ابناء الشعب ، والبيان الصادر عن *Les Egaux* ، يطل علينا قانون ايمان السان سيمونيين وبيان الفورياريين المعنون : « الديمقراطية المسالمة » الى جانب الكتاب الذي اصدره برودون بعنوان : « ما هي الملكية » ، الذي يخاطب فيه الطبقة الرابعة على شاكلة الاب سيس في تساوله : « ما هي الطبقة الثالثة » ؟ ريثما يطلع علينا البيان الشيوعي والبيان المعروف ببيان الستين وبيان الدولية الاولى .

والشعراء الفنانون ، كل منهم مؤمن برسالته . فقد جمع احد رجال المال المعروفين هو اولند رودريغس من اتباع السان سيمونيين ، عام ١٨٤١ ، تحت عنوان : « قصائد المال الاجتماعية » نخبة من قصائد عامل القبعات كلود دسبو ، وقصائد الساعاتي لويس فستو ، والاسكافي دي لابوانت ، وعاملة التطريز اليزا فلوري ؛ والشاعر الغنائي بيرانجيه قد قدم لهم ديوانه الشمي : « حورية القوافي » ؛ ووضع لامنيه على شرفهم « كتاب الشعب » ، وهوغو يطمئنهم من جهته

ويؤكد لهم قائلاً : « نحن كلنا عمال ، حتى الله نفسه . والفكر عندكم يجهد فوق ما مجهد اليد وقصب » . ولو كوفت دي ليل ينشر في جريدة « لافالنج » العديد من المقائد ، والموسيقار ليست يضع للمعزف قطعة يسميها « ليون » ويقدمها للعالم في صناعة الحرير ، تخليداً لثورتهم ولا مرتين يكرس لهم احدي مؤلفاته ( Harmonies ) ويمتدح عالياً في مجلس النواب الممثل الوحيد لطبقة الحظ العاثر .

هنالك عدد كبير من الكتاب في المانيا الفتاة ، امثال بورن ، وهروينغ وفريليغراث يمرون عن مثل الجماهير الشعبية ومطالبها ؛ والبؤس الذي يرسف فيه العمال اوحى الى توماس هود « انشودة القمص » ، كما اوحى لاليوت « قوافي قانون التمتع » ، ولديكنز اروع المشاهد التي تهز المشاعر ، بعنوان : « الازمنة العسيرة » ولدنرثيلي روايته المشهورة « Sybil » التي تمور صفحاتها بالالوان والتي تدور حول واجبات الطبقة الارستوقراطية ، اذ من اولى واجبات هذه الطبقة حد يد رفيقة للبائس ضد البورجوازي الذي لا شفقة عنده ولا رحمة . واستطاع هرزن من ان ينثي بكلنسكي عن مثاليته الفن للفن بحيث يكن المزيد من العطف على الشعب « اسوة بمرات » . وراح ايوقوس ينادي بتحرير اليهود ، والغناء النظام الاقطاعي في هنتاريا ، وتصوير المجتمعات التي يخيم عليها البؤس اتخذ هو الآخر الجهاماً مثيراً ، بينما حرص الطليعيون في الحركة الرومنطيقية على لباس الاخلاق المالية شكلاً مثالياً . وعلى مثل هذا النهج سار هاين في كتابه : « رحلة الى هارز » . لم يكن المطلوب منهم وضع خطة شاملة للاصلاح الا انهم وضوا اصعبهم على الداء .

وهذه المرأة التي يشدد التعلق اليها والتي لا تزال مضطهدة ومزدرة في المجتمع ، تعبر بدقة عن مطالبها الرئيسية . فلاخوات برونتيه سلطن بالسنه حداد ما تخفيه التقاليد المرعبة من رياء . وتروي لنا فلورا تريستان ، هذه المرأة السفايح التي عرفت زواجا مشؤوماً ، قصة حياة بائسة . ويشده السان سيمونيون على وجوب تحرير شريكة الرجل وقربنته . ويطالب كتاب معروفون امثال جورج صاند ودانيال سترن غير مبالين بجزء الهازئين وعذل العاذلين ، بحق المرأة في التعلم وحققها كمواطنة . وتقدمت نوادي السيدات وجمعياتها ، عام ١٨٤٨ بطلب المساواة وبالزواج الحر المبني على الحب المتبادل .

وقد رؤي ، تحريراً للرجل ، ان يصار الى تنظيم المجتمع من جديد . وهكذا قامت حركة رجعية ضد التحررية الطبيعية تمثلت في هذه النظريات والآراء حول التعاون والتعاقد . والسان سيمونيون يوصون باستخدام الدولة في هذا السبيل بعد ان يجردها من شكلها السياسي ، كما يستخدمها لويس بلان لتحقيق الجمعيات المالية ، الا ان أوين ينصح ابناء البروليتاريا بان يتديروا امرهم بيدهم وان يحكوا جلدهم بظفرهم ؛ ومدرسة فورييه لا تعتمد الا على التجمع الواعي او التلقائي ، كما يوصي برودون من جهاته بالاعتماد على تبادل الخدمات . ومعظم هذه

المذاهب الاجتماعية كما يبدو اما انها لا تعلق اية اهمية على الآلة او الماكينة ، واما انها تمسك بوضوح النزعة العمالية . فهي تتمنى ، على العموم سعادة هادئة في احضان الطبيعة . وانبيااء المستقبل السعيد هؤلاء المسالمون ، يرمون الى انقاذ البشرية من الاضطرابات ومن تشتت القوى جزافاً بشكل لا يقل بشيء عن رغبتهم في انقاذها من البشاعة . فسانت سيمون يشجب « استثمار الانسان للانسان » وهو اصطلاح يتبناه الكتاب ويضي مثلاً في الارض ، ويدعو كلا من المهندس والصيرفي والعامل الى التعاون العام للتغلب على اليأس . وهذه الشيوعية التي نادى أوين وكايه والتي تفتر عن بسمة الامل لا تقل رضى عن الديموقراطية المسالمة التي نادى بها أتباع فوريه ، عدوة العنف . ومقابل « الانسجامات الشعرية » للامرتين ، والانسجامات الاقتصادية لبستيا ، يجب ان نذكر الانسجامات الاجتماعية التي قال بها اصحاب هذه النظريات . قراح البعض يصفهم بأنهم غير واقعيين او عمليين ، اذ انهم كما يقول فيهم المجلس : « لا مندوحة لهم من التمويل على العقل لوضع اسس بنائهم الاجتماعي الجديد . فالخط الذي رسموه يلتقي بتومانس مور عبر فلاسفة القرن الثامن عشر .

من بين هذه النداءات التي طلعت علينا ، هذا النداء الذي  
ماركس وردة الفعل التي قام بها أحدث اكبر واضخم ذوي في العالم والذي اطلقه ماركس  
بمعنوا: « نداء الحزب الشيوعي » بعد ان تعاون على وضعه في اواخر عام ١٨٤٧ ، كل من كارل  
ماركس وفريدريك انجلس ، كلاهما عضو في هذا الفريق الثوري الالمانى ، من سكان مقاطعة  
رينانيا ، العامل في المنفى . كان ثانيهما ابن عامل يعمل في صناعة النسيج ، نشر بحسباً بمعنوا :  
« وضع الطبقة العاملة في انكلترا ، عقب اقامته القصيرة في منشستر درس خلالها التنظيم الذي  
كانت عليه الصناعة في تلك البلاد . « فقد ظهر له - كما يؤكد لنا - بأن الامور الاقتصادية التي لم  
يعرها التاريخ ، حتى ذلك ، أي وزن وكاد يحملها بالمره ، تؤلف ، أفهله في عالمنا الحديث ، قوة  
تاريخية حاسمة هي اساس الصراع القائم اليوم بين الطبقات . « اما الاول منها ، فهو سليل اسرة  
بورجوازية من اصل يهودي وعلى مذهب هيغل الفلسفي ، خرج من نقده للمثالية التي قال بها  
هيغل ، الى نقد الاقتصاد السياسي . فبعد ان احتفظ من الفلسفة الهيفيلية بالنهج الديالكتيكي  
الذي يحسب حساباً كبيراً للحقيقة المتغيرة وانتهى للقول بفلسفة مادية غير اخلاقية ولا فردية  
- كما يقول النفعيون - بل تاريخية ، اي انها ترى في العلاقات الاجتماعية القائمة نتيجة احتياجات  
انسانية وذرائعها المتحركة . وبعد ان اتخذ موقفاً له المبدأ القائل : « بأن ليس ضمير الانسان  
هو الذي يحدد نهجه في هذا الوجود ، بل ان النهج الذي يسير عليه الانسان هو الذي يحدد  
ضميره » ، راح يؤكد مع الجناح اليساري للهيفيلية ، ان الانسان هو الذي يخلق فيه فكرة الله  
وليس الله هو الذي يخلق الانسان . وهكذا وصل الى فكرة تحول الانسان . وهذا التحول ليس  
في وسع الانسان منعه الا بتغلبه على المتناقضات الحاصلة من صراعه مع الطبيعة ، وبتجاروزه .

المستمر للظروف الخاصة التي تكتنف حياته . فاذا ما رأى نفسه ، في آخر المطاف مضطراً ليعلم في بيانه « بأن تاريخ المجتمع البشري برمته ، لم يكن حتى يومنا هذا سوى تاريخ طبقاته المتصارعة فيما بينها » ، فلأن هذه الطبقات تتكيف وهذه الفئات الاجتماعية هي التي تتصارع فيما بينها ، وصولاً منها للتحكم بوسائل الانتاج . ففي مجتمعنا البشري اليوم يقوم صراع بين الطبقة البورجوازية والطبقة الاقطاعية ، كل منها تعتمد نظاماً اقتصادياً خاصاً بها . فبجرد استيلائها على الملكية العقارية ، تولف البورجوازية ، بالضرورة ، طبقة غناصمة او منازعة ، بيسنا تروح البروليتاريا تسمى بالضرورة ، هي الاخرى ، تأميناً لحربتها ، للقضاء على هذه الخصومة التي تسببت بانشاء البروليتاريا . وقد تبين ماركس في الدولة الحديثة ذريعة او آلة في خدمة الطبقة المسيطرة . ففي تحطيمه لها تحرير بالتالي ، للانسان . الا ان الفرد لا يمكن ان يتحرر الا ضمن طبقته وبواسطتها . نحن هنا امام غائبة انسانية يرحى معها ان يبلغ الفرد البشري قفصه الكامل في مجتمع لا اثر للطبقات فيه . ففي البروليتاريا مناطق هذا الامل الموصول . ومع اسقاطها مبدأ العدالة ، فالماركسية لا تتعري ، والحالة هذه ، من كل مثالية .

ومها جاءت فكرة ماركس ونظريته الفلسفية ، اصيلة فهي تتصل بنظريات ريكاردو حول الدخل والربح والاجر ، ونظريات سيموندي حول تجريد الرأسمالي لصاحب الاجر ، من كل شيء . فهي تعيد الى الازمان اقوال بيكور الذي كثيراً ما ردد بأن الآلة تفضي الى الحشد في الصناعة ، وهذا الاخير الى وجوب وضع آلة الانتاج تحت ملكية المجتمع وسيطرته . فأمام ما نرى من مفارقات البذخ والبؤس في البلدان الأكثر تطوراً في اقتصادياتها التي تنهض على التبادل التجاري الحر ، نرى بالاضافة الى ذلك ، هذا الاقتصاد يجيش بعوامل وتفاعلات ثورية من جراء تصادم المجتمعات الديموقراطية والراديكالية ، واليعقوبية والثاقبية . فلا يمكن فصمها عن هذه الحركة الدولية التي تعمل ضد النظام القائم الذي اتخذ محارره الكبرى في كل من لندن وبروكسل ولا سيما باريس . فقد كان لاقامة ماركس في باريس ومكثه الطويل فيها ، تأثير عميق على بنياته السياسي .

تجر العجلة الصناعية التي تزداد سرعة يوماً بعد يوم وبشكل لا يقارم ( ميشليه ، ١٨٣٤ ) وزاهاها القوى الديموقراطية التي تمتدما الروح التحررية في صراعها ضد النظام القديم ، وادهى ما تخشاه هو ان يتم طوعها . وهكذا تسببت البورجوازية في بعث الطبقة الرابعة ، وليس من يدري قط ما اذا كان بالامكان تأمين الاتفاق فيما بينها ، وفي اي مكان ، في هذه الشعوب التي تعتمد النظام النيابي او التمثيلي .

ليست الديموقراطية في الظاهر سوى فرد تشبع بالروح التحررية ويسلم بالاقتراع العام . « صوت الشعب هو من صوت الله » ، هتف الشاعر ، وعبثاً يتحدث لامرتين عن القفز في الجهول ،

فهو لا يسمعه الا التسليم بأن الامر قضي به على هذا الشكل . يحددنا كورمينين عن « الايمان بسيادة الشعب » . ولكن هذه الرمزية ، يعترف استوقراطيون مشهود لهم بالاطلاع الواسع امثال شاتوبريان وتوكفيل ، بما لها من قوة وسحر ، لنهوضها على المنطق واعتمادها عليه . فالاقتراع الشعبي المستنير المثقف ، من شأنه ان يقي ، في اضعف الايمان ، من العنف ، وان يبطأ طيء برأسه امام الكفاءات .

فهما بلغ من غموض النظام الجمهوري ، فالمعاصرون الذين عاشوا تجربته المريرة يعمدون الى الازدهان ، ذكر الحوادث الكالحة التي حدثت عام ١٧٩٣ . اما في ايطاليا والمانيا ، فعظ هذين البلدين منها مربوط بقدرتهما على تحقيق وحدة الامة . كذلك شأن اي انسان يرد الحروب الى خناقات الملوك بعضهم مع بعض ، يتمنى من الصميم طلوع عهد الجمهورية العامة .

أما فرنسا ، فالبلبله السائدة فيها يغذيها هذا الوضع الديمقراطي الخاص القائم على النظرية النابوليونية . صحيح ان روبسبير وسان جوست ، لهما ما الآخران ، انصارهما ومريدوما . غير ان نابوليون فهو يتمتع في البلاد بشيء اشبه ما يكون بالعبادة وقد رسخت على الأصل واعرقت بين صفوف صفار القوم على الاخص . ففي حالة وقوع اي اضطراب ، فالورث الشرعي لهذه الاسطورة التي تأخذ بمجامع القلوب يبرز للجميع كالمقصد الوحيد للنظام ، هذا النظام الذي يراه قادراً على الخلق والتجديد . فاللبس والغموض يفيدانه ويزيدان من الحنين اليه والتلف عليه . « عد نابوليون ، وانزل قصرك وكن ابناً باراً للجمهورية » ، هذا ما كانت تردده احدى الاغنيات الشعبية ، عام ١٨٤٨ .

فاذا لم يقيم في انكلترا ما يس بعاطفة الولاء للنظام الملكي ، هذا النظام الذي وطد اركانه وشد من دعائمه حكم الملكة فكتوريا السديد وادارتها الرشيدة ، فالقلق الاجتماعي المسيطر على البلاد يضع وجهاً لوجه هذا النصف مليون من اثرياء القوم هنالك ، اصحاب الامتيازات والاعفاءات ، مع هذه الملايين الثمانية من الفقراء المعوزين . فقد ساد تلك البلاد مزاج خاص من الراديكالية المتصلة بحبل وثيق بالبيوريتانية المتزمتة التي يتردد على لسانها القول المأثور : العمل صلاة ، شعار ديمقراطية الكفاء امام الله . وبفضل الحالة الفقرية الآخذة بالاحتدام ، تستبد بالأفكار اكثر فأكثر ، فكرة الصراع الاجتماعي المكشوف الذي يدعو اليه علانية فرغوس او كنور ، وفرونتير اوبريان ، وكلاهما ايرلنديان ، ومن ابناء ايرلندا المتحررين ، راح الاخير يترجم الى الانكليزية كتاب بيوفاروتي عن بابوف ، فربط بين براة الشعب التي تطالب بالاقتراع العام ، والغاء طبقة اللوردات ، وبين وثيقة اعلان حقوق الانسان التي صدرت في فرنسا عام ١٧٩٣ . غير ان الصدام العنيف المتوقع لم يحدث وذلك لاضطرار زعماء الوثيقة للتسليم بأن كوبدن وبيل بكسبهما معركة الرغيف بسعر رخيص ، اقاما الدليل على ان امام النظام الرأسمالي دور كبير يجب ان يلعبه . فالجلس الذي وضع آنذاك كتابه حول الطبقة

العاملة في انكلترا ، وماركس عضو المصبة الشيوعية فكراً عميقاً بنتائج موقفها هذا . وهكذا ختما بيانها بالدعوة الى تضامن البروليتاريا في جميع أنحاء العالم هما بحاجة لمناصرة الثورة وللوقوف الى جانب الثوار في القارة . فاذا ما راح الراديكاليون في فرنسا على طريقة لودري - رولن ، يشجبون بحماس ، اكثر مما جرى في المانيا ، الاشتراكية ( استعمل هذا الاصطلاح لأول مرة ، عام ١٨٣٧ ) فلم يتورعوا عن التحدث عن الجمهورية الديمقراطية والاشتراكية . ومهما يكن ، هنالك في باريس اوغست بيانكي وانصاره ، وكلهم شيوعيون ملحدون ، ومتقدون بوجود مؤامرة انقاذ . والحال فقد لعب فيليبو بيوناروتي ، حتى ساعته الاخيرة ، دوراً بارزاً ، اذ كان بمثابة اداة وصل بين جمعية الفحاميين واليوانكيين والوثائقيين ، وبين اليمعويين والبابوفيين من أنصار الثورة الفرنسية ، وبين دعاة اليمعويية الجديدة وانصار البابوفية الجديدة الذين أخذوا يعون اكثر فأكثر ، القطيعة القائمة بين البورجوازية والبروليتاريا .

في عهد سيطرة الحلف المقدس ، راحت المنظمات والفئات  
 عهد الجميات السرية والدانس  
 السرية التي وضعت نصب اعينها تقويض السلطات القائمة  
 وفورات الشوارع في اوروبا الغربية  
 وهدمها ، تنظم صفوفها في الخفية . وقد رمت من وراء  
 نشاطها السري هذا الى توفير عنصر المفاجأة ، وبفترة أطلقت الفتنة برأسها ان لم نقل حركات  
 الانقلابات العسكرية . انها أمر ضروري ولا شك ، ولكنها مزاج خاص ايضاً . فالرومنطيقية  
 تتمشق الظلام والانقلابات العسكرية .

فاذا لم يكن من الراجح ، الظن بأن مؤامرة ماسونية كانت وراء ثورة عام ١٧٨٩ ، فليس ما  
 يؤيد الادعاء كذلك بأن الماسونية هي التي بينت للحركات الثورية التي وقعت بعد الثورة  
 الكبرى بأربعين او بستين سنة . فقد اقامت لها علاقات صريحة مع الحكومات منذ اليوم  
 الذي تقدمت منها بطلب التساهل الفعلي . فهي ثورية المسلك والطابع ، في هذه الاقطار  
 الواقعة الى الجنوب من اوروبا ، تحدياً منها لهذه النظم الملكية الكنسية او المستبدة التي  
 تنتصب في وجهها وتسد عليها الطريق . فقد جعلت فلسفة الانوار منها في روسيا ، حركة  
 محافظة تحترم النظام الجاري الاخذ به . وما لا شك فيه مع ذلك ان الثورة الموصوفة *décabriste*  
 التي انطلقت عام ١٨٢٥ ، سببها المباشرة اغلاق المحافل الماسونية عام ١٨٢٢ ، بعد ان استمرت  
 البابوية ، منذ القرن الثامن عشر على شعب الماسونية بعنف كلي وتحريمها . ولذا استمر  
 الصراع بينها وبين الكنيسة الكاثوليكية . وهذه المنظمات او الجمعيات التي نمتها كل من  
 البابوات إقليس الثاني عشر ، ويندكتوس الرابع عشر ، « ضارة ، تؤذي ليس فقط باستقرار  
 الدول وهدوءها ، بل تؤلف خطراً شديداً على النفوس » .

ففي البراءة الرسولية التي اصدرها البابا ليون الثالث عشر عام ١٨٢٦ ، ويلاحظ ان من هذه

الجمعيات الماسونية القديمة التي لم يفتر لها نشاط قط ، طلعت علينا عدة جمعيات سرية اشد كراهية منها ومقتاً . فيذكر منها منظمة « الفحامين » التي « وضعت نصب اعينها قلب الحكومات الشرعية والقضاء على الكنيسة » . رأت جمعية الفحامين هذه النور في مملكة نابولي واستطاعت ان تقيم لها شبكة من الفروع غطت كل ايطاليا وامتدت الى كل من فرنسا واسبانيا . وقد عرفت ان تكتسب لها اعضاء كثيرين بين افراد جيش نابوليون . حاولت هذه المنظمة عام ١٨٢٠ - ١٨٢١ تنظيم فتنة ضد الشرعية في فرنسا . وبالمقابل نشطت دعاية قوية في الاوساط العسكرية ، في كل من بولونيا وروسيا . واثارت بمناسبة وفاة القيصر اسكندر الاول فتنة ( *décabriste* ) . الا انه انطلاقاً من ١٨٣٠ ، اقتضت الانقلابات العسكرية على اسبانيا . وحدها . والمطالب الشرعية بالعرش النابوليوني ، حاول عبثاً مرتين مفادرة جزيرة ألبا .

ففي هذه الجمعيات ذات النزعة الجمهورية التي تكاثرت وجودها ، لا تزال روح الفحامين تفرها وتسيرها . فالغاية المتوخاة من الدس والتبئيس الاهداد لانقلابات جديدة . وكلما توارى العنصر العسكري عن الانظار بتواري « قدامى » الحروب المظفرة ، ازداد بالتالي اقبال العناصر المستنيرة واطراف المهنة الحرة وحق المهال على الانخراط في هذه الجمعيات التي جاشت في نفوس اعضائها فكرة الجمهورية الديمقراطية والاجتماعية .

ولما كانت اقلية ضئيلة من اصحاب الامتيازات هي التي تستأثر بالسلطة ، كان يكفي على ما يبدو لاسقاطها ، مهاجمتها على حين غرة . « فيوم » الثورة ، حيث يصفى الوضع في بضع ساعات - هو عبارة عن حرب في شوارع العاصمة . فخطط المدينة تستجيب جيداً لمحاربة جيش نظامي يضطر للتناور والتحرك بين الاحياء والحارات والمنازل المرتفعة ، وهو اعجز من ان ينتشر او ان يستعمل بنجاح المدفع ، بينما يسمى الثوار من جهتهم ، الى تحويل هذه المنازل الى حصون مرتجلة يطلقون النار منها على افراد الجيش بنجاح او على الواقفين امام الشرفات او على السطوح .

والمهم في هذه الفتنة ، المتاريس التي تقام في الشوارع . فأمر اقامتها يسير اذ يتخذ منها الثائر ملجأ يطمئن اليه ويخلق منه مركز دفاع جديد لا يمكن القضاء عليه بنيران البنادق ، فيجد من تقدم صفوف الجند الذين يحاولون اجبار الحي على التسليم ، كما يساعد الثوار على الالتفاف حول المباني الحكومية للاستيلاء عليها . ووضع حد للفتنة المشتعلة المسلحة يقتضي الجيش المزيد من الضحايا ، الا اذا ضعفت المقاومة امام عناد الثائرين وصمودهم . ففي الحالة الاولى تطلع علينا المذابح الهائلة ، في باريس عام ١٨٤٨ ، ومعارك فيينا في تشرين الاول ١٨٤٨ . ثم يتدخل عنصر التهديد على طريقة هوسمان وينتهي الامر بسيطرة المدفع . اما في حال نجاح محاولة الانقلاب هذه ، تأتي الخسارة في الارواح اقل . وتتوقف اعمال القتل مع توقف الحرب واعمال المقاومة . ان قمع الفتنة وانكسارها قد يؤدي الى هدر دماء كثيرة ، ويزج الالوف في السجون ، كما

أن عدد الذين يأخذون بالنزوح الى الخارج ومفادرة البلاد فسيضعف يوماً بعد يوم .

تهجرون قبلنا هذه الارض اللعينة  
بعد ان يقف الله فيها الى جانب الاقوياء  
حيث الفقير يرسف في السرداب عبداً وتزدل ذريته  
وحيث الجماعة لا تستطب الا بالموت الزوام  
( لويس مينار « تحمية الثوار » حزيران ١٨٤٨ )

الثورات الأوروبية ١٨٣٠ - ١٨٤٨ نابليون .  
فعهد الثورات الذي اطل علينا عام ١٧٨٩ ، لم ينته بانتهاه

فالهزة العنيفة الاولى التي تعرضت لها مقررات مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ، وقعت ١٨٢٠ -  
١٨٢١ ، وهي هزة تعرضت لها بالاحرى مقاطعات الجنوب المتخلفه في طورها ، ولم يلبث ان  
قمع التدخل العسكري هذه الفتن التي قامت في شبه الجزيرة اليبارية والايطالية على اكتساف  
اقلية ضعيفة العدد والمعد . الا ان الثورة التي انطلقت في اليونان طال حبلها وانتهت بالفوز  
بفضل اطماع الدول الكبرى المتنافسة في المنطقة ، امثال روسيا وانكلترا وفرنسا .

اما الثورات التي شبت عام ١٨٣٠ - ١٨٣١ ، وفي سنة ١٨٤٨ - ١٨٥٠ ، فقد ارتفع لهيها  
عالياً فاكثوت اوروبا بنيرانها اللافحة . ولم يبق في مأمن منها غير الامبراطورية الروسية .  
والسلطنة العثمانية التي لم تنج من الحريق ومن سقوطها فريسة بيد محمد علي ، صاحب مصر ، الا  
بفضل دسائس الدول الكبرى . وما لامراء فيه هو ان التوقيت المتزامن لم يسكن من الدقة  
بحيث تستقيم له اسباب النجاح . فاسبانيا والبرتغال اللتان لم تمرقا الاستقرار طويلا عرفتنا  
فترات من الاضطرابات الداخلية . والاتحاد السويسري استطاع ان يقضي على الاقلية القديمة  
قبل وقوع الاصطدام العنيف عام ١٨٤٨ .

«وما هي الثورة الفرنسية تتأجج نيرانها من جديد وتندلع - كما يصرح توكفيل عام ١٨٤٨ -  
بمد ان تماثل الوضع وتشابهت الظروف » ، ودكتاتورية السلامة العامة لم تظهر الا لفترة قصيرة .  
وبصورة استثنائية ، في كل من روما والبندقية ، وبودابست . واتفق كذلك ان الدفع  
الرومنطقي هبط وانحط بالسرعة ذاتها التي ارتفع فيها وانكشف الحلم عن خيبة امل مريرة  
وتحطمت الجهود . وعلى كل فقد علمنا ثرميدور ان لا ينتظر طويلا ، فارتفاع اللهب لحظة  
ويخفف ، فتضطر المجالس الدستورية للاخذ بتسويات غرارة ، والحصون التي وقعت في  
ايدي الثوار لم تلبث ان افلتت من ايديهم ، كما ان القوميات النائرة سرعان ما يصيبها البهر  
وعسر التنفس .

وعندما برزت بلجكا للوجود انهارت بولونيا ، من جهتها . ففي غربي البلاد بورجوازية

مستثيرة ، بينما في الشرق ارسنوقراطية عقارية هي اعجز واضعف من ان تصف في وجه نفوذ الملكية المتمتعة بالكثير من الامتيازات. فعلى مكيفيكس ان يحسب الف حساب لتزار تورسكي . والثورة في بلجكا انطلقت ضد جوزف الثاني ، قبل عام ١٧٨٩ وجاء زوال جمهورية كراكوفيا قبيل عام ١٨٤٨ ، تكريساً لاقتسام بولونيا نهائياً ، هذا الاقتسام الذي شرعوا به في الربع الأخير من القرن الثامن عشر .

ويعد ان فتنها النزعة التحررية ، لم تماشى البورجوازية التيار الاصلاحى الاجتماعى الا بقدر ما تكنه هذه الاصلاحات من احترام للملكية الخاصة وتوطد اصولها . فالغاء عبودية الارض يؤلف لعمري اجراء من ام الاجراءات التي طلع بها علينا القرن . فال مؤتمر الوطنى في فرنسا اعطى المثل الصالح في هذا المضمار ، فسارت على النهج ذاته بريطانيا العظمى ، كما ان الجمهورية الثانية جاءت تدعم قرار الجمهورية الاولى وتشدد عليه . والتقاليد التي كرسها ثورة عام ١٧٨٩ ، قضت بتحرير الفلاح من جميع العبوديات الاقطاعية ، وثورة ١٨٤٨ التي رفعت بعبداً حتى حدود روسيا ، عبودية الارض والرسوم السيادية ، جعلت اوروبا الوسطى ، في وضع مطابق لوضع دول الغرب من هذه الناحية . الا ان الخوف المستعوز على العامل يرغم على اتخاذ موقف معاكس ، كل هؤلاء الذين يرون فيه ، ناقلاً للفوضى ، والموصل الى الجماعية . وهذا الهاجس الكبير الذي جثم على صدر سنة ١٧٨٩ ، واستعوز على الفلاح والبورجوازي الفرنسى خلال ازمة المواد الغذائية الحادة ، كان من بعض نتائجه ان دك معالم العهد القديم من الاساس ، والازمة الاقتصادية التي اشتدت حلقاتها بين ١٨٢٦ - ١٨٣٢ ، عرفت ان توحد تارة ، وان تقيم الواحدة ضد الاخرى طوراً البورجوازية والبروليتاريا دون ان تحرك طبقة الفلاحين طبعاً . أما أزمة ١٨٤٥ - ١٨٤٨ ، فبالرغم من انها شجعت سكان الريف في بلدان اوروبا الوسطى على التحرر ، فقد عجزت عن تحريك الطبقة الثالثة ( طبقة الشعب ) وقشلت بالتالى في ما رمت اليه من دك النظام القديم دونما رجعة ، بينما اثار في فرنسا موجة جديدة من الهلع الكبير ، الذي اثاره « المطالبون باقتسام الثروة » و « الحر » . « ضاع كل شيء » في ٢٤ شباط ( فبراير ) ١٨٤٩ ، كما زعم بلزاك ، « وبيدو انكم يا سيد ارغو لم تدوقوا ابدأ طعم البؤس » ، اجابه احد ثوار حزيران . وقال بوجو لتبير عام ١٨٤٩ : « يا لهم من وحوش ضارية . كيف يسمح الله للامهات ان يتصرفن على هذا الشكل ا هؤلاء لعمري الاعداء الحقيقيون وليس الروس او النمساويون ا . . وبالفعل فالعامل نفسه يتورع كثيراً في تصرفه عندما يتصرف للطبقة بحقوقه ، اذ ليس من غريزة توجهه الى ما فيه ضمانة مباشرة ، وهو سقه في العمل يلوح به عالياً على رؤوس الأشهاد ، بينما يجهل تماماً ، وهو امام البورجوازي الذي يبادر في الحال الى خلع قبعته عندما يقف امام الجندي ، كيف يفك القيود التي تكبله ، ولن يلبث ان يرى نفسه بين احتمالين لا ثالث لهما : اما الموت واما الرضوخ والاستسلام .

« أفضل عندي بكثير ٩٣ على ٤٨ ، كان هوغو يصرح وهو في طريق الاغتراب والنفى . أفضل الف مرة رؤية الجبارة يتمرغون في الحواء على رؤية المغفلين الاغبياء يتخبطون في حماهم » . حكم قاس لعمري ، انما يعبر احسن تعبير عن المرارة التي تنغص حياة هؤلاء المثاليين ، ثمانية واربعين ساعة التي قلى هزيمتهم . درس قاس لعمري هؤلاء الديمقراطيين والاشتراكيين الذين يضطرون للتطلع الى المستقبل ، بعد ان يتفحصوا بدقة الامكانات المتوفرة ، كما فيه عبر ايضاً للكنيسة الكاثوليكية نفسها التي يترتب عليها تجديد رسالتها بصورة اوضح . الا ان هناك بعض الافتراضات تفرض نفسها بعد لم يعد بالامكان الركون الى أوهام الرومنطيقية ، والتحويل عليها بالكلية .

## الفصل السابع

### بروز الذات الاميركية في وجه الاستعمار القديم الدفع الاستعماري الجديد بعد فترة من التمهيل

هنا نصنبا علم الحرية ، وهنا امتحان لدرجات الناس على  
حكم انفسهم بأنفسهم .  
( رولت هريمان في كتابه : « حشد القوى - ١٨٤٦ » )

تقهقر الاستعمار الاوروبي القديم  
في العالم الجديد

بدت على نظم اوروبا الاستعمارية في اميركا عوارض التفسخ  
والانحلال ، وذلك نتيجة حتمية لهذه المنافسة الحادة التي  
اقامت الدول الاوروبية الكبرى بعضاً على بعض ، من جهة ،  
ومن جهة ثانية ، نتيجة النظام الاستعماري نفسه الذي كان موضع نقد وقدمر .  
وهذه السياسة الاستعمارية التي اعتمدت على « الاستثناء » انتهت الى الفشل التام في  
هذه الاقطار التي تمذر على البرق الابيض فيها التفكير ، والسعي الى رفع كثافة السكان بين  
الملونين . فقد قام في وجه هذه السياسة معارضة شديدة من قبل المعمرين الاوروبيين في هذه  
الاقطار التي ألفوا فيها المنصر الاقوى . وبما لاشك فيه قط ان قيام الولايات المتحدة الاميركية  
وتحقيقها الاهتقلال الناجز ، بعث الامل وحرك الهمم بين الاقوام المطالبة بحقها الطبيعي في  
الحياة ، كما ان مبادئ ثورة عام ١٧٨٩ ، ونقوذ فرنسا الادبي وسيطرتها كان له الاثر البعيد  
في ما وراء المحيط . ففكرة التحرر تفلقت بين شعوب المستعمرات وايقظت فيهم الوعي  
ورغبة صادقة في التحرر السياسي تخلصاً من ربكة القيود الاقتصادية التي احكمت فرضها  
البلد الام (١) .

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، المجلد الخامس ، ص ٣٤٤ و ٥٩٠ (الطبعة العربية) .

فاذا ما اعتبرنا ، من جهة ، ثورة اميركا اللاتينية ، مرحلة حاسمة في القضاء على الاستثمار المستحكم في بلدانها والقائم على « الاستثناء » ، فقد لب مع ذلك الانكليز ، في هذا المجال دوراً بارزاً . ففي حروبها ضد نابوليون ، اضطرت بريطانيا للد على الحصار البري المعلن ضدها لانتهاج سياسة اقتصادية أكثر انطلاقاً لتتجه من اسواق العالم الجديد . فقد ظهر لها بوضوح ، بعد عام ١٨١٥ ماعليه الاسواق الاوروبية من ضيق ، كما قام في وجهها سياسة من الحماية الجمركية كان لها صداها في حمل الولايات المتحدة الاميركية على رفع رسومها الجمركية ، كما ان الازمة التي نشبت في المملكة المتحدة حملت هذه الجزيرة القائم نشاطها على التجارة ، على تحرير اسواق قارة بأسرها واستخلاصها من سياسة « الاستثناء » التي اخضعتها لها دول شبه الجزيرة الايبيرية . وفي الوقت ذاته راح اسطول صاحب الجلالة يمارس في المحيط الاطلسي حق الزيارة ( او حق التفيتش ) وهو حق اعترفت له به المعاهدات الدولية المعقودة عام ١٨١٥ ، مكافحة منها لاعمال النخاسة . كذلك ان نشاط حركة الهجرة بين البيض وانشاء مستعمرات إسكان « لاسيا بريطانيا » ، اوجب البحث عن بديل جديد او صيغ جديدة في ادارة وحكم هذه المقاطعات النائية حيث يقلب العنصر الاوروبي ، بحيث ان افدى استقلال الولايات المتحدة الاميركية وبالتالي بلدان اميركا اللاتينية ، الى نظرية جديدة او نهج جديد في الاستثمار هو نهج الحكم الذاتي الذي عرف ان وفق بين مطالب البلد الام ومصالح مستعمراتها عبر البحار .

في عام ١٨١٥ ، كادت الشرعية تعود بكامل مستلزماتها الى دول شبه الجزيرة الايبيرية والى ممتلكاتها الواسعة في القارة الاميركية ، ولما كانت قوى الثورة في هذه المقاطعات سيئة

تحرير اميركا اللاتينية  
حروب الاستقلال

السلح ، ومشتتة تتوازعها اراض شاسعة ، فقد باءت المحاولات التحريرية التي قامت فيها بالفشل ، مع العلم ان البريطانيين المنهمكين بحروبهم مع فرنسا ومع الولايات المتحدة الاميركية ، لم يكن في وسعهم قط التدخل في هذه الثورات ومعاذتها بصورة ناجحة .

فكيف تغيرت الحال بأخرى وانقلب الوضع غيره يا ترى ؟ فالصعوبات التي اعترضت سبيل الثورة وارتهمت نجاحتها بقيت لعمرى قائمة ، كانهزال مراكز الثورة بعضها عن بعض بما يباعد بينها من مسافات شاسعة تغشى الحشائش والاعشاب والغابات الملتفة في غرناطة الجديدة ، او تفتقرها السهول المرتفعة الجرداء المترامية الاطراف بين البيرو والشيلي ، سهول اولبيا الواقعة بين الشيلي ولابلا ولسلسلة جبال الاندس الشاهقة الارتفاع حيث تكثر الغياض والبطائح والمستنقعات ، والمعارضة الشديدة التي قوبلت بها الثورة من جانب كبير من الطبقات الموجهة التي لم تسقط من حسابها احتمال قيام الهند بحركة تأثرية ، وتأرجح الكنيسة وتردها اذ كانت تتهيب التسبب بزوال سلطة تقليدية صديقة ، والخصومات العنيفة والمنافسات الحادة التي جاش بها زعماء الحركة فنفرقوا معها مشارب ومطالب اذ توقعوا ان تتصدى لحركتهم التحريرية قوات

أشد تدريياً ، وأكفأ تسليحاً وقيادة مما تم لهم من هذا كله ، وعدم توفر أية صناعة لديهم تستطيع مدد السلاح وتزويدهم بالعتاد الحربي الذي لا بد منه لتسليح فرق المتطوعة من أبناء الريف واضطرابهم للتمويل ، قبل كل شيء ، على الاسعافات التي قد تصلهم من الخارج . ومع ذلك ، وبالرغم من هذه النواقص ، هنالك امكانيات تتوفر الآن لم تكن متوقعة من قبل خذت فيهم الامل بالفوز والنجاح ، تمثلت في حركة القمع العنيفة التي قامت بها السلطة الحاكمة فولدت في النفوس احقاداً مشبوبة وبغضاً ازرق وضغائن عنيفة ، كما امكن ان يعولوا ، من جهة اخرى ، على تدخل الدول البحرية الكبرى التي تهيمن اساطيلها على البحار ومؤازرتها بصورة اوسع ، وفعالية اكبر وواقع ،

واشدت روابط التعاضد والتضافر بين طلاب الحرية وناشديها من كلا جانبي المحيط ، كما اشددت روابط التضامن بين الاميركيتين الشمالية والجنوبية . فالثورة التي ارتفع لهيبها في لشبونة ، عام ١٨٢٠ اجبرت الملك جان السادس على مغادرة البرازيل والعودة الى البرتغال ، تاركاً جماع السلطة فيها لابنه دون بدرو . كما ان الثورة الاخرى التي نشبت في قادش اربكت فردينان السابع وثلت فيه كل حركة . غير ان استئثار الاحرار بالسلطة ، في شبه الجزيرة الايبيرية ، ولو لأمدة وجيز ، شجع الكنيسة في تلك المستعمرات الثائرة ، على الوقوف الى جانب حزب الاستقلال ، فساندت ثورة إيتورييد في المكسيك . وتقادياً للمعاذير التي يثيرها اعلان الجمهورية في البريو ، راح كبار الملاكين ينادون بدون بدرو ، امبراطوراً على البلاد ، بينما تطرح بريطانيا بكل ثقلها في كفة الميزان التي يرفرف فوقها خط الثورة ، ولم يصعب عليها وجود المغامرين والمسكرين المسلحين الذين يتطوعون لتنفيذ المهام التي سيمهد بها اليهم .

ومنذ عام ١٨١٩ ، استقبلت واشنطن ممثلاً لبوليفار بعد ان سبق لها واعترفت بجمهورية كولمبيا الكبرى والمكسيك .

اظهرت الولايات المتحدة كل استعداد لديها لتقدم لها كل ما يحتاجان اليه من مساعدات مالية وعتاد حربي . وبعد ان احتجت حكومة لندن ضد تدخل فرنسا وضد مؤازرتها لفردينان السابع ، اقترحت على الاميركيين اصدار تصريح مشترك بتأييد استقلال الجمهوريات الجديدة . فاذا لم يشأ مونرو الارتباط بأي وعد صريح ، فقد ساعد التصريح الذي اذاعه عام ١٨٢٣ ، في توطيد هذه الجمهوريات الناشئة ، كما رأى كاننغ ، من جهته ، ان يعترف بالامر للواقع . ففي سنة ١٨٢٤ ، حدث في أياكوشو انهيار آخر مركز المقاومة الاسبانية في تلك البلاد ، ولم يبق لمدريد سوى جزيرتي كوبا وبورتو ريكو . اما تحقيق مثل هذه النتائج المحسوسة ، فقد تمّ بعد سبع سنوات من الجهاد العنيف والحروب الدامية ، كانت محكماً قاسياً لشجاعة هؤلاء الثوار المطالبين بالاستقلال ، ولقوة احقادهم ولماهرتهم تحت قيادة زعيم ارتبجيل ارجبالاً هو الزعيم ( كوديلا ) الذي اعطى كل طاقاته .

وقد لمع في هذا الصراع المحتدم اسمان ، وبرزت شخصيتان هما : بوليفار وسان مارتن ، كلاهما من مواليد المعمرين الاغنياء ، متمليان من الفنون الجميلة وامجاد تاريخهم القديم . برز اولهما في كركاس وطلع الثاني في بونس ايرس . كلاهما على اطلاع واسع على امور اسبانيا لاقتها رداً من الدهر في اسبانيا . فالشاب الفنزويلي ذو العاطفة المشبوبة والذي فقد زوجته وهو ابن ٢١ سنة ، طوف في جميع اطراف اوروبا وقبس من التجربة والحبرة ما حنكه في العمل الذي ندب نفسه له ، متوجهاً بأنظاره نحو الاجنبي ولا سيما نحو الانكلوسكسون ، بعد ان تبين ما هم عليه من قوة وبأس وبعد أثر ، يعلو قامته رأس جاش بمظالم المقاصد ، جذاب ، شديد الفتنة ، له القدرة على ان يجير وراءه المهنود دون ان ينفر منه كبار الملاكين . وقد أوتى من قوة الاحتمال وطول الاناة ما لا يتوفر بعمه للقليل ، مع ما تمرض له من مسببات اليأس وبواعث القنوط . فقد عرف ان يفرض النظام وروح الانضباط على افراد جيشه ، الا انه عجز باعتباره زعيماً مؤقتاً ، ان يؤلب حوله كل القوى الراغبة في الاستقلال .

ومع رغبتها الصادقة بتجريد اسبانيا والبرتغال من كل مستعمراتها ، فقد حرصت الدول الاسكندنافية ، مع ذلك على ألا تشجع كثيراً قيام اميركا لاتينية موحدة . وبوليفار الذي كان يخشى كثيراً وطأة اوضفط وحدة سياسية من هذا العيار ، نزع في الصميم الى انشاء اتحاد فدرالي شبيه بهذا الاتحاد الذي تم في اليونان قديماً على يد فيلبس المقدوني . فكانت مدينة كورنثس مركزاً له . ولكن هيات ان تلمب بنأما دور كورنثس ، اذ ان كولومبيا الكبرى ليست بمقدونيا ، ورومان هذا العصر القابعون في جزيرتهم ، في المحيط الاطلسي ، حريصون على زرع بذور التفارقة والانشقاق .

وهكذا برزت اميركا اللاتينية لدى وفاة المنفذ الاكبر ( لبيراتور ) سوقاً ضخمة مشرعة الأبواب امام سادة البحار وارباب التجارة والاعمال ، لم تلبث ان ازدادت تفسخاً ، كما ان الفوضى استعالت فيها مرضاً عضالاً .

في الوقت الذي عجزت فيه اميركا اللاتينية اثر تحررها ، من توسع الولايات المتحدة وامتدادها تشكيل اتحاد فدرالي فيها ، اخذت الولايات المتحدة الاميركية بعد الحرب المظفرة التي خاضتها ضد انكلترا بين ١٨١٢ - ١٨١٤ ، تلسع وتمتد جغرافياً بسرعة مدهشة حتى انها أطلت في الغرب على مشارف المحيط الهادي ، وما ان طلعت سنة ١٨٥٠ حتى كانت حدودها من هذه الناحية بارزة للعيان ، واضحة ، واقتسام اميركا الشمالية الذي بقي مرجحاً لا يستقر تماماً على وضع معين واحد او احد ، مستقيم ، انتهى الى وضع ثابت . فالروس اقتطعوا لأنفسهم المقاطعة المعروفة بالاسكا التي كونت عبر مضيق بهرينغ استطالة طبيعية لسيبيريا ، والقسم الذي كان اسبانياً لعمد قريب ، اقتصر الآن على المقاطعات الواقعة حول المنطقة

الاستوائية بعد ان اقتطع الامير كيون الاراضي الواسعة التي ألقت قسماً من المكسيك في الشمال. وجاءت معاهدة اوريفون توزع بصورة حبية القسم الأكبر من هذه القارة بين بريطانيا والاتحاد الاميركي . ومع انه لم يخطر لسياسي واشنطن اذ ذلك ، ان يضموا خطة شاملة يستشرفون فيها صوى تطورهم الصاعد في المستقبل والعمل على تحقيقها ، فقد جاءت ، مع ذلك ، عوامل عديدة كالاسكان والحاجة المستمرة الى اراض جديدة ومحاربة الهنود واستئصال إشتاقهم ، والرغبة الخفية في التحرر من الضغط البريطاني وحتى من الروس في الشمال ، والحد من الامتداد اللاتيني ، وغير ذلك من ظروف عارضة ، ساعدت على تمييز هذه الرغائب وتحقيقها . الا انه جال في رأس أولي الامر من الاميركيين ، افكار توسعية برزت بوضوح من خلال الازدهار التجاري الذي نمم به الاتحاد الاميركي وبناء اساطيل تجارية وحربية ضخمة ، سام ، انهاك اوروبا بحروبها المتصلة ، على تحقيقها . وهكذا قامت ضد الشركات الروسية والانكليزية ، ولا سيما ضد الشركة المعروفة بشركة خليج هدسون الاميركية للفراء ، بإدارة ألماني مهاجر يدعى استور كان خير من يمثل مصالح الجمهورية الفنية ، هذه المصالح التي راحت اميركا تدافع عنها ، بحذرة بلسان رئيسها مونرو ، من مقاصد الروس واهدافهم التوسعية ، وبإخراج بريطانيا شيئاً فشيئاً من هذه الشراكة في السلطة على مقاطعات الاوريفون .

صحيح ان الاستيلاء على هذه الاراضي جاء متقطعاً . فقد ترك تحقيق مراحل الاستيطان والاسكان الزراعي والراعي والتعديني ، مساحات شاسعة غير مشغولة . فالابيض يتطور على حساب الهندي الاحمر بعد ان يسلبه ارضه التي يظمن اليها ويتحرك فيها على هواه ، هذه المنطقة التي لا تعرف الهدوء ولا الاستقرار لما يحف بها من مخاطر ، فيضرب خيامه في ارض معادية ، في هذه المنطقة المتحركة المتنقلة التي يعرفها الاميركي بالحدود ، والتي شهدت صراعاً خفياً ، لا يرحم ولا يلين منذ القرن الثامن عشر ، لا ينتهي الا في اواخر القرن التاسع عشر . والقائمون بهذا الصراع الخفي القامض هم على الغالب ، رواد مغامرون في بحثهم عن الازرق الرنان ، وقد اجتذب سناؤه من بعيد هذه الألوف المؤلفة من سال لعابهم على بريقه ولطمانه ، فتركوا لنا في سميمهم اليه وتكالبهم عليه حوادث لها وصف رائع في هذه القصص والروايات التي تركها لنا فنيور كوبر و واشنطنون ايرفن .

وفي اثر هؤلاء يهبط العطاش الظامثون الى الاستقلال ، الى الوحدة ، هؤلاء الهزازون الذين يعيشون في هذه الحيرة المحمومة ، بانتظار المدينة الفاضلة ، المثلى ، رمز المدينة الساهوية ، بعيدين عن الخطيئة والخطاة ، بمعزل عن المشركين الضالين . ولعل ابرز هذه الجماعات ، جماعة المورمون الذين يهبطون ضواحي البحيرة المالحلة الكبيرة ، حيث يؤسسون لهم مملكة القديسين : صهيون الجديدة . وهذا الغرب البعيد يفتن بسحره الاخاذ ، هؤلاء الاوروبيين الذين اخذوا يرون في اميركا ارض المهاد الجديدة التي عليها يتوقف تحقيق هذه المثل الخيالية التي راودت افكار

وخيال اتباع هذه الجماعات الدينية التي طلعت جديداً ، امثال الـ *Owénistes* في نيو هارموني من اعمال ولاية انديانا ، والـ *Icariens* في مدينة نوفو ، من اعمال ولاية أليوني ، وفي تكساس ايضاً فئة الـ *Sociétaires* واخيراً وليس آخراً اصحاب بدعة الـ *Mennonites* كما يتوارد على حوض نهر المسيسيبي ، بأعداد تأخذ دوماً بالارتفاع والاتساع ، البريطانيون والاييرلنديون ، والالمان والسكندنافيون الذين غادروا بلادهم تحت وطأة البؤس والمسكنة او تحت عوامل الضغط السياسي الذي كثيراً ما تعرضوا له .

واميركا الفتاة هذه التي بوتقت انسانيتها بخشونة وغلظ اقصرتها على تربية الماشية والأعمال الزراعية على نطاق واسع ، في هذه المروج والسهول المترامية الاطراف ، ذات التربة المعطاءة والاقليم القاسي . فما يكاد المعمر يظل بقامته القارعة الطول من وراء جبال الابلاش الملتفة الأحراج ، حتى يفضي به المطاف الى سهول جرداء ، حيث تغمره وحشة مخيفة ، عليه ان يتدبر امره بأي حل وحال . ولما كان لا مال عنده ، كان عليه ان يستلف ويستدين ليؤمن حاجته من البذار معمولاً على الموسم لتسديد دينه . وهذا الغرب البعيد النائي الذي يصلح الطباع ويوحى الى ساكنيه الشعور بالمساواة ، ويحرك روح المغامرة في النفس ، يدور بالفعل ، في فلك الولايات الشرقية مع انه يمد المؤخرة بالكثير من حاجاتها للحبوب واللحوم ، وهكذا تنظر الى الساحل المنبسط امام الهيض الهادي نظرتها الى مستعمرة نائية . كان الاتحاد الاميركي يضم عام ١٨٥٠ نحواً من ٢٣ مليون نسمة ، بينما لم يتجاوز عدد سكانه عام ١٨٢٠ ، تسعة ملايين لا غير . فكان خط العرض ، المار بمدينة بتسبرغ المحور الذي يمر فيه العمود الفقري للسكان ، بينما محور الانتاج الصناعي يقع في بلطيمور وضواحيها . فشبكة الخطوط الحديدية جمعت بين شيكاغو وسان لويس قبل عام ١٨٥٢ ، ومع ان الولايات الأطلسية اخذت تتحسس بهذه الروح الاستقلالية التي جاش بها الغرب ، فلم تكن على استعداد قط للتخلي عن سيادتها وسيطرتها .

وهذه الجمهورية الفتية تلت النظر بمؤسساتها ونظمها الوطيدة .  
روح واشنطن وجيفرسون  
الديموقراطية  
فها هو ميشال شيفاليه يقف مشدوهاً امام الانجازات المادية التي حققتها ، والطاقت الاقتصادية التي تتوفر لها . فتوكفيل يرى في هذه الاوضاع التي تمت لها دليلاً قاطعاً على متانة هذه الديموقراطية ورسوخها ، وبشيراً بمستقبل زاهر عظيم . فهل نجحت يا ترى الحرية على التأقلم في هذه الديار دون ان يطراً عليها أي زيغ او المحرف أو ان تصاب بأي سوء ؟

فالتطور الديموغرافي الذي أخذت بأطرافه لا يمكن رده الآن الى هجرة كثيفة واسعة . فالنازحون اليها بين ١٨٢٠ - ١٨٤٥ يزيد عددهم قليلاً على المليون . ففي عام ١٨٥٠ ، ترى مهاجراً واحداً يدخل البلاد مقابل ٩ ولادات . فالشعور الاميركي الاصيل يستبد قوياً بالسكان الذين اخذت نفوسهم تجيش بروح اميركية صرفة .

وهذه الأوساط الاجتماعية التي استقر عليها وضع هذه الأمة الجديدة هي التي تتولى التوجيه في البلاد وتستأثر بإدارتها . فسكان الريف في هذه الولايات المعروفة بانكلترا الجديدة وفي بنسلفانيا من ذراري البيوريتيين المزمتمين في امور الدين والمتوديست الذين جاؤوا البلاد من قبل بكثير ، قد حافظوا على بساطة النفس في اخلاقهم ومعايشهم ، فانقطعوا للأعمال اليدوية ينتجون شيئاً من كل شيء ، وانخذوا من قراء الكتاب المقدس عادة لهم واستمسكوا بروح الديموقراطية المحافظة .

اما على الساحل حيث تكثر الخلعان العميقة ومصبات الانهر العريضة ، فقد قامت بوجوازية ناشطة انقطعت للمشاريع والانشاءات البحرية والاعمال التجارية الواسعة : كتجارة الرق وتجارة الروم وصيد السمك ، وكلها اعمال عادت على اصحابها بثروات واسعة استثمروها في تجارة الشاي والتوابل فالحرير وانشأوا دور صناعة ضخمة لبناء السفن ، امننت للاتحاد ربحاً من الدهر ، اقوى اسطول تجاري شراعي في العالم ، واست لها صناعة ضخمة للنسيج والحديد تبشر بمستقبل عظيم . وهؤلاء الأغنياء الحديثو النعمة الفوا في البلاد طبقة من النبلاء توطدت علاقاتها مع الانكليز واقتبست الكثير مما طلعت به الحضارة البريطانية وشمخت بأنفها على الملكية وطبقة النبلاء في البلد الأم سابقاً . وقد تجملت ثقفتها بنفسها على الوجه الاثم . فهذه المثالية التي يمثلها خير تمثيل أمرسون ، هذا الوزير التوحيدى المذهب والطريقة التي صرح عنها عام ١٨٣٧ قائلاً : « طال اصفاؤنا لهواتف اوروبا وموحياتها . فقد حان الأوان لأن نمشي على ارجلنا وان نعمل بأيدينا وان نمبر عن خواجلنا وهواجسنا وافكارنا » .

وهذا التطور الصناعى الذي حققه شعب انكلترا الجديدة ونيويورك وبنسلفانيا ولتد في نفوس القوم هناك عقلية اقتصادية سيطرت على العقول . فمنذ عام ١٧٩٠ ، اقيم في مدينة بتسبرغ مصب كبير للحديد ، وارتفع عام ١٧٩١ أول مصنع في البلاد للنسيج في ولاية رود ايلاند وفي سنة ١٨١٠ ، استعملت لويل احد مساقط نهر مريماك لتوليد القوة المحركة ، فأنشأت في هذا السيل شركة خاصة اشترت الارض وشيدت عليها مصنعاً وبننت مدينة ، فبلع انتاج العمل ٣٨٠٠٠٠ نول لجل القطن عام ١٨٤٠ . الا ان عدم توفر اليد العاملة وقلة كفاءتها وغلاءها جعل المصنع المذكور يعول اكثر فأكثر على الآلة . كما ان ارباب العمل المذكور اتخذوا الطريقة الابوية في معاملتهم للمال . وهكذا نرى في لويل ٥٠٠٠ امرأة ينزلن بنسيفونات يقوم على ادارتها ارامل تدفع اجورهن من حسومات يقتطعها ارباب العمل ، مع تأمين الوسائل الصحية والتقىد بأوقات الخدمة الدينية في مواعيدها المينة . وعبئاً قامت نقابات عمالية مطالبة بتطبيق العمل على القاعدة التي تقول من الستة الى الستة بدلاً من شروق الشمس الى مغيبها ، وعبئاً يخطب فرنسيس رايت نصير المرأة وأحد انصار فلسفة أوين حول صراع الطبقات امام حشود من حزب المال . إلا ان ارباب العمل اصموا آذانهم امام هذه المطالب متعللين بجزية العمل وراحوا يسعون للتحكم

بالاسواق الداخلية . كان باستطاعة الاثرياء ان يؤمنوا حاجاتهم من انكلترا ، اما الاصناف المحلية الصنع فيجب ان تخضع لنظام التعرف ، بعد ان صدر بذلك عام ١٨١٨ قانون كان بالنسبة للسفن الأجنبية بمثابة قانون الملاحة في انكلترا . وهذه السياسة المستوحاة من مبدأ مونرو يمكن اعتبارها بمثابة استقلال البلاد الاقتصادي .

ومن حسنات قانون الجمارك هذا ان ادى الى تغذية ميزانية الاتحاد ، كما أتاح للحكومة فرصة لتأمين وضع سليم للمالية الدولة . وقد برز ، في الشمال ، نفوذ رجال المال وذلك بإنشاء البنك الوطني وانتهاج سياسة تخفيض النقد المتداول في البلاد ، وهي سياسة سببت الكثير من المتاعب والازعاج للدينين والمتمهدين في الغرب . وقد غصت سجون بوسطن بالمئات من الموقوفين لتأخرهم عن تسديد ما يستحق عليهم من ديون . وراح الجنوب الذي كان يعتمد في معاشه على محصول التبغ والقطن يتذمر من فداحة نظام التعرف الجمركية فألف شيئاً من التحالف بين صغار الملاكين وكبار المزارعين ضد هذه الاوليفارشية المالية والصناعية كان من بعض نتائجه ان حمل الى المحكم انصار جاكسون الديموقراطيين ، عام ١٨٢٨ .

من الامور المتعارفة في الولايات المتحدة أن للحكم هناك قاعدتين يقوم عليهما تتمثلان في هذا الفريق من اصحاب الاعمال في الشمال ، وارتستوقراطية كبار الملاكين في الجنوب ، هذه الارتستوقراطية التي امدت البلاد حتى الآن ، بالقسم الاكبر من السياسيين الذين جلبوا الاستقلال الى البلاد وشكلوا الاتحاد ، امثال واشنطن ورجالات فرجينيا ، بينهم : جيفرسون وماديسن ومونرو الذين تعاقبوا ، مع آل ادامز من سكان بنسلفانيا ، على رئاسة الاتحاد الأمريكي .

ففي مثل هذا الوضع الاجتماعي الذي لا ينصرف فيه الأبيض للعمل في الأرض بملء ارادته قام في البلاد نظام اقتصادي اساسه الزراعة نهض على مزدروعات واسعة امتدت من ضفاف نهر البوتوماك حتى بلغت مشارف خليج المكسيك ، قوامه اليد العاملة والملكية العقارية الكبيرة وهو نظام لم يلبث أن اكتسح بنسلفانيا على يد فريق من الهولنديين والمهقرين (الكويكرز) ، وامتد الى ولايتي ماريلاند وفرجينيا اللتين تألف منهما ما يعرف هناك بـ « نطاق التبغ » . فلم يكن من النادر قط في هذه الولايات أن نرى بين اصحاب الأطيان الكبيرة ، من يملك ٢٠٠،٠٠٠ هكتار وأكثر . الا ان جمعيات المزارعين كان معظمها يتألف ، في كارولينا وفرجينيا على الأخص ، من الملاكين المتوسطين الذين تتراوح الثروة العقارية لدى الواحد منهم من ١٠٠ - ٣٠٠ هكتار بحيث ان ١٠،٠٠٠ أسرة فقط كان للواحدة منها ٥٠ عبداً من أرقاء الزوج . هنالك لمعري طبقة من فقراء البيض تتألف من الـ *Crakers* ومن الـ *Sandhillers* أفرادها اميون كسالى ، يسكنون الزرائب ويكونون بفضاً ازرق للزوج . وكان هؤلاء الزوج يقطنون ، على

الغالب زرائب واكواخ ضيقة ويجبرون على العمل بين ١٦ و ١٨ ساعة في اليوم الواحد، وضمهم في فرجينيا أرقق منه في اية ولاية اخرى ، وسمي جداً في مزارع الأرز في ولاية كارولينا ، يعيشون حياة الحرمان والبؤس متسكعين في جهل مدقع، ومع ذلك عرفوا النكتة وخفة الدم، يهون الغناء على الطريقة الافريقية الشعبية ( الجاز ) كما عرفوا ان يفوزوا خلال خدمتهم ، بثقة اسيادهم ، يراعى جانب الزمحية المروض التي فرضت نفسها . فاذا ما كان الدين يوصي ابناء حام بالحضوع والخنوع ، فاللامبالاة التي تقرأ على سيانهم تخفي وراءها الكثير من المشاعر الدفينة . الا ان الغناء النخاسة وتحرير عدد كبير من الزوج ادخل في روع البعض ان تجارة الرق تلفظ انفاسها الاخيرة . الا ان اختراع هويتني للمعالجة في عملية حلج القطن واشتداد الحاجة الى الزوج ، في كل من اوربا وانكلترا الجديدة ، بعث المزيد من النشاط في هذه التجارة . واقبل الجنوب على تنشيط زراعة القطن ، وعري بشيء من الهوس الجنوبي من اشجارها الاراضي التي تطل على مشارف خليج المكسيك حيث غلبت زراعة القطن الطويل التولة ، والقطن القصير التولة . وكلها زراعات يقتضي لها الكثير من اليد العاملة . وبالرغم من تزايد اليد العاملة ونموها المتصاعد فقد عجزت ، مع ذلك ، عن الوفاء بمطالب زراعة القطن وحاجتها للعالم بعد أن اخذ الانتاج يتضاعف كل عشر سنوات . وقد ركن المزارعون الى اسواق النخاسة لتأمين حاجتهم من اليد العاملة من الزوج ، بما ادى الى ارتفاع اسعارهم حتى ان بعض البلدان راحت تنظم عملية تربية « ماشية الملونين » دون ان يؤمنوا أمور تغذيتهم بالقدر الكافي ، واستطاع تجار النخاسة في كوبا وغيرها أن يؤمنوا لهم ارباحاً طائلة ، كما ان التشريع اخذ ينزع الى الحد من تحرير العبيد والحؤول ما امكن دون هربهم من المزارع .

فالمزارع يقطن عادة منزلاً رحباً له شرفات عالية تقوم على حفاقي الأعمدة وينعم بأثاث وثير هو على الغالب من صنع انكليزي ، متخرج على العموم من جامعة هارفرد او أية جامعة أخرى وتمت له ثقافة عالية ، ويستسلم للذة المطالمة في اوقات فراغه ويستقبل في منزله عدداً كبيراً من الأصدقاء ، ويهوى الصيد والقنص وسباق الخيل ومشاهدة مصارعة الديك ، ويقدم الولائم الفنية ، ويشترك بإدارة الناحية ، كما يعهد اليه عادة بإدارة الشرطة ، كما يتولى الاشراف على العمال في مزرعته ، ويهجه أن لا يمثل إلا لصوت الانسانية ولطالبها الحققة ؛ إلا أن وضعه مرتبط الى حد بعيد بتقلبات المواسم والاسعار ، اذ كثيراً ما كان يحيا في مستوى يفوق امكاناته المادية ، ولذا كثيراً ما رأى نفسه بحاجة للاستدانة والاستلاف من التاجر الذي اعتاد شراء محصوله من القطن أو التبغ . ولما كان كثير الاعتداد بمنزلته ، فقد تألم كثيراً في قرارة نفسه من هذه التابعية التي اقصر عليها أبواب الثروة وأصحاب رؤوس الامال في الولايات الشمالية .

والدستور الذي عمل به منذ عام ١٧٨٩ ، جاء مطابقاً للروح الذي جاشت في صدور

أصحاب اليسار والدعة ، ويتفق تماماً مع ذهنية بلاد تتمدد فيها الملل والنحل ، لا يحسن أتباعها الانقطاع الى عاداتهم ومناسك عقيدتهم الدينية الا في ظل التسامح الديني . فقد أعجب توكفيل بالطريقة التي تتوزع معها السلطات العامة في البلاد التي جاءت وفقاً لما فصله مونتسكيو في كتابه «روح الشرائع» وبالنشاط الذي تزخر فيه المجتمعات البلدية هنالك ، وهذا الورع المدني الذي يبعث في النفس مخافة الله والاحتكام الى المحكمة العليا عند طغيان الهيئات السياسية وخررجها على القانون. صحيح ان الشكل الاتحادي تغلب ، في نهاية الامر على صيغة التحالف ، وكل ما لا يدخل بشكل او باخر في اختصاصات مجلس الكونغرس او حكومة الاتحاد ، يبقى ضمن اختصاصات الولايات او الشعب . فالنزعتان الاتحادية والجمهوروية اختلفتا تماماً ، في هذه الفترة التي سيطرت فيها المشاعر الطيبة . فالتسويات النافعة والمفيدة أنيط امرها بهذه المؤسسات التي تعمل بطواعية ومرونة ، منها على الأخص التسوية الحبية التي تميز بها حل مشكلة الميسوري ، هذا الحل الذي تم وضعه ، عام ١٨٢٠ ، وضمن المستقبل وأمنه ، وأجل البت بقضية ما اذا كان سيموت على العبد او اليد العاملة الحرة في بلاد الغرب . وقد خشي على النظام من أن يؤول انتخاب جكسون للرئاسة ، الى الاخلال بحبل الامن في البلاد ، بعد ان وصل الى الرئاسة الاولى على اكتاف حلف من المتذمرين كرس الاخذ بالنظام المعروف *Spoil System* هذا الرئيس الذي جيء به من الغرب ، ووضع حداً لسلسلة حكام فرجينيا وتصدى للامتيازات التي يتمتع بها رجال المال ، وخفض رسوم الجمارك . الا ان الحزب الديمقراطي وانصار الرجوع الى «عهد المشاعر الطيبة» - الاحرار - قاموا بتنازلات متبادلة . فالى عام ١٨٥٠ ، تاريخ الاتفاق الذي تم بشأن كاليفورنيا ، استمر الاندفاع نحو الغرب حتى حدود المحيط الهادي ، على حساب المكسيك ومصالحه الحيوية ، دون ان تثير قضية الرق في البلاد اي اضطرابات يخشى منها . وقد خرج الاتحاد من هذه المشكلات اقوى وارسخ وضعاً . فعمد مع انكلترا معاهدة تضمن حياد قناة يمتل انشاؤها عبر قناة بناما . وهكذا اصبح الاتحاد دولة كبرى عظمى الجانب . وقت لها عام ١٨٦٠ ثروة زادت ثلاثين ضعفاً عما كانت عليه عام ١٨٠٠ ، كما ان دخلها القومي زاد ستة اضعاف .

ضربة تنزل بالاستعمار القديم:  
الفناء الرق

فالنظام الاستعماري الذي ساروا عليه في البلدان الحارة ارتكز ليس على شد المستعمرة بالبلد الام شداً وطيداً فحسب ، بل ايضاً على استثمار اليد العاملة الملونة فيها ، فمولوا عليها في استثمار الارض واستغلالها الى اقصى حد . والحال فقد فام في القرن الثامن عشر تياران ضد الرق ، من هنا فلسفة الانوار باسم حقوق الانسان ، تبنتها معظم الملل والرحل الدينية في انكلترا من مثوديست وانجيليين وكويكرز ، وبعض الكاثوليك ، وفقاً لبعض تعاليم المسيحية فراحوا يهاجمون نظاماً مضاداً في الصميم الاخلاق ، ومن هنك ، الاقتصاديون المتحررو التزعمة الذين

راحوا ينتقدون شكلاً من أشكال العمل لا يفسح مجالاً لأي محرك او مشوق للربح الشخصي . وراحت هذه النظريات المشبعة بالروح الانسانية، وهذه الحجج التي تقوم على الواقع تصدم بشدة مصالح بعض الفئات الخاصة والتقاليد القوية المعمول بها في البلاد. ففي الوقت الذي راح فيه دستور الاتحاد الاميركي يحدد بحسبة بالغة ، عام ١٨٠٨ ، كتاريخ اقصى لتحريم الرق، كان قانون إلغاء الرق في المستعمرات الفرنسية الذي اصدره المؤتمر الوطني في فرنسا ، قد بقي حبراً على ورق ، اذ ان بونابرت ابطل هذا القانون ، عام ١٨٠٢ ، مما سبب فقدان جزيرة سان دومينيك الى الابد . والقرار الذي اتخذته جيفرسون عام ١٨٠٧ تنفيذاً للوعد الذي قطعه الدستور الاميركي ، والدعاوة الناشطة التي قام بها ولبرفورس وبعض اصدقائه في هذه الفئات الدينية ، حملت مجلس العموم البريطاني على اتخاذ قرار يحظر النخاسة والاتجار بالرق ، كما ان كستلينغ نال من بعض الدول الكبرى المثلة في مؤتمر فيينا قراراً بتحريم هذه التجارة الوحشية، وهو قرار اعيد إقراره من جديد في معاهدة اكس لاشابل وفي معاهدة فيرونا . وناپوليون ، خلال فترة المائة يوم ، ولويس الثامن عشر في معاهدة باريس الاولى قطعاً على نفسها مثل هذا التعهد . الا ان تطبيق الوعود والاتفاقات شيء وقطعها آخر ، لا سيما وقد اشتد الطلب ، في العالم الجديد على الزوج ، إثر التطور الذي عرفته مزدروعات القطن والسكر . فقد استقبلت جزيرة كويا اكثر من ١٠٠ الف رق من الزوج بين ١٨١٠ - ١٨٢٠ ، واستوردت البرازيل منهم اكثر من ٤٠٠٠٠٠ اسير زنجي في السفن التي ترفع العلم الفرنسي ، حسبما جاء في تقرير قيادة العمارة البريطانية<sup>(١)</sup> .

وقد اثارت قضية حق تفتيش السفن مشاكل حادة بين بريطانيا العظمى ومعظم الدول الاخرى التي ابت عليها القيام بهام المراقبة البحرية . ففرنسا والولايات المتحدة تسلمان بمثل هذا الحق على اساس المعاملة بالمثل على ان تتم المراقبة بالاشترك معاً . ولم ترضخ اسبانيا لهذا القانون الا عام ١٨٣٥ ، بعد وفاة الملك فردينان ، والبرتغال عام ١٨٣٩ ، تحت التهديد بمطاردة السفن التابعة له ، والبرازيل عام ١٨٥٠ ، في اثر ظهور الاسطول البريطاني امام شواطئه . فبالاضافة الى المعاهدات ال ٢٦ التي تم وضعها ودخلت دور التنفيذ ، يجب ان ننوه هنا بهذه المعاهدات الثنائية الاخرى التي عقدها بريطانيا مع رداما ملك مدغشقر ومع سلطان مسقط ، بغية إحكام نطاق المراقبة في المحيط الهندي .

بما لا شك فيه قط ان النخاسة لا يمكن ان تنقطع حركتها تماماً ، بل تبقى عصبى شيء من النشاط الحتمي طالما لم يتقرر بعد إلغاء الرق بصورة رسمية قاطمة . أفلم تحذر الجمعيات المطالبة بإلغاء الرق من ان نظام المراقبة والتفتيش الجاري الاخذ به من شأنه ان يحمل تجار النخاسة على

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، مجلد ٥ ص ٣١٦ من الطبعة العربية .

ممارسة تجارتهم هذه بصورة افطع واكثر فظاظا من ذي قبل .

ونشطت على الاثر دعاية قوية مطالبة بالغاء الرق ، اختلفت نتائجها وتباين مفعولها بين بلد وآخر .

فالموقف الذي ستقفه الولايات المتحدة من هذه القضية ، سيكون حاسماً . الا ان تحرير العبيد وعقهم لقي فيها معارضة قوية من قبل كبار المزارعين لم يتزحزحو عنها قيد أنملة . صحيح ان الرق يحد الكثيرين ممن يشجعون عليه في اوساط عديدة . فأمام السياسيين واوساط رجال الاعمال الذين يترددون متأرجحين في مواقفهم ويخشون الانقسام الذي يلوّح اكثر الجنوبيين حاسة باللجوء اليه ؛ وامام موقف القساوسة الذين يستشهدون بنصوص التوراة التي تعترف باستعباد سلالة حام ، فقد وجدت جماعات الكويكرز والانجليكان والمعدانيين ، وحتى الكاثوليك انفسهم امام شعور عارم يأخذ بالازدياد كل يوم ، اكثر فأكثر بين سفار التجار واصحاب المخازن والمهال والمعمرين في الغرب حيث لا يرون فائدة تذكر من عمل الارقاء . فمع شجب الكويكرز لاممال العنف والقسر ، فقد راحوا مع ذلك ينصحون باعتماد اسلوب مقاطعة المواد الاستهلاكية التي يؤمن انتاجها انصار الرق و « من لف لفهم » . فقام من يقترح اعادة الزنج الى افريقيا وطنهم الاصيل . وفي هذا السبيل أسست مدينة فريبتون ومونروفيا . ولن تلبث ليبيريا ان اصبحت جمهورية مستقلة ، كما اطلت علينا مدينة ليرفيل . وفي سنة ١٨٣١ ، قابلت اميركا ثورات اوروبا ، بالنداء الذي اذاعه منضد الحروف ، الاميركي غاريسون في جريدة « ليراتور » ، وبالثورة الدامية التي قادها الزنجي نات ترنر فجعلت الجنوب يرتعد هلعاً . ومنذ ذلك الحين اخذت الشاعر بالهيجان . ومع ذلك فلم يكن ثمة ما يمكن اعتباره تهديداً مباشراً للرق . هنالك مصالح عديدة يهددها اصدار قانون بالغاء الرق وتحريره . ولم يقنع الجنوب بمواجهة الدعاية ضد الرق بدعاية معاكسة ، ورفع التوراة في وجه التوراة . فسقطت انتصرت عام ١٨٤٨ سياسة السيطرة والتحكّم التي كان يمثلها في تكساس . وبعد ذلك بسنتين فرض الاتفاق الذي اعلنت بموجبه كاليفورنيا ولاية جديدة ، والمكسيك الجديدة ، قضاء حراً ، وجوب اعادة الزنوج الفارين الى اسيا دهم الاول . وهكذا فالمصير القاتم بقي جائئاً على صدر الولايات المتحدة يشل منها الحركة وليس من يستطيع التنبؤ بموعدها زحزحته او رفعه .

حل عام ١٨٤٨ ، وفي السابع والعشرين من نيسان من هذه السنة ، قررت الجمهورية الثانية في فرنسا ، إلغاء الرق في كل الاراضي والممتلكات التابعة لها . كان لا بد من ثورة شباط ليتمكن شولسر من الحصول على قرار التحرير .

فاذا ما سبق الفرنسيون الدانمارك وهولندا على دروب تحرير الرق ، فلم يكن الاسبانيون في جزر الانتيل ، ولا البرازيل ، من جهتها ، على استعداد بعد للسير على النهج ذاته . وعلى

عكس هاتين الدولتين ، ما هي انكلترا نفسها تطلق الاشارة الاولى في هذا المضمار . فالصعوبات الاقتصادية التي قامت في تلك البلاد في اعقاب عام ١٨١٥ اجبرت انصار كاتنغ القائلين بالنظرية التنفمية ، على معاضدة وجهة نظر الفريق المغاير لهم في الرأي ، هذه النظرية التي اعتنقها بدورهم انصار ربنتم وتوصل في نهاية الامر المحافظون والاحرار الى التعاون فيما بينهم ، وتم تبني قانون عام ١٨٣٣ الذي يتحول بموجبه الارقاء الى عمال متدربين كما واجه امكانية التعمير على اصحابهم المتضررين في هذا القانون . وقد ادى هذا الاجراء الى تقعيد الامور في جزيرة جاما يكا التي كانت تعاني الصعاب ، وفي مستعمرة الكاب ايضا . فبدلاً من ان يرضخ سكان هذه المستعمرات لاحكام القانون الجديد ويجرروا اليد العاملة الملوثة التي تعمل في خدمة كبار الملاكين ، فضل المعمرون في تلك البلاد ، وجلهم من اصل هولندي ، مفادرة المستعمرة . وقد اعطي السكان الحرية التامة برفض المواطنة او باعطائها لمن يحري تحريرهم من الارقاء بحيث ان الالفاء النهائي للرق ارتبط الى حد بعيد باصلاح النظام الاستعماري في تلك البلاد .

نشأ في اميركا الشمالية ، وفي النصف الجنوبي من الكرة الارضية مناطق ضخمة للسكان لدى البريطانيين ، تعرض عليهم الخسارة التي فقدوها من ثورة الولايات المتحدة ونيلها استقلالها التام في اواخر القرن الثامن عشر . ولما كان قد صرف النظر عن نظام الاستثناءات الذي برهن الاختبار عن عدم جدواه ، فقد روي استعمال حلول جديدة تتفق ومستلزمات الوضع الجديد والمزاج الانكلوسكسوني المعروف بنزعة الفردية . فهذا التوسع ليس فيه ما يضير قط اذ انه يحمل الخير كله للبشرية جماء ، اذ يفضي الى تطوير هذه الاقطار البكر بالسرعة والحرية المطلوبتين . فالحرية الاقتصادية تجر وراءها الحكم الذاتي .

الاتجاه نحو امبراطورية  
بريطانية متعرة

وقالت الهجرة من الجزر البريطانية ، معتدلة اذا ما قيست بالزخم الذي اتسمت به حركة النزوح في منتصف القرن التاسع عشر ، الا انها جاءت اقوى وانشط من اية حركة مماثلة في اي بلد اوروبي آخر . فمع ان السواد الاعظم من النازحين يتجهون شطر الولايات المتحدة ، فقد تزيد سنة بعد سنة ، عدد الذين قصدوا البلدان التي يرفرف فوقها علم صاحب الجلالة البريطاني . فالازمة التي اخذت بخناق البلاد ، في اعقاب ١٨١٥ وتسريح الجند من الخدمة العسكرية ، غذى هذا التيار الذي تضخم من جراء تأزم ظروف العيش واشتدادها على ابناء الطبقة الفقيرة . فقد ركب البحر مهاجراً ، عام ١٨٤٣ ، نحو من ٦٠٤٠٠٠ ، وقد ارتفع العدد الى ٣٦٠٠٠٠٠ ، عام ١٨٤٧ ، ثم الى ٣٠٠٠٠٠٠ عام ١٨٤٨ ، حتى بلغ معدل من يفادر البلاد ١٠٠٠ شخص في اليوم الواحد . وهكذا اطلت علينا في خريطة هذه البلدان الشاسعة ، ولايات جديدة ، عمرها البريطانيون . وحركة الهجرة هذه نشطت باتجاه الكاب واتجاه كندا وبرزت في مقاطعة الناقل وكولومبيا البريطانية وتضخمت في مقاطعة غال الجديدة الجنوبية في اوستراليا ومقاطعة اوستراليا

الجديدة الغربية ثم في مقاطعة أستراليا الجنوبية ، ومقاطعة فكتوريا ومنها اتصلت بزيلاندة الجديدة . هذه الانشاءات الاستعمارية الجديدة أثارت مشاكل جديدة ارتبط بعضها بالأرض والبعض الآخر بالنظم السياسية .

فمنذ القرن الثامن عشر تمتعت الملكية العقارية ، في بريطانيا بامتيازات متحررة من كل قيد وشروط تخالف تماماً ما عرف من الامتياز الاقطاعي المعروف بإسبانيا ، باسم *Encomienda* وهو امتياز يعطى مدى الحياة . وقد لوحظ شيء من بمذقة الاراضي المقتطعة لبعض الشركات الخاصة في هذه المستعمرات القائم انشاؤها على براءة ملكية ، او في تلك المستعمرات التي يقطعها التاج البريطاني . ولن تتم المضاربات المالية ان استبدت بها فتأخر من جراء ذلك نموها . وقد كانت قوة الجذب في الولايات المتحدة اقوى منها في هذه المستعمرات واشد ، اذ كان العمل الحر فيها يطمى مردوداً اطيب . ولذا عمدوا الى وضع تخطيط عام قام على ثلاث عناصر يجب توفرها معاً : هي الارض ورأس المال والعمل . وفي سنة ١٨٣٣ ، نشر ويكفيلد كتابه المشهور بعنوان : « انكلترا واميركا » عرض فيه بصورة جلية واضحة النظام الذي ارتبط باسمه . فقد قدم الدليل على صحة هذا النظام وحسن جدواه اذ اسس منذ سنة ١٨٣٥ ، شركة أستراليا الجنوبية . ثم جاء بتجربة اخرى في زيلاندة الجديدة حيث ارتدت هذه الشركة طابعا دينياً . وفي عام ١٨٤٢ صدر قانون يعرف بقانون *Torrens* فرض القيام بعملية مسح شاملة للأراضي البور ، وحدد منها سعر الفدان الواحد .

وقد وصل الى أستراليا بين ١٨٣٥ - ١٨٥٠ ، اكثر من ٢٠٠،٥٠٠ مهاجر انكليزي بينهم عدد كبير عجز عن دفع ثمن الاراضي المقتطعة لهم ، فعملوا في خدمة مربى الماشية او في المدن . اما في الكاب فقد ادى بيع الاراضي بالمزاد والغاء نظام الرق فيها الى مشاكل وصعوبات مع البويرز ، بعد ان تعذر عليهم ايجاد مراعى قفي بالظمن بمواشيهم وعجزهم عن توفير اليد العاملة مما اضطرهم للتوجه شمالاً الى مقاطعة فالد . اما في المستعمرات الكندية حيث قام نظام الاراضي المحمية الخاصة بالاكليروس والتاج ، فقد كالم من العسير فيها توزيع الاراضي بحرية .

ومها يكن من الامر فنظام مستعمرات الاسكان اقتضى الاعتراف للمستعمرة بصلاحيات ومسؤوليات عليها ان تقوم بها وتعمل اعباءها . فمنذ عام ١٧٩١ ، اعترفت انكلترا في اعقاب تحرر الولايات المتحدة ونيلها الاستقلال الناجز ، لمقاطعتي كندا العليا وكندا السفلى ، بانشاء نظام تمثيلي في كل منها . وفي الكاب ، بالرغم من المنافسة الحادة القائمة بين البريطانيين ، وبين البويرز ، اضطرت السلطات هنالك لمسايرة الاهلين والعمل على ارضائهم ، بالاعتراف لهم شيئاً فشيئاً ، بامتيازات معينة ، بعد ان برهنوا عن ارادة قوية في التوسع باتجاه مقاطعة فالد . وقد نال آخر الأمر هؤلاء الذين اغتصبوا الاراضي ( *The Squatters* ) في مقاطعة غال الجديدة الجنوبية المعروفين بفرديتهم ، شيئاً من أوليات النظام التمثيلي .

اما الحادث الخطير فهو هذه الازمة التي اخذت بخنات كندا وادت فيها الى تطبيق برنامج دورهام ، عام ١٨٣٩ . ولما كانت اكثر المستعمرات البريطانية المكتظة بالسكان وموضوع اشتهاه القومية الاميركية ومرامي اطاعها التوسعية ، ونظراً لهذه الاقلية الفرنسية القوية التي تمتعت فيها بنظام تمثيلي ، اجتازت كندا فترة من الاضطرابات الحادة . فالقانون الدستوري الذي صدر عام ١٧٩١ وقضى بفصل كندا العليا عن كندا السفلى ، امن السيطرة في البلاد لارستوقراطية عقارية ، او تجارية ، واعترف ، في الوقت ذاته بمركز ممتاز للكنيسة الانكليكانية فيها . وقد اهاج مثل هذا الاجراء ، المزارعين وعمال الارض من الكاثوليك واتباع بعض الطوائف البروتستانتية . فالتفوا من بينهم معارضة انتصبت في مجالس الاقليات . فالاضطرابات التي وقعت عام ١٨٣٧ ، اقامت لندن واقعدتها . فبينما مال اللورد بروغهام وبعض اعضاء الحزب الراديكالي الى منح كندا استقلالها ، راح اللورد دورهام ، من ناحيته ، يقوم بتحقيقتين دقيقتين حول الموضوع ووضع عند انتهاء تحقيقه تقريراً كان صدره حدثاً تاريخياً في تلك البلاد ، اذ اقترح بأن تتمتع كلا الولايتين بالحكم الذاتي، لكل منهما مجلس تمثيلي منتخب، ومجلس اداري معين وحاكم له اختصاص رئيس وزراء . وهذه المؤسسات المنقولة عن النظام البريطاني جرى توسيمها فيما بعد لتشمل الولايات البحرية في ايكوسيا الجديدة وبرونسويك الجديدة ، كما انها طبقت فيما بعد ، على كل من الكاب واوراليا .

وهكذا اطلت علينا هذه الامبراطورية المتحررة، في هذا الوقت الذي سيطر على الانكليز النظام الانتخابي القائم على اساس الضريبة وسياسة حرية التجارة .

فاذا ما توقف الاخذ بالسياسة الاستعمارية القديمة ، من جهة عودة الى التوسع والتبسط في كل من الغرب وفي النصف الجنوبي من قارتنا الارضية ، فقد سيطرت هذه السياسة واعتمدت اساساً واتخذت قاعدة ، تمشوا عليها من جهة الشرق . وهذا الانحراف زامن فترة بسط النفوذ البريطاني على الهند برمتها ، لم يفت الاجيال الماضية معرفة شيء مما يتصل : بطريق الكاب وشعوب البربر القاطنة في المغرب ومصر ، والسلطنة العثمانية الآخذة بالانحلال والتفكك ، واستثار هذه الارخبيلات الآسيوية الواقعة الى الجنوب من آسيا والى الجنوب من الهند ، وما للعالم الاصفر من فتنة وسحر ، وما الى ذلك كله مما يتصل بالقضية الشرقية التي ألف الاوربيون شؤونها . وهكذا قامت العلائق التجارية وتوطدت واخذت الاطباع الاستعمارية تبرز وتتضح .

فلم تكن الحركة التجارية بحاجة لأكثر من وكالات تجارية واسكلة بحرية على طول الشواطئ الافريقية التي تسير واياها في رحلة طويلة من هذا النوع . فلما كانت مدينة الكاب للهولنديين وجزيرة موريس للفرنسيين ، فقد فرض البريطانيون سيطرتهم بشدة على هذا الطريق السلطاني . فالقسم الداخلي هو موضوع اهتمام بعض الرحالة المستكشفين ، وهو ميدان رحب

لأسواق النخاسة والاتجار بالرق . فالاهتمام تركز حول مسالك البحر المتوسط . فمئذ الحملة الفرنسية على مصر ، راحت الدول الكبرى ، محافظة منها على مصالحها الحيوية ، تضع الخطط التي تخدم مصالحها في الغرب وتمهض بها على الوجه الأكمل . فقد خطر لبشال شفالیه ان يوصل الى مصر ، شبكة الخطوط الحديدية . وعندما انتظم سير بريد الهند البري خطر للمهندس ( انفانتين ) القيام بمشروع ضخم هو فتح قناة السويس . واعلنت الحرب بشدة على القرصنة ورجالها ، فراح الاسطول الانكليزي يقصف بشدة مدينتي الجزائر وطرابلس وقام اسطولهم بمظاهرة بحرية وعرض القوي ضد الداي الى ان جاءت الحملة الفرنسية ، عام ١٨٣٠ ، تضع حداً لحكمه وادارته . وفي حادثتين تركز الاهتمام بمصر واشترأت اليها الانظار : هنا رغبة في توطيد الجهود التي يبذلها محمد علي باشا لخلق دولة قوية له على ضفاف النيل ، وهناك من جهة ثانية فريق يخشى كثيراً من بروز اسرة مالكة طموحة ويوجس شراً من سيطرتها على هذا المفاوق الدولي الهام . فكل الفريقين يراقب عن كثب وضع المضائق والمرات المائية الهامة ، فتشهد القسطنطينية طوراً جديداً من هذا الصراع العنيف الناشب بين روسيا وانكلترا ، للسيطرة على هذه المرات التي تعد من ام مفاتيح البحر المتوسط .

ان عدم التسليم بالانتقاص من هيبة الدولة وضرورة السير الى الامام لترسيخ نفوذ الدولة ، كل هذه الاعتبارات تفسر لنا البده والصعوبات التي رافقت عملية فتح الجزائر وهي عملية جاءت بنت الحاطر ولم يخطط لها من قبل . فالتصرف الفرنسي في هذه الناحية من الناحية الافريقية الشمالية يشبه الى حد بعيد ، مسلك انكلترا وتصرفها ، في الناحية الجنوبية . فنظراً للمسافات الشاسعة ، ولقيام هذا الجدار الذي يؤلفه البويرز في وجه تقدم الانكليز شمالاً ، اقتضى التغلغل الانكليزي في هذه الاقطار الجنوبية طوال القرن بكامله ، بينا إخضاع الشعب الجزائري كاد يفرغ منه في الوقت الذي سقطت الملكية في فرنسا ، في تموز .

واهم من هذا كله واوسع ، هذه الأهداف التي رسمتها انكلترا من حروبها الطويلة في الهند . فهي امام كتلة بشرية من ٢٠٠ مليون نسمة تختلف عنهم عرقاً وأصلاً وفصلاً ولغة وديناً ونمط عيش ، ليس فيهم ما يجمع او يوحد ، واما هم غاز طامع فيهم يرى نفسه بعميداً عن قواعده ، قليل العدد والمدد ، انما تجيش نفسه بالجرأة والاقدام ، مبطن بدبلوماسية مراوغ . وهنا ، كما في الجزائر ، فقد حل تدريجياً محل الاحتلال المحدود اشراف عام على البلاد بأجمعها . صحيح أن وضع امراء الهند ساعدوا جزئياً على تأمين نجاح هذه المغامرة الضخمة . وهكذا استطاع خلفاء كورنواليس ولسلي من هاستنغز الى اوكلاند الى البورور أن يتفندوا من الهند الرطبة الى الهند الجافة ، وأن يبسطوا نفوذهم حتى مشارف ايران ، وأن يحتلوا السواحل الجبلية الممتدة من الخليج الفارسي حتى بورما . فالهدف الأساسي لسياسة لندن الدولية في هذه المنطقة هو إخضاع امراء هذه المقاطعة أو تلك لسيطرتها والنحكهم بتغورها ومسالكتها . فاذا

كان لابد من ضمان حرية الطرق الموصلة بين أوروبا والشرق الأدنى ، استلزم ذلك وجوب السيطرة التامة على المحيط الهندي مما أدى الى احتلالهم لسنغافورة ولماضيق مالقا ، ولماضيق عدن من جهة الغرب ، وهما بمثابة جبل طارق . فسنغافورا ومالقا يتحكمان الى حد بعيد بشواطئ الهند الصينية وبالامبراطورية الهولندية في الانسولاند والممتلكات الاسبانية في الفيليبين . ففي الوقت الذي تنصرف فيه البلاد الواطية لحروبها الاستعمارية رامية منها لبط سيطرتها على اجاوا وصومطرة بعد ان اعيدت هذه اليها ، راحت بريطانيا العظمى تسمى لبط سيطرتها على اسواق الشرق الاقصى . وانتهزت مناسبة حرب الافيون ، فاحتلت هونغ كونغ وارغمت الصين على فتح منافذها للغرب . فبعد ان تحولت تجارة الحرير والشاي باتجاه البحر ، فلن تلبث ان وقعت ضمن الشبكة التجارية التي يشرف عليها الانكلوسكسون .

وفي هذا الوقت بالذات توعد الامبراطورية الروسية تجار الفراء عندها الى الاسكا فتهدد بذلك الاميركين في عقر دارهم في المحيط الهادي ، كما تدفع ببعض القوزاق على الطريق السرية التي يسلكها تجار الشاي ، باتجاه واحات آسيا الوسطى . صحيح ان بيروفسكي يفشل تماماً في محاولته الوصول الى خيوة وسط الصحراء ، فقد استطاع مورافيف المأموري ان يظهر امام ساخالين . وقام نيفلسكي بتأسيس مدينة نيقولايفسك ، فبلغ لب انكلترا لهذه الانجازات . ومع ذلك صمدت مقاطعة القفقاس طويلا امام الفتح الروسي ، واذا ما تمكن الروس من تطويق هذه المنطقة الجبلية واستطاع الجيش الروسي النفاذ الى قلب مقاطعة جورجيا رادربيجان ، فسدقى المنطقة الجبلية على عصيانها وتمردا ، مدة طويلة ، وهنا ، كما في الجزائر ، وكما في الهند ومايزيا ، يحاول العالم الاسلامي ان يصمد ويواجه القوة بالقوة .

ففي الوقت الذي حاول بعضهم فيه استشراف المستقبل امام روسيا وانكلترا ، تحافظ أوروبا الغربية من وراء انكلترا على سبقها ، هذا سبق الذي يؤلف لها خير حافز لاستثاء موارد العالم الفنية .